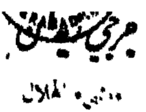


رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الخامسة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

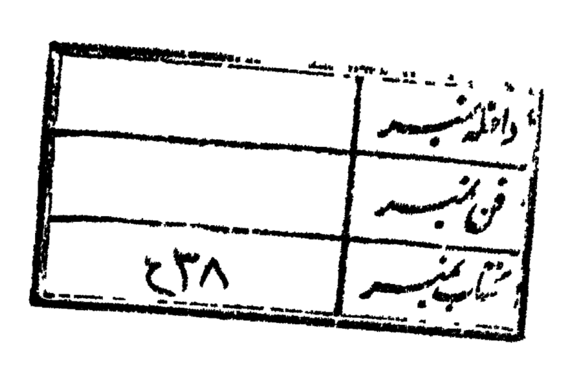
وتتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها
من الحوادث الفظيعة . وافظعها مقتل الامام الحسين
واهل بيته في سهل كربلاء ووقعة
الحرة الى وفاته سنة ٦٤ للهجرة



منشئ الهلال

الطبعة الرابعة

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر
سنة ١٩٢١





غادة كربلاء

رواية تاريخية غرامية

ي الحلقة الخامسة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

وتتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها
من الحوادث الفظيعة . وافظعها مقتل الامام الحسين
واهل بيته في سهل كربلاء وواقعة
الحرة الى وفاته سنة ٦٤ للهجرة

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الطبعة الرابعة

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر
سنة ١٩٢١

مقدمة

الطبعة الثانية

طبعت هذه الرواية طبعتها الاولى سنة ١٩٠١ فلاقت اقبالاً كثيرا ووقعت وقعاً حسناً لدى ادباء المسلمين وعلى الخصوص اهل الشيعة لما فيها من حوادث الحسين واهله فنقلها البرنس عبد الحسين مرزا الى اللغة الفارسية وزينها بالرسوم وسماها تاريخ سلمى وقد طبعت في طهران بمجلدين

وهي تتضمن مقتل الامام الحسين وما تقدمه ولحقه من الحوادث الى وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ وكيف افضت الخلافة الى بني أُمية الى موت يزيد وقد مثلنا فيها فظاعة مقتل الحسين اوضح تمثيل ووصفنا عادات ذلك العصر واختلاف آراء اهله في الخلافة ومستحقيها والله الموفق في كل حال

(طبعت ثانية سنة ١٩٠٩ وثالثة سنة ١٩١٩ ورابعة سنة ١٩٢١)

الفصل الاول

بنو هاشم وبنو امية وتنازع الخلافة

قريش قبيلة من عرب الحجاز تحتها بطون أشهرها بطن عبد مناف . وهو فخذان بنو أمية وبنو هاشم وكلاهما ينتميان لعبد مناف . وكان لهذين الفخذين الرئاسة في قريش جميعاً لا ينازعهما فيها منازع الا أن بني أمية كانوا اكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً وكانت اليهم الزعامة في الحرب

ولما جاء الاسلام والنبي من بني هاشم اعتز به الهاشميون ودهش الناس من أمر النبوة ونسوا أمر العصبية . لاسيما وان الاسلام نهاهم عنها كما في الحديث « ان الله اذهب عنكم غيبة الجاهلية وفخرها لاننا وانتم بنو آدم وآدم من تراب »

وما زال العز في بني هاشم في مكة حتى مات ابو طالب عم النبي وهاجر بنوه مع من هاجر من الصحابة الى المدينة وفيهم حمزة والعباس عما النبي وكثيرون غيرهم من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم . فخلا الجو في مكة لبني أمية وصارت الرئاسة اليهم في أثناء محاربتهم المسلمين في بدر وغيرها ورئيسهم يومئذ ابو سفيان والد معاوية مؤسس الدولة الاموية

ولم يزل المسلمون في غزواتهم حتى فتحوا مكة سنة ٧ هـ كان ابو سفيان كبير قريش [illegible] . ودخل المسلمون مكة لا محالة فجاءهم وأسلم ثم [illegible]

ولما [illegible] قريش يسالون من المناصب [illegible] بكر فقال لهم « دركوا اخوانكم [illegible] وقوموا الاعراب . ثم

تولى عمر فبعث بهم الى حرب الروم في الشام فافتتحوها وظل معظمهم هناك. وتولى ولاية الشام منهم يزيد بن ابي سفيان حتى مات في طاعون عمواس فخلفه أخوه معاوية . ولما تولى الخليفة عثمان أقره عليهما فاتصلت رئاسة بني أمية على قريش في الاسلام كما كانت قبله واشتغل بنو هاشم بامر النبوة ونبذوا الدنيا

فلما قتل عثمان واختلف الناس على من يبايعونه بعده كان دعاة علي اكثر عدداً ولكنهم كانوا افيفاً من قبائل شتى من ربيعة ويمن وغيرهم . وكانت أحزاب معاوية كلها من قريش أهل البأس والشدة وهم جند الشام الى ذلك الحين . فكانت عصبية معاوية أشد وامضى . ثم ظهر الخوارج من رجال علي فانكسرت شوكته حتى اذا قتل علي سنة ٤٠ ه اضطر ابنه الحسن ان يخلع نفسه . فاتفق الجماعة على بيعة معاوية في منتصف سنة ٤١ ه . وكان الناس قد نسوا دهشة النبوة ورجعوا الى أمر العصبية فدانوا للاقوى — بذلك غلب معاوية واستقل بالخلافة . وساعده على ذلك دهاؤه وحسن سياسته فانه كان يصانع رؤوس العرب من بني هاشم بالاغضاء والاحتمال والصبر على الاذى والمكروه وكانت غايته في الحلم لا تدرك

على انه كان من الجهة الثانية يبالغ في الحط من قدر بني هاشم وخصوصاً أهل البيت منهم وبالاخص أبناء الامام علي . وكان يفرض على من يعترف بطاعته أن يلعن علياً جهاراً فاذا لم يفعل عاقبه . وله من هذا القبيل حوادث كثيرة أشهرها مقتل حجر بن عدي الكندي أحد اشراف بني كندة في السنة الحادية والخمسين للهجرة وقد قتلوه لانه ابى ان يلعن علياً كما سيجيء

واقام معاوية خليفة في الشام عشرين سنة (من سنة ٤١ — ٦٠) والمسلمون في الحجاز والكوفة ينتظرون موته ليبايعوا الحسين بن علي لقربه

من الرسول بناء على ان الخلافة شورى يولونها من أرادوا بالانتخاب كما كان شأنها الى ذلك الحين . فسبقهم معاوية قبل موته الى بدعة احدثها فيها ما زالت مرعية بعده الى هذا اليوم نعني بها الارث فاوصى بولاية العهد لابنه يزيد . فلما توفي معاوية تولى الخلافة يزيد بن معاوية وسنه بضع ثلاثين [illegible] نفسه دمشق الشام فبايعه الناس بين راض ومكره

الفصل الثاني

دير خالد في غوطة دمشق

غوطة دمشق بقعة في بلاد الشام مشهورة بخصبها بمساحتها خمسة أميال في مثلها تحيط بها جبال عالية وتجري فيها أنهار تسقي بساتينها وتصب فضلاتها في بحيرة هناك [1] وفي هذه الغوطة عمرت دمشق الشام منذ بضع آلاف سنة. وفيها ما عدا دمشق قرى صغيرة متفرقة بينها المغارس والحدائق من أشجار الفاكهة تجري بينها الجداول والانهار

وكان على ميل من الباب الشرقي من دمشق ديرٌ قديم يقال له « دير خالد » سمي بذلك نسبة الى خالد بن الوليد لما جاء لفتح الشام في أوائل الاسلام فنزل فيه وكان اسمه قبل ذلك « دير صليبا » [2] وهو على مقربة من « مرج العذراء » في بستان تكاثفت فيه الاشجار من كل فاكهة زوجان

واذا نظرت الى ذلك الدير من خارجه تخيلته قلعة منيعة لانه عبارة عن بناء مربع تكاد زواياه تستدير ويكسو جدرانه من الخارج ملاطٌ صقيل . والجدران في صعودها تميل نحو الداخل بحيث تكون قاعدة البناء أوسع من سطحه قليلاً . ولكل جدار عضائد من البناء قائمة على طوله . مدخله ضيق

(١) مراصد الاطلاع ج ٢ (٢) مراصد الاطلاع ج ١

قصير لا يكاد يدخله الرجل الا منحنياً وله باب من الخشب المصفح بالحديد قد كساه من الصدإ غشاء كثيف . وليس للدير مدخل غير هذا الباب . فاذا دخلته مشيت في طرقة طولها بضعة أذرع كأنها دهليز ينتهي بباب آخر يستطرق الى باحة الدير وحولها الغرف طبقة واحدة الا علية منفردة يقيم فيها رئيس الدير في الصيف والخريف . وللدير في أعلى الجدران نوافذ لا يدركها كف الواقف ولو تطاول اليها بذراعه . وهي كوى صغيرة فيها شبك الحديد . ولا يكاد المتأمل يقف هناك هنيهة حتى يدرك الغرض من بناء تلك الاديرة على هذه الصورة لانهم كثيراً ما كانوا يتخذونها معاقل وحصوناً عند الحاجة . على انهم لم يكونوا يستغنون عن أسطبل أو زريبة يحبسون فيها مواشيهم ودوابهم

وكانت زريبة دير خالد بقعة مربعة من الارض فى شرقي الدير مساحتها خمسون ذراعاً في خمسين يحيط بها سور من أعواد غليظة مغروسة في الارض متحاذية عليها في اطرافها العليا عوارض من الخشب مشدودة الى الاعواد بامراس من قشور الاغصان (السلوخ) . والسور أربعة أضلاع ثلاثة من هذه الاعواد والرابع هو جدار الدير نفسه وللزريبة باب مصنوع من هذه الاعواد يدور على مصراع في طرف احد جدران السور مما يلي جدران الدير. و يقفل هناك بعارضة ضخمة تدخل في هذا الجدار . ويغطي نصف الزريبة سقيفة قائمة على اعمدة غليظة تأوي اليها الماشية والدواب في أيام الشتاء

ويحيط بالدير والزريبة والبستان جميعاً سور كبير من العليق المتكاثف علوه قامة وبعض القامة . بابه من الخشب مثل باب الزريبة لكنه أضخم منه كثيراً . وقد علقوا عنده ناقوساً اذا جاء طارق دقه فيسمعه أهل الدير فيفتحون له

تلك هي صفة دير خالد في السنة الستين للهجرة وهي السنة التي توفي فيها

معاوية بن أبي سفيان وخلفه ابنه يزيد بن معاوية على الخلافة الاسلامية في دمشق . وكان رئيس ذلك الدير شيخاً طاعناً في السن رومي الاصل قضى في الدير ما ينيف على نصف قرن.كان في بدئها راهباً وتدرج في مراتب الرهبنة حتى صار رئيساً . ولما نزل خالد هناك كان هذا الرئيس راهباً صغيراً فشهد فتح دمشق ولم يكن يعرف العربية . ولكنه اتقنها بعد ذلك . وكان لقدم عهده وسهولة أخلاقه قد حاز منزلة رفيعة لدى سائر الرهبان . وكان معاوية يحترمه وكثيراً ما يجالسه اذا خرج للرياضة في الغوطة وربما مازحه . ولما تولى يزيد الخلافة ظل على احترامه واكرامه

الفصل الثالث

منظر الغوطة

ففي يوم من ايام الخريف عام ٦٠ هـ المذكور أصبح اهل الدير كالعادة وقد جاءهم الفلاحون باحمال الفاكهة من بساتين الدير وفيها سلال العنب والسفرجل والتفاح والرمان والكمثرى والخوخ والدراقن . وكان الرهبان يتوقعون قدومهم في كل صباح من أيام الخريف ، فنزل بعضهم لمساعدتهم في ادخالها الى باحة الدير والباحة المذكورة بقعة مكشوفة تحيط بها الغرف وفي وسطها شجرة من الصفصاف كبيرة تظلل معظمها وبقرب الصفصافة بئر يستقي بها اهل الدير عند الحاجة

فادخلوا السلال ازواجاً وافراداً والرئيس لا يزال في عليته وقد عاد اليها بعد صلاة الفجر واشتغل بالصلاة الانفرادية . فانتبه لضوضاء الناس فخرج من العلية حتى وقف على قمة سلم من الحجر ينتهي الى الباحة وقد تزمل بعباءته فوق المسوح . فشرف على الرهبان فرآهم يحملون الاحمال كما تقدم . فقال لهم

« ما لي اراكم تدخلون السلال ونحن كما تعلمون لا بد لنا من حمل بعضها الى دار الخليفة لتفرق في امرائه . فافرزوها بحسب انواعها واحملوا اربعة ازواج منها الى الخليفة وزوجاً الى كل من امرائه ورئيس شرطته كالعادة » .

قال ذلك وتحول الى جانب من السطح اشرف منه على معظم الغوطة وكانت الشمس قد اطلت من وراء الجبال عن بعد فارسلت أشعتها على تلك المغارس الواسعة ففزعت اطيارها وتناثرت عن الاغصان اسراباً تتسابق الى الخلاء البعيد وقد اتجه معظمها نحو الشرق كأنها تلتمس الشمس وهي تحييها وترحب بها بالزقزقة والتغريد

ونظر الى ما بين يديه من البساتين فاذا هي تشرح الصدر وتذهب الغم بروائحها العطرية المنبعثة عن انجم الريحان المتكاثف في أشكال مختلفة واكثره قائم اسواراً يفصل بين البساتين او بينها وبين الدروب ومجاري الماء . ناهيك بالرياحين الاخرى تظللها الاشجار على اختلاف اشكالها واقدارها وقد اعتاض اكثرها عن أوراقه الخضراء بالاثمار المختلفة الالوان وفيها الرمان الاحمر والسفرجل الاصفر والآس الابيض والخوخ البنفسجي والتفاح الوردي . وفي بعض جوانب الغوطة كروم العنب باشكاله تتدلى منها العناقيد وفيها الابيض الشمعي والاحمر الوردي والاسود الفحمي يتخلل ذلك أعشاب تكسو الارض قميصاً جميلاً تختلف الوانها باختلاف اعمارها بين الاخضر الحاني والاصفر الفاقع والابيض اليقق والاحمر الزاهي . يزينها ما ينحدر بينها من مجاري الماء فوق الحصباء فيختلط خريره بتغريد العصافير وحفيف الاوراق كأن الغوطة جنة تجري من تحتها الانهار . والشمس من وراء ذلك ترسل اشعتها فتنكسر عن تلك المجاري متلألئة ويستوقف النظر انكسارها عن أسطحة البحيرات في بعض المستنقعات

وكان الرئيس منذ اقامته هنـاك لا يكاد يفوته صباح لا يقف فيه مثل

ذلك الموقف يسرح بصره في تلك المناظر البهجة . فيشتغل بهـا عما قام من ضوضاء الرهبان والفلاحين وهم يشتغلون بترتيب الفاكهة وحمل الاحمال بمـا يخالطُ ذلك من معاء الشياه وخوار الثيران ونهيق الحمير في الزريبة

فوقف يتأمل بصنع الخالق العظيم ثم أرسل بصره الى أطراف الغوطة من جهة مطلع الشمس فرأى آثار الدروب عن بعد . فاذا هي أشبه شيء بآثار الجداول اذا جف ماؤها . وفيما هو ينظر اليها بصر بقافلة علم انها قادمة من العراق أو الحجاز وفيها النياق والحمير يقطر بعضها بعضاً . فطاب له استشراف تلك القافلة لعله يعرفها أو يتبين جهتها فحال البعد بينه و بين ذلك . وكان قبل شيخوخته حاد النظر لا تعجزه معرفة الصور عن مثل هذا البعد . فلمـا اعجزه ذلك الان وقد كلّ بصره تذكر شيخوخته ولعله أسف لانقضاء معظم العمر فتحول نحو ساحة الدير وعاد الى مخاطبة الرهبان وتدريبهم في مايحملونه من الاحمال . حتى اذا فرغ من ذلك نزل الى الكنيسة فاقام صلاة الصبح كالعادة وعاد الى غرفته العليـا

الفصل الرابع

الضيوف الكرام

فصعد على السلم الحجري وفي يده درج يقرأ فيه حتى دخل عليته فاتكأ واستغرق في القراءة . ثم انتبه لجعجعة جمال تدنو من الدير فنادى قيم الدير (وكيله) وكان كهلاً قوي البنية ممتلئ الجسم جاء الدير من عهد قريب . فلما وقف بين يديه قال له « اني اسمع جعجعة فاشرف على الطريق واستطلع خبر القادمين » فاطل من بعض جوانب السطح ثم عاد وهو يقول « رأيت جمالاً محملة واناساً يظهر من لباسهم انهم من العراق »

فقال « اظنهم من القافلة التي تبصرتها عن بعد في هذا الصباح وقد تحولوا الينا فلا بد لنا من القيام بضيافتهم »

فقال القيم « وما الذي يدعونا الى القيام بذلك وهم غرباء لا نعرفهم . اما كفانا ما تقدمه من غلاتنا وثمارنا لرجال حكومتنا . أما هؤلاء فاذا نزلوا عندنا انزلناهم ساعة ريثما يستريحون ثم ينصرفون»

قال « اذا ارادوا الانصراف انصرفوا ولا حرج عليهم واما اذا فضلوا البقاء فلا يسعنا غير القيام بضيافتهم عملا بالعهدة المعطاة لنا من حلفائهم »

ولم يكن القيم قد سمع بتلك العهدة فقال « وما هي تلك العهدة »

قال « هي عهود أخذت على النصارى منذ الفتح تقضي عليهم بامور كثيرة من جملتها أن يقوموا بضيافة المسلمين ثلاثة أيام يخدمونهم ويقدمون لهم كل ما يحتاجون اليه . وهب انه لم يكن هناك عهدة فاذا نزل عندنا ضيف وجب علينا اكرامه حتى يرحل ولو اقام سنة »

فخجل القيم من نفسه وأراد ان يعتذر فسمع صوت الناقوس فقال الرئيس « لقد صدق ظني فاستقبل الضيوف ورحب بهم وبعد أن تجلسهم في اماكنهم اخبرني »

فبعث أحد الرهبان الصغار ليفتح لهم باب البستان ووقف هو بباب الدير ينظر اليهم وهم مقبلون . فاذا هم ثلاثة عليهم العبي وعلى رؤوسهم الكوفيات مشدودة بالعقال تغطي بعض وجوههم ومعهم بضعة جمال تحمل اقفاصاً واجربة مملوءة تمراً جافاً . ويدل مجمل حالهم على انهم من تجار العراق وقد جاؤا بهذه الاحمال ليبيعوها في دمشق . ولما دنوا من باب الدير لحظ الوكيل من خلال الكوفيات أن احدهم فتاة في مقتبل العمر فاشتبه في أمرهم وقال في نفسه لو كانوا قادمين لمجرد الاتجار لما كان ثمت داع لمجيء تلك الفتاة معهم . فلما وصلوا الباب خف القيم لاستقبالهم وخاطب بعض الخدم باليونانية ان يأخذوا

الجمال الى الزريبة للعلف واستقبل الضيوف وخاطبهم بلغة عربية مستعجمة لحداثة عهده في الشام . فدخلوا جميعاً وهو يتقدمهم وكان أحدهم طويلاً فلم يستطع الدخول من باب الدير الا مطأطئاً فمروا في الطرقة الضيقة حتى انتهوا الى الباب الآخر ومنه الى باحة الدير حيث الصفصافة والبئر

الفصل الخامس

عروس الرواية

وانبىء الرئيس بدخولهم فنزل لملاقاتهم هناك ورحب بهم ودعاهم للجلوس فانسوا بفصاحة منطقه بالعربية وان تكن العجمة لا تزال بادية فيها . وجلسوا على مقعد تحت الصفصافة وكل منهم في شاغل من نفسه . فتفرس الرئيس فيهم فرأى أحدهم كهلاً في نحو الخمسين من عمره طويل القامة عريض الاكتاف خفيف العضل واسع العينين اسودهما خفيف العارضين واللحية رقيق الوجه فتذكر انه رآه غير مرة . والثاني شاب لا يتجاوز عمره بضعاً وعشرين سنة ولكن من يره يحسبه ابن ثلاثين لخصب جسمه ونمو عارضيه ولحيته وكان مشرق الوجه تكاد الصحة تتدفق من وجنتيه

وأما الثالث وهو الفتاة فلم يتمالك الرئيس عند النظر اليها من الاعجاب بجمالها اعجاباً لم يسبق له في فتاة رآها في عمره الطويل الذي قضاه في دمشق وضواحيها مع كثرة ما شاهده من بنات الروم والعرب والنبط والسريان واليهود. ولم تقع عينه قبل تلك الساعة على فتاة في وجهها من الجمال والهيبة ما في وجه هذه وقد ادهشه منها بنوع خاص جمال عينيها وان لم تكونا كبيرتين كعيني رفيقها الشاب ولكنهما كانتا حادتين ينبعث النور من بين اهدابهما مع لمعان لو أراد الرئيس الشيخ أن يعبر عنهما ما استطاع ذلك باوضح من قوله انهما

جذابتان لان من يراهما لا يستطيع غير الاستسلام لهما والرضوخ لسلطانهما . وقد زادهما تأثيراً على القلوب ما يتجلى فيهما من ملامح الصحة . ولم يكن في وجه الفتاة سمن كثير ولكن وجهها كان ناضراً وفيه رونق ينطق بما وراء ذلك من الصحة . وخصوصاً في تلك الساعة على اثر السفر الطويل وقد تورّدت وجنتاها حتى كاد الدم يقطر منهما . والتفت الرئيس الى بساطة ثوبها فخيل له انها من الفقراء . وقال في نفسه اذا كان ابوها فقيراً بالمال فانه غني بهذه الفتاة . ولكنها لو حسرت اكمامها وازاحت لثامها لعلم انها ليست من الفقر في شيء لما في اذنيها من اقراط اللؤلؤ وما في معصميها من الاساور والدمالج من الذهب والفضة والعاج ناهيك بما يراه حينئذ من جمال فمها وما فيه من المعاني السالبة للقلوب مما يقصر القلم ويكلّ اللسان عن وصفه . والجمال الذي يعبر عنه باللسان أو القلم ليس جمالاً وانما هو صورة يمثلها الكاتب والمتكلم بالفاظه . ولكن الجمال ما أعجزك وصفه وخانتك القريحة في التعبير عنه — ذلك هو جمال سلمى عروس روايتنا . وربما دلنا على بعضه بما يحدثه من التأثير في قلوب الناظرين . فقد كان في محياها شيء لا يعبر عنه الا بالسحر اذ لا يراها أحد الا وينعطف نحوها ولا يكلمها بشرٌ الا ويشعر بسلطة لها عليه فلا يقوى على جدالها . فضلاً عما فطرت عليه من الذكاء وحدة الذهن واصالة الرأي مع ما يتجلى في وجهها من عزة النفس والانفة وهما زينة العذراء وسياج عفافها

وكان الرئيس لما رأى أولئك الضيوف ظنهم لاول وهلة اباً وولديه ولكنه ما لبث أن تبين من تباين الملامح انه ليس أباهما وان تكن المشابهة قريبة بين الشاب والشابة

فافتتح الرئيس الحديث قائلاً « يظهر انكم قادمون من مكان بعيد ألعلكم من العراق »

فأجاب عامر لاول وهلة . « نعم يا سيدي اننا قادمون من الكوفة بأحمال التمر الى أسواق دمشق

ولم يكد عامر يتم كلامه حتى فقه له الرئيس وتذكر اسمه فابتدره قائلاً « ألست عامراً الكندي » فابتسم عامر وقال « اني هو يا سيدي وقد كتمت أمري لارى هل أنت ذاكر ضيفك القديم »

فتنهد الرئيس وقال « كيف لا أذكره وقد شاهدت من أيام ضيافته يوماً هائلاً . . اني لا أزال اذكر تلك الساعة الرهيبة تحت تلك الجوزة »

فاشار عامر بملامح وجهه انه لايحب تلك الذكرى المؤلمة. وأراد استئناف الحديث فسبقه الرئيس الى السؤال قائلا « أ امل هذا الشاب ابنك وهذه الفتاة ابنتك وما اسماهما »

فتوقف عامر لحظة وهو يحك طرف ذقنه بسبابته ثم قال « نعم انهما ولداي واسماهما عبد الرحمن وسلمى »

فاكتفى الرئيس بذلك السؤال وقد لحظ في نفس عامر تبئاً يريد كتمانه وتشاغل بحصى كانت في جيبه جعل يعدها بين أصابعه في داخل الجيب . وكانت هذه الحصى تقوم مقام السبحة عند الرهبان في تلك الايام . لانهم كانوا يفرضون على انفسهم صلوات معدودة يصلونها في اليوم فيضعون في جيوبهم من الحصى بقدر ذلك العدد وكلما فرغوا من صلاة رموا حصاة حتى تفرغ الجيب فيستدلون على اتمام ذلك الفرض . ولم تتخذ السبحات في النصرانية الا في القرن الثالث عشر للميلاد [1] — فتشاغل الرئيس بتلك الحصى وحول الحديث الى موضوع آخر فقال له « بكم يوم قطعتم الطريق من الكوفة الى هنا ؟ »

قال « قطعناها بعشرين يوماً مع القافلة »

---

(١) قاموس الاسلام

فقال الرئيس « تكبدتم هذا السفر الطويل لمجرد الاتجار بهذه الأثمار .
فانها لا تباع بما يساوي تعبكم في حملها »

فاشتم عامر من سؤال الرئيس رائحة الارتياب ولم يرَ بداً من ازالة كل
شك فقال « صدقت يا مولاي . ولو كان متكانا على بيع هذه الاحمال
ما تكبدنا المشقة من أجلها ولكننا نبيعها ونبيع الجمال أيضاً . وهي تباع بثمن
غال وارباحها اضعاف أرباح التمر وفي عودتنا نتجر بتجارة أخرى نحملها من
دمشق الى العراق » . ثم تذكر ان مجيء سلمى معه لا يعقل فالتمس لذلك عذراً
بقوله « أما سلمى فانها أحبت مرافقتنا لنرى دمشق ومناظرها فرأينا ذلك
أولى لها من البقاء في الكوفة وحدها في اثناء غيابنا »

الفصل السادس

الشيخ الناسك

وكان عامر والرئيس يتكلمان وسلمى تنظر الى شيخ متكىء في زاوية
الباحة وبجانبه كلب كبير الهامة اسود اللون قوي البنية . وكان الكلب قاعداً
على مؤخره وقد نصب يديه واعتمد عليهما كانه أسد رابض . وكان بصره
متجهاً الى سلمى كانه يتأمل وجهها وعيناه تتلألآن كالمصابيح

وأما الشيخ المتكىء فانه استلفت انتباه سلمى بنوع خاص لغرابة هيأته
وخشونة لباسه . ولم تكن رأت مثل ذلك الرجل قط ولا سمعت بمثله . وقد
كان من الشيخوخة بحيث لم يبق في شعره شعرة سوداء ويخيل لك اذا نظرت
الى رأسه عن بعد انه عمامة بيضاء قد برز منها أنف وعينان سوداوان غائرتان
أحدق بحدقتيها قوس الاشياخ يعلوهما جبين متجعد . ومما يزيد منظر ذلك
الشيخ رهبة انه لم يمشط شعره ولا غسل وجهه منذ أعوام فأصبح الشع.

معر بساً لا يسلك فيه مشط . ورأته سلمى يحك لحيته ورأسه ويحاول مشطهما بأظافر مستطيلة كالمناجل . وأغرب من كل ذلك انها لم ترَ عليه من اللباس الا ثوباً من نسيج الشعر كالمسوح التي يلبسها النساك أو هي عباءة أصبحت لقدم عهدها لا يعرف لها لون . فتمثلت لسلمى الشيخوخة تمثلاً واضحاً ووقعت من نفسها موقع الاعتبار

وكان الشيخ متكئاً بجانب الكلب وقد غلب عليه النعاس فكان يغمض جفنيه فينام وهو لا يريد أن ينام وكلبه بالقرب منه وكلاهما مستأنس برفيقه . وكان عبد الرحمن ايضاً مشتغل الخاطر بذلك الشيخ الهرم وكلبه ينظر اليهما ويفكر في حالهما . فلما ذكر عامر اسم سلمى انتبهت والتفتت اليه والدهشة ظاهرة على وجهها وأشارت الى ذلك الشيخ وهي تقول « ان هذا الشيخ ادهشني أمره وأرى عبد الرحمن دهشاً به مثلي

فسمع عبد الرحمن اسمه فالتفت وفي لفتته ما يدل على تعجبه مثلها . فأشار الرئيس اليهم بأصبعه وعض على شفته ودنا منهم فتطاولوا اليه باعناقهم فقال لهم همساً « ان هذا الشيخ أشبه شيء بالنساك والمتعبدين . ولكنه يخالفهم في أمور كثيرة وكأن فيه خبلاً . جاءنا منذ أعوام فأقام عندنا وهذا الكلب الاسود قلما يفارقه ليلاً ولا نهاراً ولم نره مرة غسل وجهه أو قلم أظافره أو غير ثوبه . ومن غريب أمره انه لا يأوي الى غرفة ينام فيها فيتوسد يوماً هذه الزاوية ويوماً تلك وآونة يبيت في الزريبة وبعض الليالي يبيت في الغوطة على بعض الاشجار أو تحت بعضها . ومن أغرب ما فيه انه لا يذوق اللحم ولا الخبز ولا يأكل شيئاً غير الفاكهة . فيطوف البساتين يقطف الثمر بيده ويتسلق الاشجار لهذه الغاية لا يعترضه معترض منا رحمة به وشفقة على حاله والفاكهة هنا كثيرة »

فقال عامر « لا بد اذاً من ان يكون ذا كرامة لان امثال هذا الرجل

يعدون عندنا من أصحاب الكرامات »

وهم يتهامسون سمعوا قرع الناقوس فخف أحد الرهبان ليستقبل القادم فطال وقوفه خارجاً ولم يعد فنهض الرئيس في أثره

الفصل السابع

طارق آخر

وكانت سلمى قد مدت يدها نحو الكلب وأشارت اليه بالقدوم اليها . فهرول مسرعاً فناولته ثمرة كانت في جيبها فتناولها من يدها واستأنس بالفتاة فجعل يحك رأسه بثوبها وهي تمس جبينه بأناملها فيبالغ في الدنو منها وهو يحرك ذنبه . فلما سمع قرع الناقوس انتصب بغتة ورفع ذنبه ووجه التفاته الى باب الدير وحدق بعينيه ونشر أذنيه كأنه يتوقع ان يرى أحداً وقد تأهب للوثوب عليه

فلما طال وقوف الرئيس خارجاً نبح الكلب نبحة قوية ذعر لها الجلوس هناك وخصوصاً الشيخ الناسك وكان نائماً فأفاق بغتة والتفت الى ما حوله فرأى كلبه بعيداً عنه فناداه « شيبوب » فدنا الكلب منه وجعل يلحس اناماه وذراعه والشيخ يقول « اهلاً بك يا رفيقي وصديقي » ثم قال له « ما ظنك بهذا القادم يظهر لي من عوائدك انك اسأت به الظن »

فلما سمع عامر صوت الشيخ ورآه يتكلم العربية الفصحى وقد سمى كلبه باسم عربي جاهلي قال في نفسه « يظهر ان الرجل عربي أيضاً فمن هو يا ترى وما سبب حاله ؟ »

أما الرئيس فكان قد استبطأ راهبه واسرع اليه فرأى بالباب رجلاً في لباس يشبه لباس عامر ورفيقه . ولكنه أجفل لما رآه في وجهه من البرص

الشديد الى درجة البياض الناصع . على انه حسبه لاول وهلة رفيقاً لعامر وقد تخلف في الطريق فرحب به وقال له « تفضل ان رفاقك جلوس هنا منذ ساعتين »

فأومأ اليه الرجل أن يسكت واجتذبه بيده الى منعطف وراء الباب حيث لا يراهما أحد وقال له « احترس أن تذكر مجيئي لاحد وخصوصاً لهؤلاء الثلاثة الذين ظننتهم رفاقي . فان في الامر سراً عظيماً سأبديه لك في ما بعد . واما الآن فاطلب اليك أن تدخلني غرفة لا يراني فيها أحد ولا يعلم احد بوجودي هنا . وقد قلت لك احترس لنفسك . والامر يتعلق بمولانا أمير المؤمنين »

فخاف الرئيس وأجاب على الفور « اني فاعل ما تريد واذا شئت ان اخرج هؤلاء الاضياف من الدير في هذه الساعة فعلت »

قال « لا تخرجهم بل استبقهم كما يشاؤون ولكنني أوصيك أن لاتذكر خبر مجيئي أبداً »

قال « سمعاً وطاعة » وادخله في باب من تلك الطرقة يودي الى دهليز يستطرق الى حجر يقيم فيها الرهبان الذين يشتغلون في الصناعة وفيهم الحائك والخياط والنجار وصانع النعال والسلال وغير ذلك . والضيف الابرص يعجب لما يراه حتى ظن نفسه في بعض اسواق الكوفة . فاستغرب ذلك منه اكثر من استغرابه ملابسهم لانه كان قد رأى رهبان العراق في مثل هذه الملابس وهي المسوح من نسيج الشعر أو القطن فوقه جلد أبيض من جلود الماعز لا يفارق أجساد الرهبان ليلا ولا نهاراً الا وقت تناول الاسرار المقدسة [1]

ومشى الرئيس حتى انتهى الى غرفة خصوصية بجانب الكنيسة .

---

(١) الانسكلوبيديا البريطانية

فادخله اليها وهو يردد في ذهنه ما سمعه منه . ثم عاد الى ضيوفه في باحة الدير وقد أحب الاختصار في مجالستهم ومحادثتهم . فأمر بعض الرهبان ان يعدّ لهم حجرة يقيمون فيها فأدخلهم غرفة ليس فيها الا حصير وعاد . فأغلقوا الباب وجلسوا

الفصل الثامن

جدال

وكان أول من تكلم منهم عبدالرحمن فخاطب عامر قائلا « ألم أقل لك انك اخطأت بمجيئك في أثري الى هذه الديار ولو أتيت وحدك لكان خيراً ولكنك اصطحبت سلمى فأوجبت اساءة الظن حتى سمعت من رئيس هذا الدير ما سمعته من التلميح والتعريض »

فقال عامر « قلت لك يا ولدي انني انما جئت مدفوعاً بما تعهدت به من أمر حراستك فانك بمنزلة ولدي وقد مات والدك واوصاني بكفالتك . ورأيتك اندفعت الى عمل خطير لم يقدم عليه احد قبلك . وأردت ان تأتيه منفرداً في بلاد غريبة فكيف لا أتبعك. وأما سلمى فانها أشد قلقاً مني عليك»

فقال « ألعلك تخطئني في عمل انتقم به لآل الرسول (صلعم) وانجي به المسلمين »

فقطعت سلمى عليه الكلام بصوت هادىء والرزانة بادية على وجهها وقالت « لا مشاحة ان الامر الذي جئت من أجله امر مقدس اذا انت لم تقدم عليه أقدمت انا واعلي أولى به منك . فان الرجل الذي تنوي قتله واراحة الناس منه قد أساء اليّ و بيني و بينه ثأر عظيم لان والده قتل والدي كما تعلم.. قتله شر قتلة ... قتله وأنا لم أره ولا عرفت له صورة . انه قتل حجراً الكندي سيد قومه ووجيههم . ولماذا قتله ؟ قتله لانه لم يطعه في لعن الامام علي ابن

عم الرسول (صلعم) — نعم أن يزيداً يستوجب القتل ان لم يكن انتقاماً للامام علي فانتقاماً لحجر بن عدي . وان لم يكن لهذا ولا لذاك فانه يستوجب القتل انقاذاً للعباد من سلطان شغل عن مصالح الخلافة بالمنادمة على الشراب وتربية الكلاب والقرود والفهود [١] ومجالسة النساء والصيد والقنص [٢] والشعر وضرب الطنابير فاهيك بتهاونه في أمور الدين [٣] . . . . فالاقدام على قتله فضيلة . ولكنه عمل خطير محفوف بالمخاطر . . انى لك ان توفق الى ذلك وانت فرد ويزيد خليفة يحيط به الاعوان والانصار في الليل والنهار؟.. اني اخاف عليك ما بلغني مما أصاب ابن ملجم اللعين الذي تجرأ على قتل الامام علي في وسط المسجد ولم ينج من القتل فهل تعرض نفسك لمثل ذلك الخطر ؟ »

وكان عبد الرحمن جالساً وسلمى تتكلم فلما بلغت الى هذا القول وقف وجعل يخطر في الغرفة ذهاباً واياباً وقد ظهر الاهتمام في وجهه . فلما فرغت من كلامها التفت اليها وقال « تأملي يا سلمى بما تقولين وتفهمي كلامك . . فاذا كنت وأنت فتاة تعترفين أن قتل هـذا الرجل فضيلة وانه ان لم أقدم عليـه انا أقدمت انك فكيف لا أقدم انا وكيف لا أفعل ذلك ولو كلفني حياتي . . »

فقطعت كلامه قائلة « لا تقل حياتي حماك الله من كل شر . هذا هو الامر الذي حركني الى اللحاق بك مع عمي هذا . خرجت من الكوفة وانت عازم على قتل يزيد في دمشق الشام . ومن هو يزيد ؟ أليس هو خليفة المسلمين الآن وفي يده الحل والعقد وحوله الجند والاعوان — فخفنا أن تقع بين يديه

---

(١) المسعودي ج٢ وابن الاثير ج ٣ (٢) الفخري (٣) الدميري

أو يصيبك شر ونحن بعيدان فكيف تكون حالنا . فلحقنا بك لنكون بقربك لعلنا نساعدك في الرأي .. واما يزيد فانا لا أرى راحة الا بقتله وقد كنا نتوقع التخلص من ارتكاب هذه الجريمة لو انصف والده وترك الخلافة بعده شورى للمسلمين . وهو لو فعل ذلك ما تولاها الا حبيبنا وسيد شباب المسلمين الامام الحسين لانه احق الناس بها . ولكن معاوية ابى الا ان يوصي بها لابنه هذا بالرغم عن كل مسلم .. فكيف تتخلى عنه

« وزد على ذلك أن معاوية قتل أبي حجراً شر قتلة . فاذا كنت انت ناقماً لقتل حجر لانه عمك فانه والدي وسبب وجودي وقد قتل ولم أره . ثم افكم لم تنبئوني بمصيره الا من عهد قريب . فقد ربيت في البادية صغيرة لا أعرف غير اللعب والمزاح وانا أحسب والدي حياً في الكوفة والناس اذا ذكروه اطنبوا بمروءته وشهامته . وكنت أتوقع اذا شببت ان اقدم اليه فأراه وافاخر به قومي . فما عتم أن قيل لي انه مقتول » قالت ذلك وغصت بريقها وتوقفت عن الكلام هنيهة ثم قالت لعامر «وانت يا عماه لم تخبرني حتى الآن بتفصيل ذلك القتل فلا تنس وعدك بان تقص عليّ تفصيل الخبر على قبره فقد ذكرت انه مدفون بهذا الجوار فهل أنت عارف مدفنه ؟ »

فتنهد عامر وقال « نعم يا سيدتي اني أعرف مدفنه وأظن رئيس هذا الدير يعرفه أيضاً . ألم تسمعي تلميحه الى ذلك العمل الفظيع الآن »

قالت « سمعت ذلك ولكنه لم يسرني اذ صممنا أن يبقى أمرنا مكتوماً عن كل انسان لنرى ما ينتهي اليه حالنا »

وكان عبد الرحمن لا يزال يخطر في الغرفة وقد حل عقاله وأرخى الكوفية على اكتافه ولكنه كان يردد بصره الى سلمى وهي تتكلم وهو يعجب بحميتها . فلما قالت ذلك أجابها « اعلمي يا سلمى يابنت عمي وخطيبتي ويا أملي ويا منتهى أربي ... اعلمي رعاك الله اني لا يهنأ لي عيش حتى انتقم لوالدك

المدفون في هذا المرج مرج عذراء واذا انا وفقت الى ذلك حق لي أن اكون لك وتكوني لي كما أوصى والدونا وقد كانوا أحيـاء فاذا لم اوفق الى ذلك فلا أسف على حياتي »

فصاحت فيه وقد كاد الحياء يغلب عليها وهي تحاذر أن ترفع صوتها خوف الرقباء وقالت « حياتك أعز حياة عندي وما الفائدة من بقائي اذا انت أصبت بسوء لا سمح الله فكيف تلومني بعد ذلك اذا لحقت بك . واما عمنا عامر فانه بالحقيقة بمنزلة الوالد لنا وقد انقطع عن العالم من أجلنا وهو رفيقنا في السراء والضراء »

وكان عامر مع شدة اعظامه الامر لا يغفل عن مراعاة سلمى في حركاتها وسكناتها وهي تتكلم تارة ينظر اليها وطوراً الى عبد الرحمن ويعجب بمـا اودعه الخالق فيهما من الخلال النادرة المثال

الفصل التاسع

حقيقة الحال

وقد فهم القارىء من خلال الحديث ان سلمى هي ابنة حجر بن عدي قتيل مرج عذراء وان عبد الرحمن ابن عمها وانهما مخطوبان وعامر كفيلهما وتفصيل ذلك ان سلمى وُلدت في الـكوفة قبل مقتل والدها بثماني سنوات فعهد بهـا الى امرأة عامر ترضعها وهي عند زوجها في البادية . وكانت تلك عادة المتحضرين من العرب اذا ولد لهم مولود عهدوا برضاعته الى بعض نساء البادية فيربو في الخلاء حيث الهواء نشيط والعيش رغيد فيشب أولادهم صحيحي البنية شديدي الساعد . فربيت سلمى في حجر عامر ثماني سنين وهي لم تر والدها . فلما سيق والدها الى مرج عذراء سنة ٥١ للهجرة في جملة من سيق للقتل ثم قتل هناك

كما سيجيء وكانت والدتها قد ماتت كان آخر ما تكلمه حجر انه أوصى عامراً بالعناية بها وان يتخذها ولداً له وان يزوجها بعبد الرحمن ولكن بعد موت معاوية بن ابي سفيان . فظلت في حجره حتى شبت . وكان عامر كثير التردد على الشام للتجارة ونحوها وخصوصاً في صباه و بنو كندة لا يزالون على النصرانية فكان اذا جاء دمشق اقام فيها مدة يتردد على الديور والكنائس يجالس أهل المعرفة فيقصون عليه شذرات من تاريخ اليونان وما يتعلق به من تواريخ الشام وغيرها . وكان لنباهته يحفظ كل ذلك ويتفهمه حتى كان معدوداً بين رهطه من احسنهم معرفة وأوسعهم اطلاعاً في التاريخ وآنس عامر في سلمى نباهة وذكاء ورغبة في استطلاع اقاصيص الاولين فكان يقص عليها كل ما اتصل به من أخبار الفرس والروم وما بينهما

وكانت كثيراً ما تسأله عن والدها وهو يكتم خبر مقتله حتى اتفق منذ عامين ان الناس ذكروا خبره وهي تسمع فاستطلعته ذلك فباح لها عامر بحقيقة الامر فثارت حميتها وهاجت عواطفها وعزمت على الانتقام في باطن سرها

واما عبد الرحمن فهو ابن عمها وربي معها في تلك البادية وقد قطعت سرها على أن تكون زوجة له . فربيا معاً منذ كانا طفلين يكيلان الرمل ويسابقان الماعز والغزلان على التلال والهضاب . وقد مات والده وهو طفل وعامر كفيله فلما أدرك وسمع بمقتل عمه حجر وما أعظمه الناس من أمره عول على أن يثأر له . وكان كسائر بني كندة وغيرهم من دعاة أهل البيت لا يرون لمعاوية حقاً في الخلافة . فشب هو وابنة عمه على كره الامويين والنصرة لآل البيت وكان معاوية لا يزال حياً والناس يتوقعون موته ليبايعوا الامام الحسين . وصبر على ما في نفسه وقد نزل هو وعامر الحجاز ومعهما سلمى وأقاموا في المدينة في جوار الامام الحسين زمناً ينتظرون ما يأتي به القدر

وقضت عليهم الاحوال قبيل وفاة معاوية أن يعودوا الى الكوفة فوصلوها وقد مات معاوية وجاء الخبر بمبايعة يزيد فعظم ذلك على عبد الرحمن فاقسم انه لا يفرح قبل أن يقتل يزيد ووافقته سلمى على ذلك وعامر لا يبدي اعتراضاً ولكنه لم يكن يحسب عبد الرحمن يقدم على ذلك العمل سريعاً .

فاصبح عبد الرحمن ذات يوم فودع سلمى وعامراً واخبرهما انه عازم على دمشق ليبرّ بقسمه فاستمهلاه وهو لا يصغي وأخيراً ودعهما وخرج يريد دمشق وفي مساء يوم سفره تعاظم بلبال سلمى فلم يهدأ لها بال حتى لحقت به هي وعامر وقد احتالا بتجارة التمر . فالتقيا به في القافلة قبل الغوطة بقليل فساءه ذلك ولامها على مجيئها ولكنه لم يرَ حيلة في ارجاعها فجاءوا معاً الى الدير كما قد رأيت

فبعد ما دار بينهما من الحديث قالت سلمى « لا بد لنا من تدبر الامر بالحكمة . اما قتلك يزيد بين رجاله وجنده فتهورٌ لا نرضاه لك ولا هو مستطاع . فهل من رأي صائب رأيته فى الوصول الى هذه الغاية ؟ »

فلما قالت ذلك رجع عبد الرحمن الى صوابه وجلس وهو يصلح كوفيته على رأسه وقال « انك تنطقين بالحكمة . ولا تظني في الجهل الى هذا الحد فما انا متهجم على هذا الامر بجهالة ولكنني رأيت رأياً سأعرضه عليكما واظنكما توافقاني عليه »

قال عامر « وما هو »

قال « ان يزيد لا يمضي اسبوع لا يخرج فيه للصيد لان له فيه ولعاً شديداً فيخرج بحاشية كبيرة ومعه الفرسان والرجالة ولا أظنه يصطاد الا في هذه الغوطة لكثرة ما فيها من الطير والغزال . واعرف قرية على مقربة من هنا يقال لها (جرود) [1] يكثر فيها حمار الوحش ويزيد مولع بصيد هذا

---

(١) حياة الحيوان ج ١

الحيوان ايضاً . فاذا اوغل في الصيد خرجت انا متنكراً اراقب انفراده في اثر طريدة فارمية بنبل أو اطعنه بخنجر . ولا يهمني بعد ذلك اذا بارزني فاني لا أخافه . فاذا لم أتمكن من استفراده في المرة الاولى حاولت ذلك في الثانية أو الثالثة حتى اظفر به واخلص الناس من شره والسلام »

فلما سمعت سلمى قوله ابتسمت وابرقت عيناها سروراً باصابة رأيه وقالت « انه رأي حسن ولكن علينا أن نراقب خروجه للصيد »

قال عامر « ذلك عليّ فاني اذا اصبحنا غداً دخلت دمشق باحمالي وبجارتي واستطلعت خبر الصيد »

فقالت سلمى « وعلى الله التدبير ولكنني اتقدم اليك يا عماه ان تدلنا على قبر ولدي فنزوره واكحل عيني بترابه واسمع خبر مقتله بالتفصيل »

فقال « ان القبر يا ابنتي على ربع ساعة من هذا الدير تحت شجرة من الجوز كبيرة تظهر للرائي عن بعد ولكننا لا نستطيع الذهاب اليها الا ليلاً لئلا يرانا الرئيس أو غيره ممن يعرفون المكان فيشتبه بنا »

وقضوا بقية ذلك اليوم بالاستراحة من وعثاء السفر وهم يتأهبون للخروج في الليل الى قبر حجر

الفصل العاشر

الاحتيال في الخروج

ولما غربت الشمس صعدوا الى سطح الدير وهم يتظاهرون برغبتهم في التفرج بمنظر الغوطة ليلاً . فلقيهم رئيس الدير وكان جالساً في بعض جوانب السطح يصلي على انفراد . فتغافلوا عنه وجعلوا يتحادثون حتى اذا فرغ الرئيس من صلاته نهض واقترب منهم وكان القمر في تلك الليلة بدراً كاملاً فما

ازف الغروب حتى أطل من وراء الافق كأنه يتطلع الى الشمس يلتمس وداعها وهي تتجاهل غرضه وقد ظلت سائرة لا تلتفت اليه ولسان حالها يقول اذا كنت تبغي اقائي فاتبعني . وكأنه علم بحاجته الى نورها فجرى في اثرها يتبع خطاها و يسترق من أشعتها حبالاً يرسلها على تلك الغوطة الواسعة الأطراف وفيها من الفاكهة ازواج ومن المياه أقنية و بحيرات ينعكس النور عن أسطحتها متلالئاً كالمصابيح . ولم تمض ساعة حتى علا البدر فأنار تلك الحدائق الغناء فاصبحت بحراً كثير الالوان ينوب فيه عن هدير الامواج وحفيفُ الورق وخرير المياه مع زقزقة الطيور وهي عائدة الى اوكارها أسراباً متكاثفة تسبح الخلاق العظيم

واشتغل عامر بالحديث مع الرئيس . أما سلمى وعبد الرحمن فانهما لبثا واقفين يتأملان في ذلك المنظر البديع وسلمى لا تزال مشتغلة الخاطر بما يهدد حبيبها عبد الرحمن من الخطر المقبل وهي مع ذلك تشاغل نفسها بالنظر الى ما بين يديها من الاشجار الباسقة والينابيع الجارية والاشعة المتلألئة مع ما يتخلل ذلك من تغريد العصافير وأصوات الماشية في الزريبة وفيها معاء الماعز وخوار الثيران وجعجعة الجمال . على أن هذا كله لم يلهها عن مقتل والدها وما تتوقعه من سماع حديث عامر تلك الليلة

واما عبد الرحمن فقد كان همه تدبير الحيلة لبلوغ أمنيته بمقتل يريد لا يلتفت الى الغوطة ولا مناظرها . ثم حانت منه لفتة الى سلمى وهي تنظر الى الغوطة وقد قابلها البدر ووقع ضوءه على وجهها كأنهما قمران تلاقيا على موعد . فثار فيه ثائر الحب واعجب بما في ابنه عمه من المعاني البديعة . وتذكر اعجاب الشعراء في جمال البدر فقال في نفسه « اين تلك الصفيحة المستديرة الصماء من هذا الملاك الناطق الذي ينبعث نور الحياة من محياه » وكان لسان حاله يقول

بدري ارق محاسناً * والفرق مثل الصبح ظاهر

وكان عامر يخاطب الرئيس بشؤون مختلفة لا علاقة لها بما في نفسه من أمر حجر وعزمه على زيارة قبره في تلك الليلة . وكان نظره شائماً الى الجوزة التي يعهدها تظلل ذلك القبر . يفعل ذلك و يغافل الرئيس لئلا يلحظ تطلعه حتى اذا وقع نظره على تلك الجوزة عرفها عن بعد من كبرها وانبساط اغصانها فتنهد تنهداً عميقاً وجعل يتفرس في الطريق الذي يؤديه اليها . ثم التفت الى الرئيس فقال له « سبحان الخالق العظيم ما اجمل هذه الليلة المقمرة وما ألطف هذه المناظر البديعة »

فقال الرئيس « ان ذلك يدلنا يا ولدي على قدرة الباري سبحانه وتعالى. اني لا أقف هذا الموقف الا سبحت العناية العظمى التي أعدت للانسان كل مايحتاج اليه من دواعي سروره وانبساطه في هذه الحياة الدنيا »

فقال عامر « سبحانه جل سلطانه ما أجمل صنعه وما أبدع مخلوقاته . ان في العراق كثيراً من البساتين الغضة ولكن اكثر أشجارها من النخيل.واما أصناف الفاكهة التي اراها في هذه الغوطة فانها خاصة ببلاد الشام . وتحدثني نفسي أن اخرج في هذا الليل امتع بشذا الرياحين واجول بين الاشجار — فهل ترون مانعاً من ذلك »

قال « لا أرى مانعاً يمنعكم غير أني افضل النظر اليها من فوق هذا السطح فانه أوسع للنظر وخصوصاً في ضوء القمر »

قال « صدقتم ولكنني سمعت ابنتي هذه تتشوق الى الخروج فوعدتها أن ارافقها فنمشي هنيهة ثم نعود » . قال « لا مانع من خروجكم واذا شئتم أرسلت معكم بعض الرهبان يرشدكم و يسير في خدمتكم » قال « اني أعرف الطريق جيداً فلا حاجة لنا بالرفاق » قال « افعلوا ما بدا لكم »

الفصل الحادي عشر

الخروج الى الجوزة

فتحول عامر الى عبد الرحمن وسلمى وقال لهما «هلم بنا ننزل الى الغوطة نتمشى بين اشجارها فقد اذن لنا حضرة الرئيس بذلك »

فنهضا وتحولوا جميعاً فنزلوا الى باحة الدير واطلوا منها الى الحجرة التي كانوا مقيمين فيها بأثناء النهار فرأوا بابها مفتوحاً فاسرع عامر الى اغلاقه . وبينما هو عائد رأى كلب الناسك نائماً بالقرب من الباب ولم ير شيخه معه فعجب لانفراده هناك وقد سمع ان ذلك الشيخ الهرم قلما يفارق كلبه ليلاً ولا نهاراً »

وكان عبد الرحمن وسلمى قد سبقاه الى باب الدير فخرج في أثرهما وهو يقول « لقد رأيت شيبوبا نائماً وحده بقرب حجرتنا فأذكرني ذلك الشيخ الجليل . ومما أدهشني من أمره انه يتكلم العربية الفصحى وفي لهجته ما يقارب لغة العراق . ووالله وددت لو خلوت به لاسأله عن اصله »

فقالت سلمى « اين هو من العراق وما الذي يأتي به الى هذه الديار اني لا احسبه الا رجلا ابله ولكنني استأنست بكلبه شيبوب ويا ليتنا نصطحب هذا الكلب فانه قد يدفع عنا اذى الدبابات أو ينبهنا الى لص أو نحوه »

فقال عبد الرحمن « دعونا من هذا الرفيق اننا في حاجة الى التستر اكثر منا الى رفقة الكلاب »

وكانوا قد وصلوا الى باب البستان ففتحوه وخرجوا الى الغوطة وهم يتظاهرون في بادىء الرأي انهم يريدون التمشي حتى اذا تواروا عن الدير اوغلوا بين الاشجار المتكاثفة وعامر يسير الى الامام وسلمى وعبد الرحمن

يتبعانه . تارة يطلعون وطوراً ينزلون وهم يتجسسون الطرق بضوء القمر المنبعث من خلال الاغصان وقد رسمت اطلاله على الارض صوراً تشبه اشباح الآدميين متوسدة لا حراك بها أو كأنها ارواح علوية خافتْ أن راها البدر فتفيأت جذوع الاشجار

وما زالوا يقطعون قناة أو يعبرون جسراً وهم سكوت وقلب سلمى يخفق تطلعاً الى قبر والدها وعبد الرحمن يفكر في ما قد نُوى عليه من قتل يزيد

حتى اشرفوا على مرتفع خفيف تعلوه شجرة من الجوز منبسطة الاغصان تظال بقعة خالية من النبات وفيها مرتفعات من الاربة على غير نظام . فلما اطلوا على الجوزة وقف عامر فوقفا في اثره وهما يتوقعان ان يسمعا منه قولاً يدل على القبر فاذا به قد التفت الى سلمى وأشار بيده الى اكمة صغيرة بجانب ساق الجوزة وقال « هذا هو يا سلمى قبر والدك »

وما اتم كلامه حتى ترامت بكليتها على ذلك التراب وجعلت تقبله وتبكي وتصيح « ووالداه .... هذا هو ترابك فأين انت .... اين انت يا حجر بن عدي سيد كندة وأوغلت في البكاء

أما عبد الرحمن فتقدم حتى وقف بجانب سلمى وقد اكبر البكاء لانه انما جاء لينتقم لا ليبكي فوقف الى ساق الجوزة وقال لسلمى « لا تبكي يا سلمى ان البكاء لا يجوز على ميت سننتقم له في الغد » والتفت الى عامر وهو يقول « اقصص علينا يا عماه تفصيل مقتل صاحب هذا القبر »

فقال عامر « اجلسا يا ولديَّ لاقصص عليكما الخبر كما عاينته » ثم قال بصوت ضعيف « واعلما اننا في ارض العدو فينبغي ان نتستر ما استطعنا »

وسكتوا برهة وهم ينظرون الى ما حولهم فاذا بالمكان خال من انفاس الناس لا يسمع فيه غير خرير السواقي عن بعد ونقيق الضفادع وقد وقعت اظلال تلك الجوزة على ما حولهم فآووا الى الظل بجانب القبر وجلسوا على

التراب وسلمى جاثية وعيناها تدمعان وهي صامتة تتطاول بعنقها وتنتظر ما سيقوله عامر من حديث والدها

الفصل الثاني عشر

حجر بن عدي

اما عامر فجلس جثواً و بدأ الفاتحة فتلاها واستغفر الله ثم افتتح الحديث قائلاً « اعلمي يا سلمى ان والدك صاحب هـذا القبر كان من اقوى انصار الامام علي وقد حارب معـه حروباً كثيرة وجاهد عنه بسيفه ولسانه جهاداً حسناً الى آخر نسمة من حياته . فلما قتل الامام علي وصار امر الخلافة الى معاوية بن ابي سفيان في دمشق ظل والدك وغيره من انصار علي على دعوته بين مجاهر ومستتر • ولـكن السلطان اصبح لمعـاوية واستفحل امر بني امية • وكان والدك يقيم في الـكوفة مع قومه ينادي بحبـه علناً على رؤوس الاشهاد

« وكان معاوية كما تعلمين قد جعل ديدنه الحط من كرامة علي وسائر أهل البيت فكان يأمر الناس ان يلعنوه . فمنهم من يطيع خائفاً ومنهم من لم يكن يفعل وفي مقدمة هؤلاء والدك حجر و بعض رفاقه

« و بعث معاوية في سنة ٥١ للهجرة عاملاً الى الـكوفة اسمه المغيرة ابن شعبة وأوصاه حين بعثه قائلاً : أما بعد فان لذي الحلم قبل اليوم تقرع العصا وقد يجزى عنك الحـكيم بغير التعليم وقد اردت ايصاءك بأشياء كثيرة انا تاركها اعتماداً على بصرك ولست تاركاً ايصاءك بخصلة — لا تترك شتم علي وذمه و الترحم على عثمان والاستغفار له والعيب لاصحاب علي والاقصاء لهم . فقال له المغيرة قد خرجت وجربت وعملت قبلك لغيرك فلم يذممني

وستبلو فتحمد او تذم . فقال معاوية بل نحمد ان شاء الله

« فأقام المغيرة عاملاً على الكوفة وهو لا يدفع شتم علي والوقوع فيه والدعاء لعثمان والاستغفار له . فكان والدك اذا سمع ذلك قال — بل اياكم من ذم علي ولعنه . ثم يقول انا اشهد ان من تذمون احق بالفضل ومن تزكون أولى بالذم . فيقول له المغيرة يا حجر اتق هذا السلطان وغضبه وسطوته فان غضب السلطان يهلك امثالك . ثم يكف عنه ويصفح . فلما كان آخر امارة المغيرة قال في علي وعثمان ما كان يقوله فقام والدك وصاح فيه صيحة سمعها كل من في المسجد وقال له : مر لنا ايها الانسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا وليس ذلك لك وقد اصبحت مولعاً بذم امير المومنين . فقام اكثر من ثلثي الناس يقولون صدق حجر وبر مر لنا بارزاقنا فان ما انت عليه لا يجدي علينا نفعاً . واكثروا من هذا القول وامثاله . فنزل المغيرة فدخل عليه قومه وقالوا علام تترك هذا الرجل يجترىء عليك في سلطانك ويقول لك هذه المقالة فيسخط عليك امير المؤمنين معاوية . فقال لهم المغيرة اني قد قتلته . سيأتي من بعدي امير يحسبه مثلي فيصنع به ما ترونه يصنع بي فيأخذه ويقتله . اني قد قرب اجلي ولا أحب ان اقتل خيار هذا المصر فيسعدون واشقى ويعز في الدنيا معاوية ويشقى في الآخرة المغيرة

« ثم توفي المغيرة وولي الكوفه زياد بن أبيه المشهور بدهائه ومكره . فقام في الناس فخطبهم عند قدومه ثم ترحم على عثمان واثنى على أصحابه ولعن قاتليه . فقام والدك ففعل كما كان يفعل بالمغيرة . فكظم زياد حتى اذا عزم على الفتك به دخل وصعد المنبر ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه ووالدك جالس ثم قال . أما بعد فان غب البغي والغي وخيم ان هؤلاء جمعوا فأشروا وامنوني فاجترأوا على الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر واجعله نكالاً لمن بعده — ويلمك يا حجر سقط العشاء بك

على مرحان . ثم أرسل الى والدك يدعوه وهو بالمسجد . فلما أتاه رسول زياد قال لاصحابه لا تاته ولا كرامة . فرجع الرسول فاخبر زياد فامر صاحب شرطته وهو شداد بن الهيثم الهلالي أن يبعث اليه جماعة ففعل فسبهم اصحاب والدك فرجعوا وأخبروا زياداً

« فلما رأى زياد امتناع والدك باهله واصحابه احتال حيلاً شتى حتى تمكن من القبض عليه بخديعة . وذلك ان بعض اصحاب والدك استأمنوا زياداً على أن يرسله الى معاوية في الشام فأمنه زياد وارسلوا الى والدك رحمه الله فحضر عند زياد فلما رآه قال مرحباً بك أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس . على أهلها تجني براقش . فقال والدك ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة واني على بيعتي . فأمر به الى السجن فلما تحول قال زياد والله لاحرصن على قطع خيط رقبته [1]

« ثم جد زياد في طلب اصحاب والدك فهربوا وأخذ من قدر عليه منهم وجاء بعض الوشاة الى زياد فقال له ان امرءا منا يقال له صيفي من رؤوس أصحاب حجر . فبعث زياد فأتى به فقال : يا عدو الله ما تقول في ابي تراب . قال ما أعرف ابا تراب . فقال ما اعرفك به — اتعرف علي بن ابي طالب . قال نعم . قال فذاك ابو تراب . قال كلا ذاك ابو الحسن والحسين . فقال له صاحب الشرطة يقول هو ابو تراب وتقول لا ؟ . فقال صيفي فان كذب الامير اكذب انا وأشهد على باطل كما شهد . فقال له زياد وهذا ايضاً ؟ عليّ بالعصا فجاؤوه بها . فقال ما تقول في علي . قال أحسن قول . قال اضربوه فضربوه حتى لصق بالارض . ثم قال اقلعوا عنه — ما قولك في علي . قال والله لو شرحتني بالمواسي ما قلت فيه الا ما سمعت مني . قال لتلعنه أو لاضربن

(١) ابن الاثير ج ٣

عنقك . قال لا أفعل . فأوثقوه حديداً وحبسوه . اني والله لم أرَ اشجع منه الا والدك رحمهما الله

« ثم جمع زياد اثني عشر رجلاً لتهمهم بالنصرة لعلي وأشهد شهوداً أن حجراً جمع اليه الجموع واظهر شتم الخليفة معاوية ودعا الى حربه . وانه قال ان هذا الامر لا يصلح الا في آل ابي طالب . وانه وثب بالمصر واخرج عامل أمير المؤمنين واظهر عذر ابي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وان هؤلاء الاثني عشر الذين معه هم اصحابه على رأيه ثم دفع زياد والدك واصحابه الى اثنين من خاصته وسلمها تلك الشهادات وأمرهما أن يسيرا بهم الى الشام

« فساقاهم من العراق حتى انتهيا بهم الى هذا المكان وهو مرج عذراء فوضعاهم هنا وسارا الى دمشق فدخلا على معاوية وعرضا عليه الكتب التي كانت معها . واتفق في مجلس معاوية اناس استوهبوا ستة من رفاق والدك فوهبهم اياهم و بعث اناساً الى هذا المرج فوصلوه في المساء نحو هذا الوقت

الفصل الثالث عشر

مقتل حجر

« وكنت قد صحبت الجماعة من الكوفة ومكثت عن بعد انتظر ما سيكون فلما رأيت القادمين من دمشق ومعهم الاسلحة والانطاع علمت أنهم قادمون ليقتلوه واصحابه . ولم اكن أعلم ان معاوية وهب ستة منهم . فدنوت عند ذلك من والدك فلما بصر بي دعاني اليه وقال لي قولا لا أنساه عمري وكأني به قد تحقق دنو الاجل فقال « اني أوصيك يا عمر بطفلتي سلمى... أحتفظ بها ما استطعت ولا تزوجها الا بابن عمها عبد الرحمن ولكن لا تفعل

ذلك الا بعد موت معاوية هذا . فاذا مات وعاد أمر الخلافه شورى المسلمين يولون الحسين لا محالة فاذا وليها هو ينتقم لنا ان شاء الله » ولم يكد والدك وا أسفي عليه يتم كلامه حتى وصل القادمون من عند معاوية فاستقدموا والدك وستة من رفاقه وقالوا لهم قبل القتل : انا قد أمرنا ان نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له فان فعلتم تركناكم وان ابيتم قتلناكم . فقالوا لسنا فاعلي ذلك . فأمر فحفرت القبور واحضرت الاكفان وقام والدك واصحابه يصلون عامة الليل . فلما كان الغد قدموهم ليقتلوهم فقال لهم والدك اتركوني اتوضأ وأصلي فاني ما توضأت الا صليت فتركوه فصلى ثم انصرف منها وقال والله ماصليت صلاة قط اخف منها ولولا ان تظنوا فيّ جزعاً من الموت لاستكثرت منها . ثم قال اللهم انا نستعديك على أمتنا فان أهل الكوفة شهدوا علينا وان أهل الشام يقتلوننا اما والله لان قتلتموني بها فاني لاول فارس من المسلمين هلك في واديها وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها . ثم مشى أحدهم اليه بالسيف فارتعد رحمه الله . فقالوا له زعمت انك لا تجزع من الموت فابرأ من صاحبك وندعك . فقال وما لي لا أجزع وأرى قبراً محفوراً وكفناً منشوراً وسيفاً مشهوراً واني والله ان جزعت من القتل لا أقول ما يسخط الرب . فقتلوه والهفي عليه وقتلوا ستة من رفاقه ثم صلوا عليهم ودفنوهم في هذا المكان[1] . وهذا هو قبر والدك رحمه الله . وخرجت انا الى الكوفة ثم قمت بكفالتك وربيتك أنت وعبدالرحمن كما تعلمين

---

(١) ابن الاثير ج ٣

الفصل الرابع عشر

الانتقام الانتقام

وكان عامر يتكلم وسلمى وعبد الرحمن شاخصان بابصارهما وقلباهما يكادان يشتعلان . فلما بلغ الى هذا الحد لم تمالك سلمى عن ان قالت « ويل لقساة القلوب قتلة الابرياء ألأنه لم يلعن الامام علياً قتلوه ؟ » ثم قالت « ان الله منتقم من القوم الظالمين »

فوقف عبد الرحمن واستل خنجراً أبرق فرنده في ضوء القمر وقال وهو ينظر الى القبر « اعلم ايها الراقد بلا حراك .. اعلم يا عماه يا حجر بن عدي.. اني لا اخاطب تراباً ولكنني اخاطب روحاً طاهرة لا اظنها تفارق هذا المكان . اعلم رحمك الله اني منتقم لك بحد هذا الخنجر قريباً ان شاء الله»

واستولى السكوت تحت تلك الشجرة هنيهة لم يكن يسمع فيها الا طنين البعوض وخرير الماء . وكان كل من هؤلاء الثلاثة يفكر في شيء ومرجع الافكار الى الانتقام . ثم هبت سلمى من مكانها بغتة وجثت على قبر والدها وتناولت حفنة من ترابه بيدها وقالت وهي تنظر الى السماء من خلال الاغصان « انت تعلم أيها القهار العظيم ان والدي هذا قد مات مظلوما وأنت وحدك نصير المظلومين ... انه قتل في سبيل نصرة بنت نبيك (صلعم) انه قتل في نصرة الامام علي وصي النبي وصهره وابن عمه .... »

ولم تتم سلمى كلامها حتى سمعوا صوتا عميقاً كانه خارج من اعماق القبر او كأن هاتفا من عالم الارواح يقول بصوت ضعيف وقع همسا في اذن كل منهم على حدة « وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم »

فلما سمعوا الصوت اقشعرت ابدانهم ورفعت شعور رؤوسهم ونولتهم

الدهشة وظلوا صامتين هنيهة وكل منهم يحسب نفسه تفرّد بسماع تلك الآية ويتلفت الى رفيقه والبغتـة ظاهرة على وجوههم . ففهموا حالا أنهم سمعوها جميعاً على السواء . وخيـل لهم أن روح حجر تنطق من عالم الغيب أو أن روحاً من الارواح العلوية تخاطبهم بما تنطوي عليه ارادة الخلاق العظيم . فتخشعوا واستولت عليهم الرهبة وكلهم ساكتون لا يبدون حراكاً وتصوروا المـكان مسكوناً بعد ان كانوا يحسبونه مهجوراً . وكانت سلمى لا تزال قابضة على التراب بيدها وعبد الرحمن واقف والخنجر مشرعٌ في يده

وبدأ عامر بالـكلام فاستعاذ بالله وقرأ الفاتحة . ولم يكد يتم تلاوتها حتى ابتدره عبـد الرحمن وهو يغمد خنجره وقال وصوته مختنق من عظم الدهشة « أرأيت يا عماه كيف ان الله معنا وصوت الهاتف شاهد . فهل بعد ذلك من شك في نجاح المهمة التي انتدبت نفسي لاجلها ... »

فسكتت سلمى وقد اقتنعت في باطن سرها ان عزم عبـد الرحمن الهام من الله ولـكنها نظراً لما تخافه من الخطر على حياته لم تحرضه على ذلك بل تركت الامر يجري مجراه الطبيعي

ووقف عامر وهو ينفض التراب الذي لصق بثيابه من جلوسه هنـاك ويقول : « سر يا بنيّ واتكل على الله وثق به وقد سمعت قوله تعـالى : « و بشر الذين ظلموا بعذاب أليم »

ونفضت سلمى يديها أيضاً وتحولوا جميعاً نحو الدير والقمر قد تكبـد السماء والسكوت ساعتئذ ارهب مما عهدوه وهم قادمون لشدة ما أثر في نفوسهم من حديث عامر وكلام الهاتف . وأصبحوا اذا وقعت أقدامهم على العشب أو التراب في اثناء مشيهم سمعوا لوقعها دوياً واذا دبت دابة أو نقنقت ضفدع وقع ذلك في آذانهم وقعاً شديداً . فمشوا معظم الطريق وكأن على رؤوسهم

الطير وعامر يفكر في باب الدير ومن يفتحه لهم بعد مضي نصف الليـل .
وخاف ان يوجب غيابهم شبهة فغير الطريق التي جاءوا منها

الفصل الخامس عشر

الناسك

فأطلوا على الدير من جانبه الغربي فرأوه هادئاً وأهله نيام فخافوا أن لا يجدوا من يفتح لهم الباب . لـكنهم تحولوا يلتمسون مدخل البستان

حتى اذا أشرفوا عليـه شاهدوا شبحاً قادماً نحوه من الجانب الآخر . فظنوه لاول وهلة ضيفاً طارقاً وعجبوا لقدومه في أواسط الليـل . وفيما هم يتفرسون فيه قالت سلمى « هذا هو الشيخ الناسك بعينه . ألا ترون الجلد على ظهره ! ورأسه لشدة بياضه كأنه قطعة من ثلج ؟! »

وكانوا لم يروه ماشياً قبـل ذلك الحين فعجبوا من نشاطه وخفته وقال عبد الرحمن « كنت حسبته لاول وهلة شيخنا الناسك ولـكنني اشتبهت في امره لما عاينت من نشاطه وسرعة جريه فاني لا ارى قامته محدودبة كما كنت أتوقع ان تكون بعد أن رأيناه في باحة الدير »

فقال عامر « ولا أظن سبب هـذا النشاط الا اقتصاره على اكل الفاكهة والخضار دون اللحوم . على انني استغرب خروجه في هـذا الليل وأختشى أن يكون قد رآنا تحت الجوزة او لعله سمع كلامنا او اطلع على شيء من امرنا »

فقالت سلمى « لو مر بنـا رأيناه او سمعنا خطواته فقد كان السكوت سائداً وضوء القمر ساطعاً . ولـكنني اظنه كان يجول في الغوطة يتناول الاثمار كما احكى لنا الرئيس عن غرابة اخلاقه وكيفية عيشته »

وفيما هم يتهامسون كان الشيخ قد أدرك باب البستان وعالجه بأداة في يده حتى انفتح فدخل ووقف ينتظر وصولهم . فاستغربوا عنايته في ذلك ولم يفهموا السبب الذي حمله على هذا العمل . ولكنهم حملوه على غرابة اخلاقه . وخصوصاً بعد ان دخلوا الباب وحيوه وهو لم يرد التحية بل اسرع الى باب الدير فقرعه وافاق بعض الرهبان ففتح له فدخل ودخلوا هم في أثره . ثم اختفى ولم يعودوا يشاهدونه كأنه كان ظلاً وزال . واما هم فاسرعوا الى غرفتهم يلتمسون المنام بعد المشقة والسهر الطويل

الفصل السادس عشر

الخروج للصيد

ولكنهم بالرغم عن تعبهم لم تغمض اجفانهم الا قبيل الفجر لما ثار في خواطرهم تلك الليلة . على انهم لم يكادوا ينامون حتى افاقوا على ضوضاء الرهبان في باحة الدير وهم لا يفهمون سبباً لذلك . فنهضوا مذعورين وخرج عامر للبحث عن السبب ثم عاد والدهشة تعلوه . فابتدرته سلمى بالسؤال عن سبب دهشته

فقال بصوت خافت « ان أهل الدير يستعدون لاستقبال يزيد بن معاوية »

فبغت عبد الرحمن وقال « يزيد ؟ وكيف يستقبلونه ولماذا ؟ »

قال « لانه ذاهب الى الصيد في هذا الصباح . ومن عادته اذا مرَّ بهذا الدير أن يستريح فيه ساعة وينصرف »

ولم يتم عامر كلامه حتى اختلج قلب عبد الرحمن بغير أن يمازج ذلك شيء من الخوف ولكنها البغتة تفعل أشد من ذلك

وأما سلمى فبالطبع أنها تأثرت أكثر من عبد الرحمن بنسبة ما بين الرجل والمرأة من دقة الشعور . فقال عبد الرحمن « هل أنت واثق يا عماه مما تقول وهل نرى يزيد في هذا الدير اليوم »

قال « ليس نزوله هنا أمراً واجباً ولكنه خارج الى الصيد لا محالة وسيمر من طريق بقرب هذا الدير ويغلب على الظن أنه يعرج اليه ويقيم هنيهة لانه يعرف رئيس الدير ويحترمه . والرئيس يعد مائدة من الفاكهة والاشربة فاذا شاء أقام أو ظل سائراً في طريقه »

فقالت سلمى « أرجو أن ينزل هنا لكي أعاينه لاني لم أر وجهه بعد »

فقال عبد الرحمن « ولكنك لا تقدرين على ذلك الا اذا جلست في مكان مشرف بحيث ترينه ولا يراك »

قال عامر « ولا أنا أريد ان يرى وجهي فالاجدر بنا أن نتخذ مقاماً في خلوة تشرف على باحة الدير واذا استطعنا أن نشرف على بستان الدير أيضاً كان حظنا اوفر . لان يزيد اذا أراد الصيد خرج في حاشية كبيرة وفيها البازيارية والعقابون وساسة الفهود والقرود والكلاب وحملة الزاد والخدم والاعوان وغير ذلك مما يحتاجون اليه في أثناء صيدهم »

فقال عبد الرحمن « وهل يقيمون طويلاً في الصيد »

قال « ربما أقاموا أسبوعاً أو شهراً أو بضعة أسابيع [١] وهم في مضاربهم ومعهم كل ما يحتاجون اليه من الطعام والشراب والكساء . كذلك كان يفعل ملوك العراق عندنا من عهد الفرس . فقد كان الملك منهم اذا خرج للصيد بنوا له حائطاً طوله فرسخ يبتدىء من دجلة مثلا أو من الفرات على زاوية . ثم يخرج الملك أو الامير ومعه الرجال والاعوان على الخيول والبغال والحمير يطاردون الغزلان وحمر الوحش وغيرهما من الطرائد نحو الحائط والنهر

(١) الآداب السلطانية للفخري

ويمنعونها من الرجوع فلا تزال تفر من امامهم وهم يجدّونها حتى يدخلونها وراء ذلك الحائط . فتنحصر بينه وبين النهر وليس لها مجال . فاذا انحصرت هناك دخل الملك ومن معه من خاصته وتأنقوا في القتل فيقتلون مايقتلون ويطلقون الباقي . وأظن يزيد فاعلا في هذه الغوطة مثل ذلك »

فقال عبد الرحمن « وما الحيلة في مكان نستتر فيه »

قال عامر « دعوا ذلك اليَّ » وخرج الى رئيس الدير . وكان الصبح قد انبلج والرئيس على السطح يراقب تنفيذ أوامره في تنظيف الدير وضواحيه وفرش الطنافس واعداد المجالس وترتيب الفاكهة في الآنية واستحضار المياه الباردة المحلاة بالسكر وأنواع الاشربة الحلوة

الفصل السابع عشر

العلية

فصعد عامر اليه وحياه فرحب الرئيس به . فتجاهل عامر وسأله عن سبب ذلك الاهتمام فقال « ان أمير المؤمنين مارٌّ بنا في هذا الصباح بطريقه الى الصيد ومن عادته اذا خرج للصيد أن يجعل هذا الدير أول محطة يقف فيها »

فاظهر عامر ارتياحه لذلك وقال « وقد بلغني أن مولانا الخليفة يحبكم ويحترمكم لقدم عهدكم في هذا المنصب »

قال « ربما فعل ذلك تفضلاً منه ولا غرو فاني أعرف والده من قبله وكثيراً ما كان يجالسني واجالسه . وكان خليفتنا هذا يومئذ صبيا يخرج أحيانا الى هذه الغوطة ومعه معلم كان يعلمه حركات النجوم وانساب للعرب اسمه

دغفل[١] وكان اذا اتاني أنس بي فاكرمه . فلما تولى الخلافة ظل ذاكراً الصحبة»

فقال عامر « ان منظر أمير المؤمنين بحاشيته وخدمه مما ينشرح له الصدر وأراني كثير الشوق الى مشاهدة ذلك المشهد وابنتي أشوق مني اليه ولكنني لا أدري كيف أستطيع ان أريها اياه من غير أن يراها أحد لان عادتنا تقضي بالتحجب »

فقال الرئيس هذا أمر هين يا ابني فاني أقدم لكم غرفتي فوق السطح تجلسون فيها في أثناء تلك الزيارة »

فاثنى عامر على تفضله وقال « بورك فيك يا مولاي » وتحول لاستدعاء سلمى وعبد الرحمن

فلما تحول عامر تذكر الرئيس ما سمعه بالامس من الضيف الابرص المتنكر بان لهؤلاء حكاية بامير المؤمنين ولكنه لم يعد يستطيع الرجوع في قوله

وبعد قليل عاد عامر ومعه رفيقاه فصعدوا جميعاً على السلم الحجري حتى انتهوا الى علية الرئيس فاستقبلهم واوصاهم بالتستر ما استطاعوا . فلم يفقهوا لوصيته معنى غير مجاراتهم في مقتضيات الحجاب

فدخلوا العلية ولها نافذتان تطل احداهما على باحة الدير والاخرى على بستانه . فأطلوا على البستان والغوطة من ورائه يستطلعون موكب الخليفة قبل وصوله . وقد أشرقت الشمس وارسلت اشعتها على تلك المروج الخضراء تتخللها الجداول والبحيرات وتطايرت العصافير وغنت البلابل ألحاناً تكدرها أصوات الماشية والحمير والجمال في الزريبة فاشتغلت اذهانهم بتلك المناظر البديعة بما يخالطها من الوان الفاكهة والرياحين والازهار

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ج ١

الفصل الثامن عشر

يزيد وابن زياد

على انهم لم يكادوا يشتغلون بذلك حتى تبين لهم من بين الاشجار خيول قادمة من ناحية دمشق في هيئة موكب يتقدمه فارس بلباس زاه وعلى رأسه عمامة صغيرة ويجلل ثيابه جبة ارجوانية موشاة والى جنبه سيف مرصع انكسرت أشعة الشمس عن أحجاره فأضاء كالمشعال . ووراء الفارس بضعة عشر فارساً آخرون في مقدمتهم فارس هو احسنهم زياً واقربهم قيافة من الفارس الاول

فعلم عامر لاول وهلة ان الفارس الاول يزيد بن معاوية ولكنه لم يتبين وجهه لبعد المسافة ولا عرف رفيقه . على انه حسبه من بعض خاصته

ولم تتمالك سلمى عن الاستفهام فقالت « من هو هذا الفارس يا عماه ألعله الخليفة المزعوم »

قال « يظهر من لباسه انه هو بعينه »

قالت « ومن هو رفيقه الراكب الى جنبه يظهر لي انه من أخصائه »

قال « اظنه كذلك فاذا اقترب تفرسته وانبأتك بحقيقة حاله »

وظلت ابصارهم شاخصة الى هذين الفارسين لا يلتفتون الى ما وراءهم حتى اقتربا من سور البستان . وكان رئيس الدير قد خرج برهبانه لاستقبال ذلك الضيف العظيم

فترجلت الفرسان ودخل الخليفة اولاً والى جانبه رفيقه ووراءهما بقية الحاشية فمشوا في البستان وعامر يتفرس فيهم وسلمى وعبد الرحمن ينظران الى عامر فرأيا سحنته تغيرت والتفت الى سلمى

فقالت « ما سبب هذه البغتة يا عماه ماذا رأيت »

فتنهد وقال « يا للعجب سبحان جامع الاشباه والنظائر أتعلمين من هما هذان ؟ »

قالت « كلا ومن عسى أن يكونا »

قال « أما الاول صاحب الحلة الارجوانية الذي تريان وجهه شديد الادمة وعليه أثر الجدري [١] فهو يزيد بن معاوية الذي يسميه اتباعه أمير المؤمنين خليفة رب العالمين والخلافة بريئة منه . وهو كما تريانه فتى حسن الصورة [٢] لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره [٣] ولم يغير الجدري شيئاً من جماله . ولكن الخلافة لا تحتاج الى الجمال وخصوصاً اذا كان صاحبها منغمساً في الملاهي . أما رفيقه الماشي مرحاً فاذا اقترب منكما شممتما رائحة المسك وهو عبد الله بن زياد » [٤]

فلما ذكر اسمه ارتعدت سلمى وقالت « ألعل اباه الساعي في قتل أبي »

قال « هو هو بعينه »

فقال عبد الرحمن « يا للغرابة قد اجتمع القاتلان ... ولكن سيقتل كلاهما ان شاء الله » قال ذلك وحرق أسنانه . فنظر عامر اليه شذراً كأنه يوبخه على ذلك التصريح لانهم محاطون بالرقباء والاعداء من كل ناحية

ولم يكد يقترب يزيد ورفقاءه من الدير حتى وصل اتباعهم ودخلوا البستان زرافات ووحدانا وفيهم الراكبون على البغال والحمير وفيهم المشاة وهم الاكثرون. ولكنهم على أشكال شتى في ملابسهم وازيائهم وفيهم أصحاب الملابس القصيرة والطويلة على اختلاف الالوان وبينهم حملة الحراب والنبال بعضهم يقودون فهوداً وآخرون يسوسون قروداً وغيرهم يجرون كلاباً . وفي أيدي الكلاب أساور الذهب وعلى ظهورها الجلال المنسوجة بالذهب يحدق بها

---

(١) الخميس ج ٢ (٢) الآداب السلطانية للفخري

(٣) الخميس ج ٢ (٤) ابن الاثير ج ٤

عبيد [1] يخدم كل عبد كلباً فيقوم بكل ما يحتاج اليه من الطعام والنظافة . وشاهدوا في جملة تلك الحاشيـة أناساً يحملون طيوراً جارحة كالباز والصقر والعقاب

وانتشر هـذا الجمع في البستان لان باحة الدير لا تعيهم جميعاً ولا تسل عن الجلبة لاختلاط الاصوات وفيها صهيل الخيل ونهيق الحمير وشحيج البغال وصيـاح الثعالب ونباح الـكلاب وضحك القرود وصرصرة البزاة وحفيف الاجنحة . يتخلل ذلك ضوضاء وصلصلة وقعقعة مما يشغل الذهن ويستوقف الانتباه . ولم يدخل الدير الا يزيد وخاصته وفيهم ابن زياد

الفصل التاسع عشر

ضروب الصيد

فلم تتمالك سلمى عند ذلك عن الاستفهام عن الجمع المحتشد وما يحملونه أو يسوقونه من أنواع الحيوان

فابتدرها عامر قبل ان تبدأ بالسؤال فقال « اننا يا سلمى في مشهد بديع يندر أن يتفق لمثلك ان تراه . ولذلك فاني أقص عليك خلاصته : فاعلمي ان الخليفة خارج للصيد وربما أوغل في الغوطة واقام في سفرته هذه اسابيع عديدة كما قلت لك قبلاً . وهو مولع بالصيد حتى شغله عن مهام الخلافة. ولا يقتصر في صيده على نوع من انواع الحيوان بل هو يصطاد الطيور والظباء والارانب وحمر الوحش وغيرها وهذا هو السبب في كثرة هـذه الحاشية . فان منهم حفظة الفهود وقد اركبوها على الخيل — ويزيد هذا أول من اركبها عليها [2] أما اول من اصطاد بالفهود فهو كليب بن وائل الشهير في حروب الجاهلية .

(١) الاداب السلطانية (٢) حياة الحيوان

وهي تصطاد له الغزلان وحمر الوحش ونحوهما . وترى في هـذا الجمع عبيداً يسوسون الـكلاب وعليها الالبسة الفاخرة والأساور الذهب فان ليزيد ولعاً غريباً في اقتنائها وهي تصطاد الغزلان والارانب [١]

« وأما الطيور التي ترينها في ايدي حامليها فمنها الباز ويسمى حامله البازيار . والباز كما تعلمين من الجوارح التي تفترس الطيور الضعيفة كالدراج والحبارى والورشان والعصافير [٢] فيحمل الصيادون الباز من الجبال ويعلمونه الطيران والرجوع الى مكانه فاذا خرجوا به للصيد أطعموه قليلا ويقبض البازيار عليه من رجليه بعد ان يكسو كفه بقفاز من جلد . واذا أمعنت النظر في هؤلاء البازيارية رأيت القفاقيز الجلديه تكسو أكفهم. فيمشي البازيار وهو قابض على رجلي الباز فاذا اشتم الباز رائحة دراج أو حبارى رفرف والتمس الافلات فيفلته البازيار فيطير حتى يقع على طريدته فيقتلها والبازيار يركض في اثره . وقد يهم الباز بأكل الطريدة فيدركه البازيار ويستخرجها من فمه . وقد لا يهم بذلك

« وهكذا يفعل العقاب ويقال لحامله عقّاب وكذلك الصقر والشاهين وغيرهما من الجوارح . ولـكنها لا تصطاد الا الطيور الضعيفة كما ذكرت »

فاعترضه عبد الرحمن قائلاً « ولـكنني سمعت ان الباز قـد يصطاد الغزال ايضاً »

قال عامر « ربما اصطاده ولـكنه لا يستطيع ذلك وحده . فان بعض البزاة اذا أطلقتها على غزال رفرفت على وجهه واعترضت مسيره فتعيقه عن الفرار السريع وربما يدركه الـكلب او الفهد ويفترسه . ناهيك بصيد حمار الوحش فان الفهد يصطاده وقد يصطادونه بالنبال . وحمار الوحش كثير في « جرود » وهي قرية في هذه الغوطة [٣]

---

(١) مروج الذهب (٢) حياة الحيوان ج ٢ (٣) مراصد الاطلاع ج ١

وكانت سلمى مصغية تسمع حكاية الصيد وهي تعرف شيئاً منه ولكنها لم تكن تعرف هذا التفنن فيه . فلما وصل عامر الى هذا الحد ظهر من نغمة كلامه انه يهم باقفال الحديث فقالت سلمى « ولكنني أرى جماعة من هؤلاء الغلمان يسوسون قروداً منها قرد عليه قباء من حرير احمر واصفر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوان بديعة وقد ركب على اتان وحشية عليها سرج من الحرير الاحمر منقوش بالوان جميلة [(١)] وبين يديه خادم يسوسه ويطعمه الفاكهة من يده . فما هو شأن هذا القرد ؟ »

فضحك عامر وقال « هذاهو أبو قيس وقد رباه يزيد وسماه بهذا الاسم فاذا جلس يزيد للشراب مع منادميه طرح له متكئاً معهم . وهو قرد خبيث كثيراً ما يركب على هـذه الاتان ويخرج لمسابقة الخيل في ايام الحلبة (السباق) وقد يحوز قصب السبق عليها كلها »

الفصل العشرون

الضيافة

فاشمأزت سلمى مما سمعتـه عن يزيد وقالت « أ الى هنا بلغت حال الخلافة . اين ذلك من عصر الخلفاء الراشدين وقد كانت اثوابهم من الكرباس الغليظ ونعالهم وحمائل سيوفهم من الليف يمشون في الاسواق كبعض الرعيـة [(٢)] ؟ الله يا عمر يا ابن الخطاب . الله الله يا علي بن ابي طالب ويا ابا بكر الصديق . . . اين الزهد والتقوى . اين العدل والقسط أين الحزم والعزم اين العلم والفضل . أواه وا أسفاه على الاسلام والمسلمين ! »

فابتدرها عبد الرحمن للحال وقال « لا تندبي يا سلمى ان وقت النجاة

(١) مروج الذهب ج ٢ (٢) الفخري

قريب . ولا اظنك بعد ما سمعت ورأيت تترددين في اطلاق حريتي في ما عزمت عليه وغداً لناظره قريب

فتنهدت سلمى واطرقت وكأن قلبها دلها على خطر يهدد حبيبها و لكنها ظلت صامتة . و بينما هم في ذلك اذا بنباح الكلاب قد علا في باحة الدير وفيه عواء شيبوب

فتحولوا الى النافذة المطلة الى تلك الباحة فرأوا الخليفة ورجاله جلوساً على طنافس فرشوها لهم تحت الصفصافة وبين ايديهم مواعين الفاكهة والرهبان وقوف باقداح الماء المحلى بالسكر وانواع الاشربة الحلوة التي يستخرجها الرهبان من الاثمار وفيها اصناف الخمور المستخرجة من العنب أو التفاح أو البلح وكل منها بلون خاص به كالاحمر والاصفر والبرتقاني وغير ذلك . وكان الرئيس جالساً باحترام بين يدي يزيد وبيده قدح من الفضة يقدمه له ليشرب . ولكن الصفصافة حجبت كثيراً من منظر تلك الجلسة فلم يروا الجلوس الا من خلال الاغصان . على ان عواء الكلاب كاد يصم آذانهم وقد شغلهم عن كل شاغل

وسبب عوائها ان يزيد لما دخل باحة الدير تبعته كلابه وعليها الالبسة والاساور كما تقدم . وكان شيبوب وصاحبه نائمين على دكة في بعض جوانب الباحة . فلما شعر الشيخ بمجيء يزيد ارتعدت فرائصه ولم يعد يستطيع البقاء فهرول وانزوى في مستتر من الدير ولم يدعُ شيبوباً لمرافقته . فظل الكلب متكئاً حتى دخل يزيد وانتشرت كلابه تحت الصفصافة واشتم شيبوب رائحتها فكان اشد نفرة ورعدة من صاحبه فأخذ في النباح والكلاب تجيبه كما تقدم

فلما طال بالكلاب العواء ولم تسكت أمر الرئيس بعض الرهبان ان يطرد شيبوباً من ذلك المكان فنتهره فركض الى السلم وصعد الى السطح .

وكان لعلية الرئيس كوة واطئة تشرف على السطح فادخل الكلب رأسه منها فرأى سلمى ورفيقيها فحمحم بصوت الاستئناس ووثب الى الداخل ودنا من سلمى وقد أرخى أذنيه وهز ذيله فاستأنست هي به وجعلت تمسح رأسه بيدها وهو يدنو منها ويحك جنبه بثوبها . على انها خافت أن تشتغل به عن مشاهدة الضيافة فشغلته بثمرات جافة كانت في جيبها . وكان شيبوب قد ألف اكل الفاكهة مثل صاحبه وان يكن ذلك غير طبعه

الفصل الحادي والعشرون

النظرة الاولى

وعادت سلمى الى التطلع من النافذة وأهل الباحة مشتغلون عنها بملاطفة امير المؤمنين واكرام وفادته وكلابهم لا تزال تنبح بقوة الاستمرار . فلم يكن من شيبوب الا انه أجابها بنبحة ارتجت لها العلية واستلفتت انتباه القائمين تحت الصفصافة . فالتفت بعضهم الى جهة الصوت وفي جملة الملتفتين عبيد الله بن زياد رفيق الخليفة وصديقه . فوقع بصره على وجه سلمى فلم يتمالك عن الاعجاب بجمالها وهيبتها وشعر لساعته بجاذب جذب قلبه وامتلك عواطفه

اما هي فلاحظت انتباه الناس لنباح شيبوب والتفات بعضهم الى العلية ووقوع نظر ابن زياد عليها فهرعت الى الداخل وقد غلب عليها الحياء وتبدلت هيأتها للحال . وكان عامر وعبد الرحمن مشتغلين عن النافذة بحديث بينهما . فلما عوى شيبوب وتحولت سلمى عن النافذة التفتا اليها فاذا هي قد صبغ وجهها الحياء وظهر عليها الاضطراب . فابتدرها عبد الرحمن بالسؤال عما حملها على ذلك فاظهرت عدم الاكتراث وقالت « ان نباح هذا الكلب

قد استلفت انظار بعض الجالسين بين يدي الخليفة فتطلعوا الى النافذة »

فقال عبد الرحمن « وما الذي تخافينه »

فقطع عليه عامر الكلام قائلاً « ومن انبأك بخوفها وما هو الا الحياء غلب عليها »

وكان عبيد الله بن زياد قد افتتن بسلمى بمجرد تلك النظرة على غير انتظار . ولم يبق له صبر عن رؤيتها والبحث عن حالها . ولكنه لم يجسر على ذلك والخليفة معه فعزم في باطن سره على الاسراع في العود من الصيد بحيلة يخترعها ليزيد و بعودته يعرج الى الدير وحده و يبحث عن تلك الغادة الفتانة

على انه لم يتمالك عن سؤال الرئيس خلسة عن سكان تلك العلية . ولا تسل عن حال الرئيس عند ذلك السؤال بعد ما كان سمعه من ضيفه الابرص من خطارة امر أولئك الضيوف وعلاقة ذلك بالخليفة . فلما سمع ابن زياد يسأله عنهم خفق قلبه من الخوف ولكنه تجلد وأجاب بسذاجة قائلا « انهم يا مولاي رجل وابنه وابنته وهم من أهل العراق نزلوا ضيوفاً علينا » ثم انتبه لعذر ظنه يرضي الله فقال « ولا يخفى على مولاي اننا مكلفون بقبول ضيافتهم لانهم مسلمون . فانزلناهم وقمنا بخدمتهم عملاً بعهدة الخليفة عمر بن الخطاب . وهي تقضي علينا بضيافة من ينزل علينا من المسلمين ثلاثة ايام »

فقال عبيد الله « فعلت حسناً » واطمأن باله من حيث كونهم مسلمين وترجح لديه ان تلك الحسناء عزبة ولكي يتأكد ذلك قال مغالطاً « ألم تقل ان الثلاثة رجل وامرأته وابنه »

قال « كلا يا مولاي وانما هم رجل وابنه وابنته . والابنة فتاة لا زوج لها

فازداد اطمئنان عبيد الله ولكنه خاف اذا طال غيابه ان تخرج سلمى

من الدير فلا يعود يظفر بها فقال الرئيس « وهل تظن اقامتهم تطول في هذا الدير »

قال « لا ادري ولكنني أظنهم يسافرون قريباً الى دمشق لانهم آتون لتجارة »

فقال « اوصيك باستبقائهم ريثما اعود »

فقال « سمعاً وطاعة »

وكان يزيد قد تحفز للقيام فبادر عبيد الله الى الغلمان فأمرهم بالتأهب للمسير فاصطف الجماعة بالترتيب الذي تعودوه في مثل ذلك الحين . فمشى يزيد وحوله شرذمة من الحشم ومعهم الحراب يخفرونه بها ريثما يمتطي جواده. وكان الخلفاء الراشدون لا يتخذون الحشم او الخفر وانما كانوا يسيرون منفردين كآحاد الناس . واذا صلوا في الجوامع صلوا امام النـاس . فلما قتل الامام علي في المسجد بالكوفة رأى معاوية بعد نجاته من عواقب تلك المؤامرة[1] وتبوءه كرسي الخلافة ان يبني لنفسه مقصورة في الجامع يصلي فيها منفرداً خوفاً مما اصاب علياً واذا سجد وقف الحرس على رأسه بالسيوف واذا مشى او جلس في مجلسه قام الحشم بين يديه بالحراب [2] وهو اول من فعل ذلك ثم اصبح قاعدة مرعية لمن جاء بعده من الخلفاء واولهم ابنه يزيد هذا

فخرج يزيد بحاشيته من الدير والرئيس يشيعهم الى البستان برهبانه حتى ركبوا وهو يدعو لهم بالسلامة

أما عبيد الله فانه خرج وقلبه مشتغل بسلمى وهو يعد نفسه بالرجوع اليها عاجلاً

---

(١) راجع رواية ١٧ رمضان (٢) الفخري

الفصل الثاني والعشرون

الحب والانتقام

اما سلمى فانها نزلت هي ورفيقاها بعد انصراف الاضياف حتى دخلوا غرفتهم وعبد الرحمن ساكت لا يتكلم . وقد ادرك عامر وسلمى ما جاش في خاطر عبد الرحمن من أمر الانتقام . فلما وصلوا الغرفة هموا بالجلوس الا عبد الرحمن فانه ظل واقفاً والقلق ظاهر على وجهه . فتجاهلت سلمى حاله ودعته للجلوس فقال « أتدعيني للجلوس وقد أزفت الساعة التي نحن في انتظارها منذ أعوام »

ففهمت مراده ولكنها تجاهلت وقالت « وأي ساعة تعني »

قال « أراك تتجاهلين حين لا ينفع التجاهل فقد قضي الامر وآن أوان الانتقام »

فاختلج قلبها في صدرها لما تخافه عليه من الخطر الشديد بعد ما شاهدت من كثرة تلك الحاشية ومعهم العدة والسلاح وقالت « دعنا من الانتقام يا عبد الرحمن فان الساعة لم تأت بعد »

قال « وكيف ذلك وهذا يزيد خارج للصيد بكلابه وفهوده وجوارحه »

قالت « ذلك هو الامر الذي أخافه عليك ... بالله لا تلق بيدك الى التهلكة ان المركب خشنٌ والطريق وعرٌ »

قال « لقد عزمت وعوّلت والاتكال على الله » قال ذلك وهو يبحث عن خنجره ويصلح ثيابه ويتأهب للخروج

فامسكت سلمى بذيل ثوبه وقد توردت وجنتاها وغلب عليها الحب والحياء معاً وقالت « قف بالله لا تذهب اني خائفة عليك من هذا الامر العظيم . انك فردٌ وهم جماعة »

فقال « دعيني اني لا ابالي مهما يكن من كثرتهم وقـد صممت على الانتقام وهذا وقته فلا تثني عزمي »

فقالت وهي تكاد تشرق بدموعها « لا ... لم يئن وقت الانتقام ... فلا تذهب الآن »

قال « اني لا أرى فرصة أثمن من هذه دعيني يا سلمى ... دعيني أقتل هـذا الرجل وانجي المسلمين من خلافته وأنتقم لحجر بن عدي وأشفي غليلي منه »

فقالت « اذا لم يكن بد من الذهاب دعني أذهب معـك ... فاما ان نقتل او ان ننجو جميعاً »

قال « أليس عاراً عليّ ان اصطحب ملاكا لسفك الدماء ... ؟ دعيني يا سلمى وحاول التملص منها فاذا هي ممسكة ثوبه بيـديها . فغضب واراد أن يتخلص بالعنف ثم نظر الى وجهها فرأى الدموع تتساقط من عينيهـا فسكن غضبه ووقف وهو ينظر اليها بعين المحب المفتون وقال لها « ما هذا يا سلمى.... ما الذي تفعلينـه .... انك تضعفين عزيمتي وتحملينني على الجبن ... ما الذي يدعوك الى ذلك ؟ وعهدي بك أشد حنقاً مني واكثر رغبـة في الانتقام ... »

فقالت وهي تجهش بالبكاء ودمعها يتلجلج « ألا تدري ما الذي يدعوني الى ذلك... ؟ هو الحب يا عبد الرحمن .. ان الحب يحملني على هذا الخوف » ثم قالت بصوت ضعيف متقطع وهي تنظر الى الارض « ان الحب حلو شهي لذيذ ... »

فابتسم اعجاباً بقوة كلامها وابتدرها وهو يتجلد مخافة ان تغلب عواطفه على ما في نفسه وقال « صـدقت يا حبيبتي ان الحب حلو ... ما احلاه ...

ولـكن الانتقام يا سلمى احلى منـه .. ليس للعالم ألذ من الانتقام ولا احلى منه .. دعيني أخرج الى هـذا الرجل الذي يسمي نفسه امير المؤمنين فاقتله بهـذا الخنجر وأنتقم لك ولي وأنقذ المسلمين من خلافته ... أو أموت في نصرة الحق و .. »

فقطت كلامه وقالت لا تذكر الموت يا عبـد الرحمن ان ذكره يؤلمني ويؤذيني حماك الله من شره »

قال « يؤلمك ذكره وقد ذاقه قبلي من هو اكرم عنـد الله مني . ذاقه الامام علي وذاقه والدك حجر بن عدي وذاقه كثيرون غيرهما في سبيـل نصرة الحق . فما أنا خير منهم ... وقد آن وقت الانتقام »

وأرادت سلمى ان تجيبه فوقف عامر وقد تأثر لما شاهده من ذلك الجدال العنيف ووقع في حيرة لا يدري لمن منهما ينتصر ولـكنه خاطب عبد الرحمن بسكينة وهدو وقال « تمهل يا بني وارفق بنا واعلم اذا صممت على الذهاب انك سالك طريقاً وعراً لا نرضى ان تسلـكه وحدك ... دعني اسير معك لعلي انفعك في جهادك او اكون بين يديك فيصيبني ما يصيبك »

فالتفت عبد الرحمن الى عامر وقال « وانت ايضا يا عماه تثبط عزيمتي ؟ ألم نسمع كلام الهاتف معاً ألم يقـل الهاتف فوق قبر حجر (وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم) أترى بعد ذلك مجالاً لقائل . دعوني أنصرف اذا لم يكن اجابة لدعوى الهاتف فانتقاماً لحجر الراقد تحت تلك الجوزة المقتول ظلماً . وان لم يكن انتقاماً له فانتقاماً لصهر النبي « صلعم » وابن عمه ووصيه الامام علي . وان لم يكن لهـذا ولا لذاك فانتصاراً للحق وانقاذاً للاسلام والمسلمين من سلطان تشغل عن الخلافة برعاية الجوارح والـكلاب والفهود والمنادمة على الشراب [1] وغير ذلك مما تعلمانه »

---

(١) مروج الذهب ج ٢

فاراد عامر ان يدافعه لعله يثنيه عن عزمه شفقة على سلمى فقال له « لا انكر عليك نبالة الغاية التي انت رام اليها ولكنني اظن الوقت لم يأن بعد »

الفصل الثالث والعشرون

الاصرار

فملّ عبد الرحمن من الجدال فقال « لقد ضيقتما عليّ السبل وانا لا ارى وقتاً انسب من هذا للقيام بعهدي » ثم التفت الى سلمى وقد هاجت اشجانه فوق هياج غضبه وكأنه تحقق عظم الخطر الذي يهدده في طريقه فقال « ويكفي يا سلمى ان يكون تأجيل قتل هذا الرجل باعثاً على تأجيل افتراقنا... يا منتهى املي . ألم اجعل قتله شرطاً لعقد زفافنا ؟ ألعلك تبغين البعد وانا اسعى في القرب واشتريه بحياتي . ألم اعاهد نفسي على ذلك ؟ آه يا سلمى اني عالم بما يهددني ولا اجهل خطر الطريق ولكنني مضطر لركوب هذا المركب فاتركيني وادعي لي فان دعاك من دعاء الملائكة لانك ملاك بصورة انسان »

قال ذلك واختنق صوته فسكت وهو ينظر الى سلمى وعيناه تلمعان بما غشاهما من الدمع وقد هاجت اشجانه وثارت عواطفه وهو يغالبها بشهامته وبسالته وسلمى لا تزال ممسكة بطرف ثوبه والحب والحياء يتنازعانها والعرق يتصبب من جبينها . فلما سمعت كلامه اطرقت الى الارض والدمع يقطر من آماقها وهي تحاول اخفاءه بسكوتها . وعامر ينظر الى ذينك الحبيبين وقلبه مشارك لهما جميعاً ولا يدرى لايهما ينتصر

وظل الجميع ساكتين على تلك الحالة هنيهة والقلوب تتناجى وتتفاهم . وضربلتها اصوات حية تفصح عما لا يعبر عنه النطق الصريح

ظلوا صامتين وعبد الرحمن يغالب عواطفه وهو يخاف ان تغلبه ولـكنه امسك نفسه واعاد الـكرة بتجلدهم وقال بصوت هادىء « لا اجهل يا سلمى اني سائر في مهمة ذات خطر عظيم . ولـكنك تعلمين اننا انما قطعنا البراري والقفار وجئنا هـذه الديار ولا غرض لنا غير الانتقام . وقد اردت المجيء وحدي فابيتما الا اللحاق بي وهذا ما كنت اتخوفه من بادىء الرأي فلا تكوني عثرة في سبيلي وسبيل الحق .... انني انما جئت هذه الديار لقتل هذا الرجل ليس الا ... امصدقتما اننا جئنا للاتجار بالتمر والجمال ؟ ... ما جئنا الا للقتل.. أيليق بنا بعد ان استخرنا الله وعزمنا ان نرجع الى الوراء ؟ أليس من العار ان يكون ابن ملجم الباغي احسن ثباتاً مني . وهو انما ارتكب بثباته قتل نفس بريئة وانا اسعى في استئصال شجرة فاسدة . اني اسعى فى انقاذ الاسلام من فساد تولاه ولا علاج له غير القطع فاذا قتل يزيد عادت الخلافة الى حبيبنا سيد شباب المسلمين الامام الحسين ابن بنت الرسول (صلعم) فاتركاني امضي لسبيلي فقد اتكلت على الله في امري وما الموت الذي تخافانه عليَّ الا سنـة الله في خلقه . فاذا حكم عليَّ به فلي اسوة بغيري من القوم الصالحين وا كون قد تبطنت الثرى قرير العين القى وجـه ربي باشاً مطمئناً وكل ذرة من ترابي تشهد بحسن جهادي . واذا فزت وحييت فاني احيا سعيداً وسلمى قرينتي والحسين مولاي وخليفة المسلمين . .. هذا هو القول الفصل ... وقد كفانا تردداً وجبناً »

فلم يبق ثمة مجال للدفاع فقال عامر « دعيه يا سلمى ... دعيه ان الله دعاه الى عمل صالح واستخاره دون سائر المسلمين فعسى ان يوفقا به . دعيه والقي امرك الى الله ... »

فتركت سلمى ثوب عبد الرحمن ولـكنها ظلت صامتـة . فاتم عامر كلامه قائلا « والآن اذا انت خرجت في اثر هـذا الركب فما الذي نفعله

وكيف نطلع نحن على خبرك ... ألا ترى ان اسير انا معك ؟ »

قال « اقسم بتربة عمي الثاوي في هـذا الجوار انه لا يذهب معي في هذه المهمة احد . اما خبري فسأحمله اليكم بنفسي والا .... وسكت

فعادت سلمى الى القلق وقالت « والا ماذا ؟ .. قل .. »

الفصل الرابع والعشرون

العلامة

قال ابي ذاهب الآن في اثر هـذه الحملة الى حيث ينزلون لصيدهم فاختبىء في بعض الاماكن حتى استفرد يزيد فاقتله (ان شاء الله) وامكثا انتما هنا في انتظاري بقية هـذا النهار وطول ليله فاذا جاء مساء الغد ولم أعد اليكما اطلباني . فلا ادري اين أكون ... »

فقال عامر « سر واتكل على الله ونحن في انتظارك الى غروب الغد فاذا غابت الشمس ولم تعد الينا . »

فقطع عامر كلام عبـد الرحمن قائلاً « لا اظنني بعد مباشرة قتل الخليفة الا مضطراً للاختفاء فلا استطيع دخول هذا الدير ... وسكت ولبث يفكر ثم قال ... « ولكنني ارسل اليكم علامة »

قال « ما هي علامتك وكيف ترسلها »

قال « ارمي اليكم بسهم اكتب بين ريشتيه اسم المكان الذي نلتقي فيه فتوافياني اليه .. فاذا جاء غروب الغد انتظرا سهمي على سطح هـذا الدير . ولن اذكر لكما بين الريشتين غير اسم المكان فلا خوف منه اذا وقع بيد الرهبان »

فاعجب عامر بتلك الفطانة وقال « انها لنعم العلامة »

فتأبط عبد الرحمن قوساً صغيرة واسهماً وتقلد الخنجر ولبس ثوباً يشبه به بعض اتباع يزيد وتزمل برداء فوق ثوبه . وكانت سلمى في اثناء ذلك تنظر اليه وقلبها لا يطاوعها على مفارقته . فلما اتم الاستعداد وهمّ بوداعها خفق قلبها وندمت على قبولها بذهابه وارادت ان تعود الى منعه فلم يترك لها فرصة واسرع ففتح الباب وخرج . فلم يعد في امكانها التظاهر بشيء مخافة ان يشتبه الرهبان بامرهم فتظاهرت بالسكينة وارادت ان تتبعه بنظرها فاذا هو قد ادرك باب الدير وخرج منه فاصطحبت عامراً والتمست سطح الدير لكي تشيعه ببصرها وهو سائر في الغوطة . فصعدا السلم وهما يتظاهران بالميل الى التفرج . فلما اشرفا من السطح رأيا عبد الرحمن قد قطع البستان حتى خرج من بابه وهو لا يلتفت يمنة ولا يسرة ثم اوغل بين الاشجار

وفيما هما ينظران اليه من خلال الاشجار رأيا رجلا ملثما خرج من الدير وسار في أثره فلم يعرفاه ولا اشتبها به لخلو ذهنهما من رقيب يراقبهما هناك . ولو علما من هو ذلك الملثم وما نصبه من الشراك لعبد الرحمن لتعقباه واوديا به او ارجعا عبد الرحمن عن عزمه

وما كان ذلك الملثم الا الضيف الابرص الذي جاء الدير بالامس واختبأ في بعض الغرف كما قدمنا . وكان قد رافقهم خلسة منذ خرجا من الكوفة لغرض في نفسه لو اوحي به لسلمى لارتعدت فرائصها ولما صبرت الى غروب الغد تنتظر رجوع حبيبها

وظلت سلمى واقفة تتطاول بعنقها وتحدق بعينيها بين الاشجار حتى غاب عبد الرحمن عن بصرها فلما توارى احست كأن قلبها انخلع من مكانه ولم تعد تتمالك عن البكاء لما غلب عليها من الخوف على حياة حبيبها وندمت لمجاراته في سفره هذا وعادت الى غرفتها حزينة كئيبة لا تخاطب عامراً ولا تنظر اليه

ولم يكن عامر اقل ندماً منها على ذلك فظل صامتاً وفزل في اثر سلمى والرهبان في شاغل عنهما برفع الآنية والابسطة التي كانوا قد اعدوها للخليفة

الفصل الخامس والعشرون

البكاء

دخلت سلمى غرفتها وقد اظلمت الدنيا في عينيها ولم تجد فرجاً لها من ذلك الا بالبكاء فاطلقت دموعها واستغرقت في النحيب وكأن نفسها حدثتها بما سيلقاه عبد الرحمن من الخطر العظيم وتاقت بكليتها الى الذهاب في اثره لعلها تكون له عوناً في شيء . ولكنها لم تكن تعرف الجهة التي سار فيها هو ولا التي سار فيها موكب الخليفة فظلت تتراوح بين اليأس والرجاء وعامر جالس وقلبه منقبض وفي نفسه هواجس امسك عن بيانها تخفيفاً لما ظهر له من خوف سلمى . ثم تجلد وتقدم اليها وجعل يخفف عنها بكل ما في وسعه مما يدعو الى الاطمئنان وهي لا تصغي اليه

على انها عادت الى تعليل نفسها بنيل المنى فتصورت فوز حبيبها بقتل يزيد وما يترتب على فوزه من الامر العظيم الذي تتوق اليه نفس كل مسلم من دعاة اهل البيت فضلاً عن شفاء غليلها بالانتقام لوالدها فسكن روعها وخف بكاؤها . فاغتنم عامر تلك الفرصة وقال لها « خففي عنك يا سيدتي واتكلي على الله وعسى ان يسعدنا الحظ بنيل المنى . وما قتل هذا الخليفة بالامر العسير لانه لا يستطيع دفاعاً وخصوصاً ان عبد الرحمن لا ينوي التهجم على قتله جزافاً كما قد علمت ولكنه سيتوقع انفراده ولو بعد ايام . فهل تخافين عليه منه اذا التقيا منفردين ؟ ألا تظنين عبد الرحمن كفوءاً ليزيد اذا تبارزا ؟ لا تخافي ولا تجزعي واتكلي على الله انه نعم النصير »

فوقع كلام عامر من نفسها وقوع الغيث على الارض الظمآنة ومسحت دموعها ونهضت تتشاغل بترتيب ما انتثر من الاثواب والآنية عندما لبس عبد الرحمن ثيابه ثم استلقت وقد غلب عليها التعب بعد ذلك البكاء وشعرت بالنعاس . وادرك عامر فيها ذلك فتركها في الغرفة وخرج ليخلو بنفسه و يفكر في امره

وظلت سلمى نائمة الى العصر وعامر يتردد الى الغرفة فيتفقدها فاذا رآها لا تزال نائمة عاد الى السطح او دخل الكنيسة او كلم بعض الرهبان بشؤون لا تهمه ولا تهمهم

وفيما هو عائد مرة رأى شبيوباً تحت الصفصافة فتذكر الشيخ الناسك وما توسم فيه من الغرائب فخطر له ان يذهب اليه لعله يسمع منه كلاماً يطمئنه على عبد الرحمن وهو يعتقد الكرامة في مثل هؤلاء النساك . ثم خطر له ان يصطحب سلمى لتشاركه في ذلك الاطمئنان ففتح الغرفة فرآها استيقظت مرعوبة وقد غلب عليها الانقباض فقال « ما بالك يا بنية ما لي اراك منزعجة ؟ »

قالت والدمع ملء عينيها « آه يا عماه كيف تسألني عن سبب انزعاجي وانت تعلمه وزد على ذلك ان الاحلام قد تراكمت عليَّ وزادتني قلقاً »

فاظهر عامر الاستخفاف بما خافته ولم يشأ ان يسألها عن تفاصيل الحلم ولكنه ابتدرها قائلاً « دعينا من الاحلام والاوهام وهلمي بنا الى الشيخ الناسك نجلس اليه عسانا ان نسمع منه بشارة اني والله اعتقد الكرامة في امثاله »

فارتاحت سلمى لذلك الرأي ووقفت للحال وقد انبسط وجهها وزالت عبوسته وقالت « لقد رأيت الرأي الصواب يا عماه هيا بنا اليه اين هو ؟ »

قال « اظنه في بعض جوانب الدير فقد رأيت كلبه الساعة تحت

الصفصافة فلا يبعد أن يكون هو في زاوية من زوايا الدير او في بعض غرفه»

الفصل السادس و العشرون

الكهف

قل ذلك وخرج وخرجت هي في أثره . فلما اطلا على الباحة رآهما الكاب فهرول الى سلمى وهو يحرك ذيله ويغمغم استئناساً بها . وانفرد عامر للبحث عن الناسك ثم عاد وهو يقول « سألت في كل اطراف الدير فلم أقف له على أثر وقال لي الرئيس أنه خرج مذ كان الخليفة هنا ولم يعد »

قالت « هل تظنه في بعض جوانب هذا البستان »

قال « ربما كان هناك هلم بنا اليه »

فمشيا حتى خرجا من باب الدير والزريبة الى يمينهم وفيها الماشية والدواب كما قدمنا فوقفا يتطلعان الى جوانب البستان . و كان الكاب قد خرج في أثرهما ثم رأياه يهرول نحو اليسار وامعن في مسيره فقالت سلمى « يظهر ان شيبوباً اشتم رائحة صاحبه فاسرع يطلبه فلنذهب في أثره »

وتبعاه فاذا هو قد انتهى الى جميزة قديمة العهد في اسفل ساقها كهف يشبه غرفة صغيرة اوى اليها الناسك . ورأياه عن بعد جالساً الاربعاء ويداه متقاطعتان على ركبتيه وقد أطرق كانه يفكر في معضلة يبتغي حلها . فلما وصل الكاب اليه وجعل يلحس يديه ويتحكك به تحبباً انتبه الشيخ من غفلته فرفع بصره وشعر حاجبيه يغطيهما وامسك لحيته وثناها الى فيه واطبق شفتيه عليها . فوقعت عينه على سلمى وعامر فجعل يتفرس فيهما وهما قادمان اليه يفكران في ما يبدآن به الحديث . لم يكادا يدركانه حتى

سمعاه يقول بصوت جهوري اخترق أعماق قلبيهما « ابن عبد الرحمن !! »

فلما سمعت سلمى أسم حبيبها خفق قلبها وارتعدت فرائصها. ولم يكن عامر أقل بغتة منها . واغلق عليهما فلم يعلما بماذا يجيبانه

ولم يصلا اليه حتى وقف بخفة ورشاقة كانه شاب في عنفوان الشباب وصاح فيهما « أين عبد الرحمن . أين ذهب ! »

فاقشعر بدن سلمى واستغربت معرفته عبد الرحمن وهمت بالجواب فارتج عليها فاجابه عامر قائلا « وأي عبد الرحمن ؟ »

قال « أتسألني يا عامر عن عبد الرحمن وأنت كفيله ؟ قل اين ذهب ؟ وقد كان معكم بالامس »

فتصور عامر نفسه بين يدي ولي من الاولياء فقال « انه سار في مهمة اذا كانت فيك كرامة عرفتها من تلقاء نفسك »

قال « أظنه ذهب وراء يزيد بن معاوية الذي يسمونه الخليفة... »

فخاف عامر وسلمى أن يسمعه أحد يقول ذلك فالتفتا فاذا هما في معزل عن الناس فقال عامر « نعم يا سيدي »

فصفق الناسك يداً بيد ونظر الى السماء وقال « حماك الله يا عبد الرحمن من ذلك الخائن المنافق .. كيف تركتماه يذهب تحت هذا الخطر العظيم »

الفصل السابع والعشرون

استطلاع الغيب

فلما سمعت سلمى كلامه ترامت على قدميه وصاحت « قل يا سيدي !! قل لي بالله ما هو ذلك الخطر »

قال « الخطر عليه من ذلك الارض الذي خرج في أثره »

قال عامر « وأي ابرص يا مولاي .. قل بالله .. قل افصح .. لقد اقلقت خاطرنا »

فاطرق الشيخ وسكت لا يبدي حراكا وهو يقبض على لحيته ثم يتركها ويداه ترتعشان من عظم التأثر. فلم تعد سلمى تستطيع صبراً على سكوته فقالت « قل بالله يا سيدي . قل ما الذي يصيب عبد الرحمن في سفرته هذه ... ومن هو ذلك الابرص ؟ »

فرفع الناسك طرف ثوبه حتى غطى رأسه ثم قال « ألا تعرفان ذلك الابرص ؟ ألا تعرفان شمر بن ذي الجوشن »

فقالا بصوت واحد « بلى نعرفه واين هو ؟ »

قال « انه خرج في هذا الصباح من هذا الدير ملثما بعد خروج يزيد وأظنه رأى عبد الرحمن خارجاً فاقتفى أثره ليوقع به »

فالتفتت سلمى الى عامر والشيخ لا يزال ساتراً رأسه بثوبه وقالت « تباً لذلك الخائن اظنه اقتفى اثرنا من الكوفة وقد علم بالغرض الذي جئنا من اجله الى الشام . تباً لك يا شمر يا خائن » ثم التفت الى الشيخ وقالت « ماذا نعمل الآن يا سيدي .. قل لي كيف نعمل . وما الذي تخافه على عبد الرحمن .. يظهر لنا أنك من الاولياء ذوي الكرامات » قالت ذلك وقلبها يخفق وقد اصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف وهي مع ذلك تحسب نفسها في حلم وعامر ينظر الى ذلك الناسك نظر الاستغراب لا يدري كيف يفسر فراسته . ولكنه شغل بامر الخطر المحدق بعبد الرحمن عن البحث في تلك الفراسة وحمل اطلاع ذلك الناسك على سرهم محمل الكرامة . على انه احب أن يغالطه فقال له « نراك يا سيدي تخاطبنا بالرموز والالغاز فما هو خبر عبد الرحمن وما الذي هو ذاهب من أجله »

ولم يتم عامر كلامه حتى سمع قهقهة ذلك الشيخ من تحت الغطاء

انقطعت القهقهة بغتة وقال الشيخ أتجربني يا عامر وتتجاهل ؟ . أنك معذور بتجاهلك . ولكن الامر الذي جئتم من أجله الى هذه الديار لا يخفى على هذه الاحجار ولا على هذه الاشجار .. واذا لم تصدقاني اسألا الهاتف الذي كلمكم من الجوزة ألم يقل لكم : وبشر الذين ظلموا بعذاب اليم »

فلا تسل عن حال عامر وسلمى عند سماعهما ذلك الكلام . أما عامر فهمّ بيد الشيخ وأراد أن يقبلها وهو لا يبالي برائحة قذارتها وقذارة ذلك الثوب . فلما أحس الشيخ بيد عامر جذب نفسه منه وانزوى في الكهف والغطاء لا يزال على رأسه

فقال له عامر « بالله ايها الشيخ الجليل الا كشفت عن وجهك وافصحت عن نفسك »

فزجره الشيخ وقال « تأدب يا عامر ولا تتطاول الى ما لا يعنيك واعلم اني لن اخاطبك بعد الآن الا مستتراً ويكفيك ما علمته من امر ابن ذي الجوشن الابرص [1] وما يبغيه من اللحاق بعبد الرحمن »

فخافت سلمى أن يغضب الناسك منهما اذا اكثرا من السؤال فقالت « لا تغضب يا سيدي ولا يسوءك سؤالنا وأنت تعلم حالنا بعد ما ظهر من اطلاعك على أمرنا . انا سائلينا سؤالاً واحداً لا نزيد عليه شيئاً . هل تجيبنا عليه »

فلم يزد قوله « هم هم » أي نعم

فقالت « هل ترى من بأس على عبد الرحمن في سفرته هذه وما حيلتنا في انقاذه »

فاوجم الشيخ وسكت برهة ثم قال « ارجو أن لا يكون عليه بأس باذن الله لانه عرّض بنفسه في سبيل مصلحة المسلمين . وهذا آخر ما أقوله لكما

(١) ابن الاثير ج ٤

فلا تزيدا . قال ذلك وهرول مسرعاً والـكلب يجري في أثره نحو الغوطة وخلف سلمى وعبد الرحمن على احر من الجمر وقد جمد الدم في عروقهما وهما يكادان يمسكان النفس من شدة الدهشة

الفصل الثامن والعشرون

الحيرة

فلما توارى الشيخ وكلبه عنهما ظلا برهة صامتين ثم قالت سلمى « ما قولك يا عماه بهذا الشيخ وما سمعناه من كلامه »

قال « اني والله في عجب عجاب من امره وقد كنا نسمع بالاولياء سمعاً فشاهدناهم اليوم شهادة عين »

فقالت « اني أحسبني في منام » قالت ذلك وهي تفرك عينيها وتلتفت الى ما حواليها فلم تر شكاً بيقظتها

وأدرك عامر استغرابها وحيرتها فقال « لا تستغربي يا سلمى ما شاهدته من تطلع هذا الشيخ الى الغيب مع ما يظهر لك من بلاهته فان الغيب قلما يكشف لغير امثاله . ومن شروط الولاية الزهد والتقشف . وقد قيل في أهل الولاية انهم جواسيس القلوب [1] فلا أرى غرابة في معرفته حقيقة حالنا ولـكن يظهر أنه على رأينا فلا خوف منه على افشاء سرنا . .. »

فقطعت سلمى كلامه قائلة « ولكن من عسى أن يكون هذا الرجل ... »

فاجابها عامر « ان أمره حيرني لان حاله ولباسه يدلان على تنسكه وانقطاعه عن الدنيا . ولـكن كلامه عن يزيد يدل على اهتمامه بامر المسلمين ويظهر أنه عربي وكأن لهجته عراقية .. »

فقالت سلمى « يا ليتنا سألناه عن بلده وطلبنا اليه أن ينتسب »

فقال « ومن يتجرأ على هـذا السؤال وقد رأيت مبالغته في التستر

(١) الهمانوي

حتى غطى وجهه ولما طال الحديث بيننا فر من بين أيدينا فلعله من بعض الذين بلوا بمثل بلوانا فلجأ الى هذا الدير للاختفاء »

فقالت « لاأظنه الا مصابا بعقله لانه شاذ باطواره . ألم تسمع من رئيس الدير عن معيشته وكيف يقضي نهاره على الاشجار يقتات باثمارها لا أنيس له غير هذا الكلب »

قال « ومهما يكن من امره فانه ذو كرامة وعساه أن ينفعنا بكرامته »

قالت «ما العمل الآن ؟ اني لم ازدد من حديث الا قلقاً ...» وسكتت برهة ثم قالت « وما قولك بشمر اللعين

قال « هذا الذي شغل بالي قبحة الله . لقد طالما شككت في هذا الابرص وخفت غدره . . والظاهر أنه علم بسفرنا الى الشام واطلع على غرضنا فاقتفى أثرنا ايشي بنا . ولولا ما قاله هذا الناسك مما يدعوالى الاطمئنان على حياة عبد الرحمن لاسرعت في البحث عنه وارجاعه عن عزمه . . ولكن هبي اني لم اطمئن فليس لي سبيل اليه لا ني لا أعرف الجهة التي ساروا فيها. واخاف اذا انا سرت في ناحية ان نختلف فيالطريق وتبقي انت وحدكولعل هذا الخائن قد نصب لك احبولة أخرى . .. »

قالت « أذهب وانا اذهب معك ايضا . . »

قال « وماذا نعمل بوعدنا لعبد الرحمن ان نتربص له هنا وربما جاء الليله ونحن غائبون فيرمي سهمه وقد يكون في ما سيكتبه عليه ما يبعث على موافاتنا أياه الى مكان فيقع السهم بين يدي احد الرهبان ولا نطلع عليه . . دعينا نمكث هنا ونكل امره الى الله وهو كفيله »

قال ذلك ومشيا حتى اقتربا من الدير وهما مبهوتان كانهما في حلم فاراد عامر أن يشغل وقته في شيء يبعد الشبهة عنه فقال لسلمى « تعالي معي الى الزريبة نتفقد جمالنا ونرى ما تم باحمالنا »

قالت « دعنا من الجمال والاحمال فلا طاقة لي بشيء غير الافتكار في ما نحن فيه »

قال « وهذا الذي اشعر به انا ايضاً ولكن لا بد لنا من الانتظار الى مساء الليلة أو صباح الغد أو مسائه فكيف نقضي الوقت ووقت الانتظار طويل »

فاطاعته وتحولا الى الزريبة فرأيا الخدم قد بذلوا العناية في خدمة الجمال واما احمال التمر فلم يجدوها . فبغت عامر لاول وهلة ثم تذكر انهم حملوها معهم الى داخل الدير

قضيا هناك برهة يتشاغلان بما يسمعانه من اصوات الدواب وسلمى لاتنتبه لشيء مما حولها لعظم ما ثار في خاطرها من القلق على حبيبها بعد ما سمعته من الشيخ الناسك ولم يكن عامر اقل قلقا منها ولكنه اراد تشجيعها وتحويل ذهنها برهة فلما لم ير ذلك الموقف يشغلها اطاعها في العود الى الدير وسارا تواً الى الغرفة ومكثا برهة بين كلام وتفكر

الفصل التاسع والعشرون

الانتظار

فلما مالت الشمس الى المغيب علقت آمال سلمى بسهم عبد الرحمن وخيل لها من فرط قلقها انها لا تكاد تصل الى السطح حتى ترى السهم ساقطاً امامها فاستحثت عامراً على الصعود معها فطاعها وقلبه لا يدله على خير فوقفا على السطح ينظران الى الافق لا يشغلهما شاغل عن الهواجس وسلمى كلما لاح لها طائر ظنته سهماً من حبيبها حتى شاعت عيناها وعامر يلاحظ حركاتها ويراقب عواطفها ولا يبدي رأياً حتى آذنت الشمس بالزوال ولم يأت

السهم ولا سمع شيئاً يتعلق به

كان رئيس الدير مشغولاً في ذلك اليوم بصلوات خاصة لم يفرغ منها الا نحو الغروب فخرج من عليته وتمشى على السطح فرأى عامراً وسلمى جالسين ينظران الى الغوطة وقرأ القلق على وجهيهما فلم يشأ ان يزعجهما بالسؤال فظل بعيداً وفي نفسه انهما اذا احبا مجالسته دعياه اليهما

فغابت الشمس وهما على السطح ولم يحدث شيء فازداد بهما القلق وعامر يحاول طمأنة سلمى بحديث او رأي وهي لاتقتنع . وشاع بصرها بعد الغروب نحو الغوطة في الطريق الذي سار فيه عبد الرحمن لعلها ترى قادماً تستأنس به فلم تر شيئاً

وأخيراً نهض عامر وهو يقول « ان موعدنا يا سلمى الى غروب الغد ومن العبث بقاؤنا هنا الليلة . فضلاً عن أن بقاءنا في أثناء الليل يوجب شبهة » قال ذلك ومشى فمشت هي في أثره وعيناها لا تستقران من التلفت

باتا تلك الليلة وكل منهما يفكر في عبد الرحمن فاذا تصورا غروب الغد وسهمه لم يأت تحيرا في أمرهما وخصوصاً سلمى فانها عزمت في باطن سرها اذا غربت شمس الغد ولم يأتها خبر من عبد الرحمن أن تتنكر بلباس الرجال وتذهب للتفتيش عنه . ولم يكن تصميم عامر أقل من ذلك ولكنه كان يخشى اذا ترك سلمى في الدير وحدها أن يكون عليها بأس . ثم صمم اذا لم يعد عبد الرحمن أن يذهب هو وسلمى معاً للبحث عنه

وأما رئيس الدير فانه انتبه لبقاء عامر وسلمى على السطح بدون عبد الرحمن نظنه في بعض جوانب الدير ولم يداخله ريب من أمره

ونهضت سلمى والفجر لم يبد بعد وأيقظت عامراً وحرضته على الصعود الى السطح عسى أن يكون سهم عبد الرحمن قد وقع في اثناء الليل فصعد

ولم ير شيئا فرجع . فاستحثته بعد هنيهة على الصعود وهو لا يحتاج الى من يستحثه . وما صدق ان اشرقت الشمس حتى دعاها للصعود معه . وفيما هما صاعدان على السلم شاهدا طائراً يحلق في الجو ولا يحرك جناحيه فتطيرا به[١] وكانت تلك عادة العرب اذا رأوا طيراً يحلق على تلك الصورة تشاءموا به . وادرك عامر تشاؤم سلمى فابتدرها قائلا : اراك تطيرت بمنظر هذا الطير وقد نهى النبي (صلعم) عن ذلك فقال من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ولا اله غيرك ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم[٢] . وقال (صلعم) اذا تطيرت فلا ترجع[٣] فانزعي من بالك هذا الوهم وكلي أمرك الى الله . فسكتت وخاطرها لم يطمئن ولكنها سايرته وصعدت معه

ولما طال انتظارهما وتعاظم بهما القلق تذكرا الشيخ الناسك وكانا لم يرياه منذ فر من بين ايديهما في الامس ولا رأيا كلبه في الدير

ولم يكن اطول من ذلك النهار على سلمى فلما دنا الاصيل ولم يطمئن بالها اخذت تلوم نفسها وتقرع عامراً على التقاعد عن اللحاق بعبد الرحمن . وهي الى ذلك الحين لم تذق طعاماً فخارت قواها ولكنها لم تشعر بالجوع لشدة القلق

الفصل الثلاثون

الوقوع في الفخ

وبينما هي غارقة في بحار الهواجس لمحت فارساً يركض فرسه بين الاشجار بالقرب من باب البستان فخفق قلبها والتفتت الى عامر واذا هو ينظر ايضاً الى

(١) الاغاني ج ١٣ (٢) المسطرف ج ٢ (٣) العقد الفريد ج ١

ذلك الفارس وقد علته البغتة . ورأت رئيس الدير قد خرج من عليته مسرعاً وهو يصلح عباءته و ينظر الى باب البستان ثم أمر القيم أن « ابعث راهباً ليفتح الباب لاني أرى عبيد الله بن زياد قادماً فلعله جاء لينبئنا بقدوم الخليفة »

فلما سمعت سلمى اسم ابن زياد ارتعدت فرائصها وتفرست في الفارس فرأته واقفاً بالباب . وهرول بعض الرهبان ففتحوا له . وهمت بمخاطبة عامر فاذا هو يقول لها « انزلي يا سلمى الى غرفتك واستتري هناك وانا ابقى هنا لنرى ما يكون من أمر هذا القادم » فارادت ان تستمهله فألح عليها بالنزول ووعدها انه باق في انتظار رسالة عبد الرحمن فنزلت مسرعة واختبأت في غرفتها وظل عامر على السطح

وكان الرئيس قد نزل الى الباب واستقبل ابن زياد ووقف معه برهة وهما يتكلمان همساً . ثم صعدا الى السطح وقبل ان يصلا فاحت رائحة المسك فعلم عامر انها رائحة عبيد الله ابن زياد لانه كان مشهوراً برائحة طيبه [1] . ولبث عامر جالسا وقد ندم على بقائه هناك . ثم ما عتم ان رأى الرئيس مقبلا نحوه وعبيد الله الى جانبه فوقف له وحياه فرد عبيد الله التحية هاشاً والرئيس يبتسم كأن في نفسه قولا يهم به. فتجاهل عامر وتأدب في موقفه فدعاه ابن زياد للجلوس وامر الرئيس بطنفسة فرشت لهم على حصير فجلسوا عليها وعامر يعجب بما يبدو من ظواهر الترحاب. وحدثته نفسه بظنون كثيرة حتى لم يبق له صبر على استطلاع سبب ذلك وهو يخاف ان يكون فيما سيسمعه بأس على عبد الرحمن.

فلما استتب بهم الجلوس جاءتهم مواعين الفاكهة وكؤوس الاشربة فاكلوا وشربوا ثم بدأ الرئيس بالكلام قائلا «ألعل مولانا الخليفة قادم الينا فنتأهب لاستقباله »

---

(١) ابن الاثير ج ٤

فضحك عبيد الله وهو يصلح حمائل سيفه وقال « لا أظن مولانا يمر بكم اليوم »

قال الرئيس « وهل هو عائد الى دمشق »

قال « نعم انه عائد الليلة »

« قال وما الذي دعاه الى الرجوع من صيده عاجلا وقد كنت احسبه لا يعود قبل اسبوع على الاقل »

قال « انه تشاءم من سفرته هذه فاحب الرجوع سريعاً »

فارتاب عامر بسبب الاسراع ولم يعد يصبر على الكلام وهمّ بالاستفهام فاذا بابن زياد قد استأنف الحديث فقال « وقد نجا أمير المؤمنين من خطر عظيم »

فلما سمع عامر قوله هذا توسم الوصول الى ما يتوقعه ولكنه خاف ان يكون في حديث تلك الواقعة ما يسيئه فبدت البغتة على وجهه وتطاول بعنقه لسماع بقية الكلام

فاتم عبيد الله حديثه قائلا « وكانت نجاته من ذلك الخطر بسر عجيب يرجع الفضل فيه الى كلبه والى رجل من خاصتنا »

فقال الرئيس « وكيف ذلك »

قال « خرجنا من عندكم بالامس و بتنا في قرية على بضعة اميال من هذا الدير فجاءني مساء الامس رجل أعرفه من الكوفة ونبهني الى غريب متنكراً يزعم أنه عازم على الفتك بامير المؤمنين في اثناء صيده فشكرت مسعاه ووعدته خيرا على جميله واصبحنا وأنا لم اطلع الخليفة على ذلك لئلا ازعجه . فخرجنا الى الصيد وكلما أراد الخليفة الانفراد في الغوطة لحقت به مخافة أن يكون ذلك المتنكر متربصاً في بعض الاماكن . وأوصيت جماعة من رجالنا الاشداء ان يقتفوا اثرنا و يتأهبوا للوثوب عند أول اشارة

« وكان معنا كلب من كلاب الصيد يمتاز عن سائر الكلاب بسرعة جريه ونباهته وقد احبه الخليفة حتى البسه الدمقس والحرير وملأ قوائمه بالاساور الذهب [١] وفيما نحن على خيلنا بالقرب من غابة متكاثفة الاغصان نبح الكلب نباحاً شديداً واسرع امامنا حتى اوغل بين الاشجار وهو يبالغ في العواء فتعجبنا لامره وما زلنا ندعوه الينا وهو لا يطيع حتى اشكل عليَّ امره . فتفرست في مكانه فآنست هناك شبحاً فأومأت الى رجالنا فوثبوا في اثر الكلب فما شعرت الا وقد خرج لنا شاب ملثم في يده خنجر مسلول طعن به اول قادم عليه ثم طعن الثاني والثالث واخترق الجمع وهو يلتمس الخليفة فامرت الرجال ان يقبضوا عليه ولا يقتلوه فتكاثروا عليه فقتل منهم خمسة ولم يبلغوا منه وطراً الا بعد ان عثر بجذر شجرة فانكب فتجمهروا عليه واوثقوه وثاقاً شديداً وساقوه الى الخليفة. وكنت قد سبقته اليه واخبرته بخبره فامر بارساله الى دمشق وعدل عن اتمام الصيد واوعز بالرجوع فاسرعت في مقدمته لغرض لي عند عمي هذا » وأشار الى عامر

الفصل الحادي والثلاثون

كلب يزيد

فلما سمع عامر حديثه لم يبق عنده شك في ان الذي قبضوا عليه هو عبد الرحمن بعينه. ولكنه عجب للغرض الذي قال انه معه. وخاف أن يكون فيه بأس عليه اذ لا يبعد على الذي وشى بعبد الرحمن ان يشي بهم جميعاً فاسودت الدنيا في عينيه ولكنه صبر صبر الرجال وتجلد والتفت الى عبيد الله وهو يظهر الاستغراب مما اتفق للخليفة وقال « مهما يأمر سيدي فاني رهين اشارته »

(١) المسعودي ج٢

قال « لا اطلب منك شيئاً يسوءك باذن الله ولكنني احببت مصاهرتك فهل ترضاني لك صهراً ؟ »

فوقع ذلك الكلام في اذن عامر وقوع الصاعقة وارتبج عليه فلم يعلم بماذا يجيبه وهو لا يستطيع مجاهاته لانه في قبضة يده فاراد أن يحتال في جوابه. وقبل أن يبدأ بالكلام رأى ابن زياد قد وقف فجأة وهو ينظر الى البستان وتطاول بعنقه وعلته البغتة . فالتفت عامر فاذا بالخيول تتزاحم عند باب البستان وعليها الفرسان وفيهم يزيد بن معاوية . ثم رأوا يزيد ترجل وحده واقبل مسرعاً على قدميه نحو الدير كأنه يطارد شيئاً

فبغت الرئيس وأسرع الى باحة الدير وهو يتعثر باذياله حتى كاد يقع على السلم فرأى كلباً من كلاب الخليفة دخل الباحة وعليه الاطالس والاساور كما وصفه ابن زياد. فلما رآه الكلب مهرولا نحوه انحرف بمسيره الى جهة غرفة سلمى ووصل يزيد في اثناء ذلك وهرع في أثر الكلب لانه قد افتقده وهو مار بقرب الدير فلم يجده فعلم أنه دخل الدير . فجاء للقبض عليه بنفسه لانه كان يحبه وخصوصاً بعد أن بدا ما بدا من نباهته في ذلك اليوم

وكانت سلمى متكئة في غرفتها على عباءة و باب الغرفة مفتوح نصف فتحة ووجهها مكشوف وقد توسدت على جنبها واستقلت رأسها بكفها . وفي يدها الاخرى منديل تمسح به دموعها وهي غارقة في ظلمات الخيال تفكر بحبيبها وما هو فيه من الخطر الشديد وقد طال غيابه ولا تزال متطيرة مما شاهدته في ذلك الصباح . فغلب عليها البكاء واطلقت لعواطفها العنان حتى احمرت عيناها وتكسرت اهدابها وتوردت وجنتاها . وكان شعرها محلولاً فاسترسل بعضه على جبينها وتدلى البعض الآخر حتى غطى معصمها وانحسر كمها عن زندها فانكشف معظمه وعليه الوشم كدبيب النمل . وكانت لما طابت لها الخلوة تصورت حبيبها ساعة خروجه من الغرفة في صباح الامس فهاجت

عواطفها وابرقت عيناها فزادهما الدمع لمعاناً وازدادت هيبة وجمالا

وهي على تلك الحال سمعت خشخشة الاساور في قوائم الكلب ثم رأته داخلا غرفتها فتذكرت يزيد فاجفلت وتشاءمت وهمت بالقعود واذا بيزيد يركض في اثره ويناديه . فسمعت صوت يزيد قبل أن تراه فارتعدت فرائصها فمدت يدها الى النقاب لتستر رأسها به فلم تدركه فارسلت شعرها على وجهها . وقبل ان تستتر اطل يزيد ورآها فانذهل لرؤيتها ووقف مبهوتاً لا يدري مايقول وقد نسي الكلب واساوره

اما هي فغطت وجهها بكمها وغلب عليها الحياء والوجل وظلت جالسة لا تدري كيف تحتجب وداخلتها الدهشة فزادتها رونقا ومهابة فولت وجهها عرض الحائط وظهرها نحو يزيد

فلم يمالك يزيد عن الاعجاب بجمالها وهيبتها ولم يستطع غير الانعطاف اليها فناداها بنغمة المحب المفتون وقال لها « لاتحجبي شمس وجهك عن خلق الله يا أجمل خلق الله »

الفصل الثاني والثلاثون

خاطب آخر

فظلت هي صامتة وجمد الدم في عروقها من شدة الخجل فتحول يزيد من الغرفة وقد وقعت سلمى من نفسه موقعا عظيما . وكان عبيد الله بن زياد قد نزل الى الباحة والرئيس معه فرأى يزيد خارجاً من غرفة سلمى وامارات الاعجاب بادية على عينيه فشعر بغيرة شديدة ولكن الحسد غلب عليه لعلمه ان الخليفة اذا رآها واعجبته لا يبقى لعبيد الله سبيل اليها. فتجاهل عما ثار في خاطره وخاطب الخليفة على سبيل المزاح قائلا « ارى امير المؤمنين

مشغولا بكلبه بعد الطريدة التي اصطادها له في هذا الصباح

فقال يزيد وهو يحاول الابتسام « لكنه اصطاد لنا طريدة اخرى اجل من تلك فتضاعف فضله علينا »

فادرك ابن زياد تلميحه الى اعجابه بسلمى فازدادت غيرته ولكنه اضطر الى الكتمان وندم على امتداح نباهة ذلك الكلب ولعن الساعة التي جاء بها الى ذلك الدير ولكنه عمد الى المغالطة ونادى بعض الخدم فسلم اليه الكلب واستشار الخليفة في ما يراه من البقاء او الرحيل . فاشار بالرحيل والرئيس يرحب به ويستأذنه بالاستراحة بقية ذلك اليوم هناك فاجابه انه في حال يدعو الى سرعة الانطلاق ولكنه طلب الخلوة به فتبعه الرئيس على انفراد وظل ابن زياد واقفاً وعيناه تتبعان يزيد حتى توارى مع الرئيس وراء الصفصافة

فلما خلا يزيد بالرئيس سأله عن تلك الفتاة فاخبره انها ابنة تاجر قدم من العراق منذ بضعة أيام

فقال يزيد « هل هي عزبة »

« قال أظنها كذلك يا مولاي »

قال « حسنا » ولم يزد

وأمر يزيد فركبت حاشيته وركب هو وابن زياد معه وودعوا الرئيس وخرجوا وعامر لا يزال على السطح يختلس النظر الى حركات يزيد وقد رآه وراء الصفصافة مع الرئيس

فلما مضى يزيد ورجاله صعد الرئيس الى السطح ووجهه يبرق سروراً وفي وجهه ابتسامة استدل عامر منها على شيء في نفس الرئيس فتقدم اليه وملامح الاستفهام بادية على وجهه . وقبل ان يهم بالكلام ابتدره الرئيس قائلا

« اني ابشرك بالسعادة يا بني »

قال عامر « بماذا وكيف ؟ »

قال « لاني رأيت أمير المؤمنين معجبا بابنتك »

فشق ذلك على عامر وقال وهو يتظاهر بالسذاجة « وما الذي يترتب على ذلك من موجبات البشارة »

قال « قد لحظت من كلامه أنه يريد أن يسعدك بالمصاهرة »

فوقع ذلك الكلام على عامر وقوع البلاء العظيم ولم يفه بكلمة وتراكمت عليه الهواجس فلا يدري بماذا يفكر : أفي عبد الرحمن وقد وقع في الاسر أم في سلمى وهي اذا علمت بما أصاب حبيبها يئست من الحياة ـ ولا يزيدها خبر المصاهرة الا قنوطا . فلم يعد يعرف كيف يتخطى درجات السلم لشدة كدره

أما سلمى فحالما خرج يزيد من غرفتها اسرعت الى الباب فاغلقته ووقفت مبهوتة وهي تردد ما سمعته منه . وأدركت ما جال في خاطره عنها فوقعت في حيرة لا تدري ماذا تعمل ثم عاد خيال عبد الرحمن الى ذهنها فشغلت به عن كل هاجس وودت لقاء عامر لتستطلع ما علمه عن عبدالرحمن وحدثتها نفسها أن تخرج في طلبه على السطح ولكنها خافت أن يكون يزيد باقياً هناك فاحجمت

الفصل الثالث والثلاثون

صح صحيح

وهي تتردد في ذلك واذا بعامر قد فتح الباب ودخل فرآها في تلك الحال من القلق وأثر البكاء على عينيها والبغتة لا تزال غالبة على محياها فلم يدر كيف يخاطبها ولا عن أي شيء . وهي اولى بسؤاله عما جاء به من الخبر المحزن عن عبد الرحمن . فوقف لحظة لا يتكلم . وأدركت هي ما يعلوه من الكدر

فقالت « ما وراءك يا عماه »

قال « ما ورائي الا الخير ان شاء الله »

قالت « هل جاءت رسالة عبد الرحمن ... هل وصل اليك سهمه ؟ »

قال « نعم ولكنه وقع في قلبي »

فلحظت انه سمع شيئاً يسوءها فقالت « ما الخبر ... ابن عبدالرحمن... ماذا جرى له »

قال وهو يتلجلج بكلامه « لم يجر له شيء ولكن ... »

قالت « ولكن ماذا .. هل قتلوه ؟ » قالت ذلك وقد اختنق صوتها وسبقتها العبرات

قال « لا.. لم تصل يدهم الى ذلك ولكنهم أسروه »

فلطمت خدها حتى كادت تقطع أقراطها وقالت « ومن أسره وكيف؟ »

فجعل يخفف عنها وهو يقص عليها حديث ابن زياد ولم يذكر لها شيئاً مما كان قد بدأ به من أمر المصاهرة

ولما فرغ عامر من كلامه عادت سلمى الى البكاء وهي تقول « قبحهم الله انهم قبضوا عليه.. أرأيت تطيري في هذا الصباح وأنت لاتزال تغالطني ؟... هذا الذي خفته عليه ... فما العمل الآن »

فلبث عامر ساكتاً وقد استغرق في الافكار وبان استغراقه من تقطب حاجبيه وتثبت نظره . فابتدرته سلمى قائلة « قل يا عماه .. قل ما الرأي .. »

قال وهو يفرك لحيته بسبابته كأنه يهيء عبارة يخفف بها عنها «لا تعجلي يا سلمى . تمهلي واستعيني الله ولننظر في الامر على مهل »

قالت « كيف اتمهل وقد أسروا عبد الرحمن ولا أدري ما الذي يحدث له هناك » . قالت ذلك واجهشت بالبكاء

فتحير عامر في أمره وهو خائف اكثر من خوفها لما سمعه من حديث ابن زياد وطلبه سلمى . وحدثته نفسه أن يطلعها على ذلك ولكنه خاف أن يزداد قلقها فقال « لا يفيد التسرع ونحن الآن حوالي الغروب والليل أعمى لا نستطيع فيه عملاً ولا بد من الانتظار الى الغد . وغداً لناظره قريب »

قالت « انني خائفة من هذا الليل ... اني خائفة أن يصاب عبدالرحمن ببلاء مستعجل فلا يمهلونا لتدبير الحيلة والعياذ بالله »

قال « لا أظنهم يسرعون في اذاه ولا بد من أن يمهلوه حيناً يستفهمون به عن حاله و يستطلعون سبب تعمده قتل الخليفة وأرى أن انزل غداً باحمال التمر الى دمشق احتال بها على استطلاع الخبر وأعود اليك ونرى ما يكون »

قالت « لا بد من الانتظار اذاً ؟ .. فلنصبرن ان الله مع الصابرين »

الفصل الرابع والثلاثون

خاطب آخر

وقضيا تلك الليلة على مثل الجمر وسلمى لم تذق رقاداً وعامر يدبر الحيلة في كيفية استطلاع خبر عبد الرحمن

فلما أصبحا هيأ عامر جماله وتزيا بزي التجار وركب يلتمس دمشق وسلمى تدعو له بالتوفيق وقلبها يخفق خوفاً على عامر ايضاً لئلا يكون شمر قد دبر له مكيدة. ولما توارى عن نظرها عادت الى غرفتها واغلقت الباب وراءها واختلت بنفسها تذكرت حبيبها وما هو فيه من الخطر الشديد فهاجت أشجانها فأوغلت في البكاء

وفيما هي في ذلك سمعت وقع أقدام خارج غرفتها وصوتاً يشبه صوت

الرئيس ولم تكد تصيخ بسمعها حتى سمعت قرع الباب فاجابه قلبها بدقات متوالية ووقفت بلا انتباه ويدها اليسرى على خمارها تتأهب لارساله على رأسها اذا رأت في الباب رجلا غريباً

ولا تسل عن اضطرابها ووجلها لما فتحت الباب ورأت الرئيس وشمر ابن ذي الجوشن معه وقد تزيا بافخر ملابسه وتطيب باحسن طيبه وأصلح نفسه كأنه يستعد للقاء عروسه . فلما رأت برصه ارتعدت فرائصها وحدثتها نفسها أن تبتدره باللعن والتوبيخ ولكنها خافت الفضيحة وهي منفردة هناك فتجلدت وهي لا تمالك عن الارتعاش

أما الرئيس فلما رأى سلمى وحدها قال لها « اين والدك »

قالت « أظنه ذهب الى دمشق باحمال التمر في هذا الصباح وما الذي تريده منه ؟ »

قال « ان مولانا الخليفة بعث اليه بهذا الامير لمخابرته في شأن »

فلما سمعت اسم الخليفة ورسالته خافت مما وراء تلك الرسالة ولكنها امسكت عواطفها واجابته بهدو وسكينة « ان والدي ليس هنا الآن » قالت ذلك وهي ترجو ان ينصرف شمر بهذا الجواب

فابتسم شمر وهو يحاول ان يتظاهر بالرزانة والاستخفاف معاً وقال « لا بأس من غيابه فاني مكلف بتأدية هذه الرسالة اما له واما لك »

قال ذلك ودخل الغرفة فتحول الرئيس راجعاً

واما سلمى فظلت واقفة وقد اصطكت ركبتاها واقشعر بدنها وخافت ان يبدو ذلك الاضطراب على وجهها فبالغت في ارخاء النقاب عليه ولم تكشف منه الا عينيها . ولكن شمر قرأ على تينك العينين امارات الخوف والوجل . فلما خلا بها تظاهر باللطف وقال لها « لا تخافي يا سيدتي فلا تخافي بي سوءاً ولكني أرجو ان تعرفي هذا الوجه » وقبض على لحيته

فقالت « وما الذي يترتب على معرفتي ذلك »

قال « اذا عرفته عرفت اني جاركم القديم واني من اصدقاء والدك او كفيلك عامر ... » قال ذلك وهو يحاول الابتسام

فعلمت انه يهددها بمعرفته سر وجودها هناك وتحققت الغدر في وجهه وندمت على ارسال عامر وانفرادها . ولكنها لما تذكرت ما ارتكبه ذلك الابرص من الوشاية بعبدالرحمن هان عليها كل صعب وعولت على الاستقتال في سبيل شفاء غليلها منه فقالت «واذا كنت جارنا فما الذي يهمك من امرنا»

قال« ما بالك تخاطبيني بالجفاء يا سيدة الملاح وانا انما جئت لاستعطافك فلا تجزعي »

فادركت ما وراء ذلك اللطف وسكتت وقد صعد الدم الى رأسها فتحول وجلها الى غضب وقالت « عهدتك جئت لمخاطبة والدي وهو غائب فاذا جاء خاطبه »

قال « وماذا يفيدني خطابه اذ لم تكوني انت راضية »

قالت « اراك تلمح بما لا يليق بك بين يدي فتاة لا تعرفك »

قال وهو يظهر الاستخفاف « كيف تقولين انك لا تعرفينني وانا اعتقد غير ذلك ام انت لا تزالين مغرورة بذلك الولد الجاهل »

الفصل الخامس والثلاثون

الاعراض والجفاء

فلم تعد سلمى تستطيع صبراً على تلك الوقاحة وأعملت فكرتها في ما تستطيعه حينئذ فرأت نفسها ضعيفة منفردة غريبة والخليفة وأعوانه وكل أهل الشام ضدها وحياتها وموتها بين شفتي ذلك الرجل . فاحست ان الجبال

تراكمت على صدرها فتساقطت دموعها بالرغم عنها فحوات وجهها لئلا يلحظ شمر ذلك فيها فيزداد طمعه بها

اما هو فلما رآها تبكي استسهل استرضاءها فعمد الى الملاينة فتقدم نحوها وقال بصوت ضعيف «لا تبكي يا سلمى ولا تخافي فاني مع علمي بكل اسرارك واسرار عامر وعبد الرحمن لا أنوي بك شراً بل انا نصيرك وعونك حتى تخرجي من هذه الديار آمنة على شرط ان تجيبي سؤال قلبي وترحمي محباً قطع البراري والقفار سعياً اليك فارحمي قلب هذا العاشق الولهان واتركي من بالك مجاراة الغلمان الذين يسوقون الموت الى انفسهم بجهلهم وغباوتهم كما فعل ابن عمك عبدالرحمن الذي أغواك بشقشقة لسانه حتى وقع أسيراً وسيق الى السجن مغلولاً ولو أردت ان أسوقك واسوق عامراً الى ذلك الاسر لفعلت . ولكن قلبي لم يطاوعني لاني احبك واذا اطعتني ورضيت بما اطلبه منك عشت معي سعيدة آمنة لان ما تسعون في نيله انما هو اضغاث احلام ونحن الآن أهل الصولة والبطش وخليفتنا صاحب السلطان والاعوان . فما قولك ؟ »

وكان شمر يتكلم وينظر الى وجهها من وراء النقاب وهي معرضة عنه ملتفتة الى الحائط وفرائصها ترتعد وقد جمد الدمع في عينيها واحتارت في امرها فظلت صامتة

فاستبشر شمر وظن السكوت جواباً فاعاد الكرة وقال « اني والله ليعجبني تعقلك وسداد رأيك فافصحي لي عن رضاك وهذا يكفيني الآن »

فلم تعد سلمى تصبر عن الجواب فحوات وجهها اليه وقالت « انك طامع بامر بعيد عن بالك فانصرف من هنا بسلام »

فضحك وقال «الى اين انصرف يا سلمى ... أأنصرف الى أمير المؤمنين فاطلعه على حالك فيصيبك ما اصاب ابن عمك . ؟ » واظنك لم تفهمي مغزى كلامي بعد ... فاقول لك بصريح العبارة أن عبد الرحمن أصبح في قبضتنا

ولم يبق له مطمع بالحياة فاستبقي نفسك وعامراً . والا فان الموت أقرب اليكما من حبل الوريد ... » قال ذلك والخبث يتجلى في وجهه

فابتدرته سلمى قائلة « خسئت يا نذل الرجال ان باعك وباع يزيد اقصر من أن تنالا شعرة من عبد الرحمن »

فضحك شمر ضحكة طويلة وقال « صدقت اننا قاصرون عنكما كأنك لم تفهمي قولي بعد . . . ألم تفهمي ان عبد الرحمن اسير عندنا وقد قبضنا عليه وهو يحاول قتل امير المؤمنين فمن اين تأتيه الحياة بعد ... اقلعي عن عنادك واطيعي ناصحاً يعرض عليك السعادة فاذا رفضتها اذاقك الموت الزؤام »

قالت « لا تحسبني جاهلة ما تقوله فقد علمت ان عبد الرحمن اسير وانك انت وشيت به وانك قادر ان تشي بي ايضاً وتميتنا معاً وقد فهمت كل ذلك فياحبذا الموت مع عبد الرحمن ولا الحياة معك يا خائن . . . قلت لك امض واختف وافعل ما تشاء . والموت اهون ما تخوفني به وهو احب اليَّ من قربك . فاذا بعدت عن وجهي لا ابالي حييت او مت »

فوقع ذلك التقريع موقع السهام في قلبه ولكنه كان شديد الولع بسلمى منذ كانت في العراق وهو انما لحق بهم الى الشام واوقع بعبد الرحمن طمعاً بالحصول عليها لأنه لم يكن يجسر على طلبها وعبد الرحمن باق . فلما أوقعه في الاسر ظنها تيأس من حياته وتخاف على حياتها فترضى به . وكان يريد مخاطبة عامر بشأنها ويهدده فلما لم يره هناك خاطبها وعجب لجسارتها وعزة نفسها وهان عليه ما سمعه من التوبيخ وعزم على استرضائها باية وسيلة كانت

فقال « يا للعجب من جهالتك وقد كنت أحسبك عاقلة فاذا أنت حمقاء مغرورة ولكنني اعرض عليك الحياة مرة أخرى فاذا رفضتها كان ذلك امر العهد بك ... »

قالت « امض وافعل ما تشاء .. اخرج من هنا وقل ما تقول . .. . »

فخرج شمر والغضب ظاهر على وجهه وحركاته وهو يلعن سلمى ويتوعدها ولكن قلبه لم يطاوعه عليها . فصبر نفسه ريثما يرى عامراً و يسترضيه بالوعيد والتهديد فيقنعها

أما سلمى فاقفلت الباب وراءه واطلقت لنفسها عنان البكاء وجلست تبكي حبيبها وتندب سوء حظها وتفكر في حالها وقد أيقنت بالهلاك . حتى اذا كات من البكاء والنحيب استرجعت رشدها وأعملت فكرتها فلم تر خيراً من تربصها حتى يرجع عامر فتستشيره في الخروج من هذا الدير والاختفاء في مكان آخر ريثما ينفتح باب الفرج

الفصل السادس والثلاثون

العزم على الرحيل

ومضى معظم ذلك النهار وهي بين بكاء وتأمل لاتفتكر بطعام ولا شراب. حتى اذا مالت الشمس نحو الاصيل سمعت خطوات مسرعة امام باب الغرفة فخفق قلبها ثم رأت الباب قد فتح ودخل عامر وعلى وجهه ظواهر الدهشة فازداد اضطرابها وقالت « خبر بما سمعت »

قال « ما سمعت الا خيراً وأنت ما بالك في هذه الحال هل جاءك أحد بخبر جديد

قالت « كيف تسألني عن حالي وأنت تعلم أن عبد الرحمن مسجون فهل أضحك والعب . هل علمت شيئاً من خبره وما سبب اضطرابك قل لي حالا .. قل .. »

قال « اما عبد الرحمن فقد علمت انه حي في سجنه ولا خوف عليه

الآن . واما سبب اضطرابي فاني رأيت جواداً واقفاً بباب الدير موسوماً بلفظ « عدة » [1] فعلمت انه من خيل الحكومة وخفت أن يكون قد جاءنا أحد من رجال يزيد يريد بنا سوءاً لاني صرت أحسب اشجار هذه الغوطة عيوناً علينا »

فقالت « لقد نطقت بالصواب وانا أيضاً أرى رأيك فهل توافقني على الخروج من هذا الدير والاختفاء في مكان آخر »

قال « نعم ولكنني اخاف اذا خرجنا الساعة ان يكون صاحب ذلك الفرس يترصدنا فلنصبر هنيهة »

فتذكرت سلمى حديث شمر فقالت « وربما كان هذا الفرس لذلك الرجل الابرص »

قال « وما شأنه هل جاء الى هذا الدير اليوم ... »

قالت « نعم جاء وتطاول الى ما يقصر بنو أمية جميعهم عن نيله »

فتعجب عامر وقال « وما تعنين ... هل رأيته وهل خاطبك ؟ »

قالت « انه جاء بعد خروجك في هذا الصباح وجعل يستعطفني ويسترضيني . ولما لم يسمع غير الاعراض خرج مغضباً وهددني بالوشاية الى خليفته وما زلت منذ خرج وانا أفكر في حالنا وانفرادنا في هذه الديار بعد افتضاح امرنا فلم أرَ خيراً من الخروج سريعا »

فصفق عامر يداً بيد وقال « تبا لك يا شمر يا غادر . . . اظنه لا يصبر عن الوشاية بنا الى الغد ... ألم يكن من الحكمة ياسلمى أن تماطليه وتدافعيه ولو بالباطل ريثما نخرج من هذا المكان ؟ . . . وانت تعلمين ان قيادنا في يديه وهو وحده العالم بحقيقة حالنا ... صبراً جميلا ... »

فقطعت سلمى كلامه قائلة « لا تلمني يا عماه فاني لم أستطع صبراً عن

(١) العقد الفريد

تو بيخه ورده ولم أعد اريد الحياة بعد ما أصابنا ... » قالت ذلك وخنقتها العبرات فسكتت وأغرورقت عيناها بالدموع

فندم عامر على ما بدا من لومه وقال « اني لا ألومك يا سلمى وربما لو كنت انا في مكانك لم اقابله باخف من ذلك . على اني لا اخفي عنك أمراً يشبه هذا وقع لي بالامس مع ابن زياد ولم اطلعك عليه بعد »

قالت « وما ذاك »

فقص عليها خطبة ابن زياد لها الى أن قال « وانا دافعته يومئذ خوفاً من غضبه ... والآن لم يبق لنا الا الاستعداد . فقد بعت الجمال والاحمال وخفت أمتعتنا ولم يبق لنا ما نحمله غير هذه الثياب »

قال ذلك وأخذ في جمع الثياب وحزمها . ولم يكد يفعل ذلك حتى سمع رئيس الدير يناديه باسمه . فاجفل وتحول الى الباب ففتحه وتطلع فرأى الرئيس واقفاً تحت الصفصافة وامارات البشر على محياه . فلما وقعت عينه على عامر أومأ اليه باصبعه أن يأتي اليه ولم يكلمه

الفصل السابع والثلاثون

القول الفصل

فاستبشر عامر بوجه الرئيس وذهب عنه اضطرابه واستأذن سلمى بالخروج الى الرئيس واخبرها بانه يدعوه اليه وخرج على عجل . وقبل أن يصل اليه تحول الرئيس نحو السلم المؤدية الى السطح وهو يومي اليه أن يتبعه فسار في أثره حتى صعد الى السطح وتحولا الى غرفة الرئيس . فاذا هنالك عبيد الله بن زياد قاعداً على وسادة مشاة فوق البساط . فلم يتمالك عامر عن الانقباض وأوجس خيفة من قدومه وتيقن انه انما جاء خاطباً . ولكنه تجلد وتظاهر

بالبشاشة والارتياح فوقف له ابن زياد ورحب به وأجلسه الى جانبه وجلس الرئيس على جانب البساط بقرب الباب

فلما استقر بهم الجلوس قال عامر « كيف أصبح مولانا أمير المؤمنين اليوم »

قال « أصبح في خير وقد كلفني ان أحمل اليكم بشرى أظنها تسركم وان كانت بالحقيقة لا تسرني »

فسكت عامر ثم أدرك ان سكوته يعدّ احتقاراً لانعام الخليفة فقال « اننا جند أمير المؤمنين نأتمر بأمره

قال « أنت تعلم ما في نفسي من أمر ابنتك وما خاطبتك به بالامس . ألا تذكر ذلك ؟ »

قال « بلى يامولاي »

قال « وقد كان في نيتي ان أعود اليك مرة أخرى فسبقني أمير المؤمنين . لانه شاهد ابنتك بطريق الاتفاق ووقعت من نفسه موقعاً حسناً فأحب ان يسعدك بالمصاهرة على أن تكون ابنتك من بعض نسائه »

فوقع ذلك الكلام في أذن عامر وقوع السهم في قلبه وتلعثم لسانه وظهرت الحيرة على محياه فظل ساكتا

فلم يخطر ببال ابن زياد أن عامراً يتردد في الجواب ولكنه حسبه بغت لحصوله على نعمة لم يكن يتوقعها . فاعاد عبارته ونمقها فقال « ولو لم يسبقني أمير المؤمنين الى ذلك لكنت أحسبني سعيداً بمصاهرتك . ولكن أمره فرض متبع فأهنئك بهذه النعمة التي يغبطك عليها كثيرون لما ستناله بهذه المصاهرة من أسباب السعادة »

فلم يزدد عامر بذلك الايضاح الا ارتباكا . وحدثته نفسه أن يعتذر بخطبة سلمى لشاب آخر ولكنه خاف ان يسأله عن ذلك الخطيب وهو لا يقدر

على التصريح باسمه ولا ان ينتحل اسم أحد سواه لانه لا يعرف من يسلم اليه سره في تلك الديار . فلم يستطع غير التظاهر بالقبول واسداء الشكر ريثما يدبر حيلة للفرار فقال وهو يحاول الابتسام « اني اعد نفسي أسعد الناس بهذه الامنية . لان التقرب من أمير المؤمنين شرف وسعادة . وما ابنتي الا جارية من جواريه . ولكنني أرغب الى مولاي ان يمهلنا يوما أو يومين ريثما نتأهب لحمل الفتاة الى دار الخليفة . لانها ستتلقى الخبر بالدهشة لبعد هذه النعمة عن خاطرها لا سيما وقد أصبحت اليوم منحرفة المزاج »

فقال ابن زياد « لا أظن الخليفة الا راضيا بما ترتاح اليه عروسه. واذا استعجل في الامر فانما يكون استعجاله عن رغبة في سرعة استقدامها اليه فيرسل اليها من يكون بخدمتها حتى تصل داره في أمن وراحة »

فسكت عامر . فحمل ابن زياد سكوته على الرضا . ثم نهض فنهض الرئيس وعامر فودعهما وخرج

الفصل الثامن والثلاثون

انقلاب غريب

اما عامر فأسرع الى سلمى ليرى رأيها في هذا الامر الجديد . وكان صبرها قد نفد في انتظاره . فلما أطل عليها وشاهدت البغتة على وجهه اوجست خيفة وابتدرته بالسؤال فقال لها « هلمي بنا الى الفرار فاني لا أرى فرجاً الا به »

قالت « ولماذا ؟ وما الذي حدث ؟ »

قال « اننا وقعنا في مشكل أعظم مما كنا نخافه »

قالت « وما ذلك »

فقص عليها حديث ابن زياد كما وقع . وكان يتكلم وهو يتوقع ان يرى

اجفالها فاذا هي قد ابرقت اسرتها واشرق وجهها وزال غضبها ولم تجب

فقال « ما رأيك يا سلمى ألا ترين ان نسرع في الفرار »

قالت « ولماذا الفرار ؟ »

فاستغرب سؤالها وقال « وما هذا السؤال . . . ألا نفر من هذه الهوة »

قالت « أتحسب الاقتران بالخليفة هوة » وضحكت

فازداد استغراباً ولكنه حسبها تمزح فقال لها « صدقت ان الاقتران بالخلفاء سعادة ! هيا بنا نحمل امتعتنا ونتصرف قبل ان تداهمنا تلك السعادة »

فقالت « كيف نفر من سعادة يتمناها كل انسان. ألعلك تحسبني أمزح؟ »

قال « لا اشك بانك تمزحين »

قالت « كلا اني انما اقول الجد . ومتى رأيتني مزفوفة الى الخليفة تتحقق هزلي من جدي »

فلم يصدق قولها وما زال يحسبها تعبث به فقال « دعينا من المجون الآن فان الوقت قصير .. هلم بنا نرحل . وأرى ان يخرج كل منا على حدته خلسة . واذا رأينا حمل الامتعة يدعو الى شبهة خرجنا بدونها »

قالت « اذا شئت الخروج فاخرج وأما أنا فاني أنتظر وفد الخليفة لأسير اليه »

فقال « قلت لك دعينا من المجون يا سلمى فليس هذا وقته »

قالت والجد باد على وجهها « قلت لك اني غير ماجنة ولا اقول غير الجد وأنا باقية هنا حتى يحملوني الى دار الخليفة واذا ساءك ذلك فابق حيثما تشاء »

فقال وقد مل من اصرارها على ذلك « اذا كنت تقولين الجد فما معك والا فما الذي تعنينه ؟ »

فقالت « كن حيث شئت فاني اعني ما اقول .. »

قال « أتعنين ان تقبلي يزيد زوجاً لك ؟ »

قالت « لا تقل يزيد بل قل امير المؤمنين »

فانذهل عامر وظل نفسه في حلم وكان وهو يخاطبها قد همّ بجمع الامتعة فلما سمع كلامها ترك ما كان بيده من الثياب ووقف واسند ظهره الى الحائط ولبث مبهوتا لا يبدي حراكاً وهو يعجب لما سمعه من سلمى وقال في نفسه « لقد صدق من قال ان النساء ضعيفات العقول . ان هذه الفتاة نسيت ابن عمها بعد ان كانت تتظاهر بالاستهلاك في حبه ورضيت رجلا كان السبب في القبض عليه وربما يقتله . . . الله يا عبد الرحمن . ثم نظر الى سلمى وتأمل في حالها فاذا هي جالسة لا تعبأ بغضبه فقال لها « يا سلمى »

قالت « نعم »

قال « أأنت بنت حجر بن عدي »

قالت « لا ادري »

قال « ألم نكن بالامس نبكي والدك تحت تلك الجميزة . ألم نتعاهد على الاخذ بثأره . هل نسيت موقف عبد الرحمن والخنجر بيده ؟ أنسيت عبد الرحمن ابن عمك وخطيبك ؟ نسيته لانه وقع في ضيق ويئست من حياته ؟ وطمعت بالقرب من الخليفة ابن قاتل ابيك .... اعوذ بالله ما الذي أراه ؟ أفي حلم أنا أم في يقظة ؟ ... »

فقالت بصوت هادىء لا يكدره اضطراب وهي مطرقة « لا بل أنت في يقظة »

الفصل التاسع والثلاثون

الحيرة

فلما سمع هذا الاصرار تصاعد الدم الى رأسه وتصور فشله مع ما عاينه من الانقلاب . فتناثر الدمع من عينيه وهو يحاذر ان تلحظ سلمى ذلك فيه فتنسبه الى الضعف . فتحول وخرج من الغرفة وهو لا يدري ماذا يفعل ولا الى اين يذهب . ولم يصل الى الصفصافة حتى لقيه الرئيس . فلم ينتبه عامر حتى خاطبه الرئيس وسأله عما كان من خاطر سلمى . فلم يدر بماذا يجيبه لئلا يدرك كدره فيستطلع شيئا من سره فتحير في امره وخاف افتضاح سره فتجلد وحاول الابتسام غصبا وقال « لا ريب في انها ترتاح الى هذه السعادة » قال ذلك وتظاهر بأمر طرأ على ذهنه يدعو الى سرعة الرجوع . فاستأذنه وعاد حتى أتى باب الغرفة وهو لا يلتمسه فأراد التحول عنه فوقعت عيناه على سلمى فاذا هي مشتغلة في شيء تحاول دسه في جيبها ولما رأت عامراً بادرت الى الباب فأغلقته في وجهه ثم اوصدته

فلما رأى تسترها منه الى هذا الحد داخله ريب من أمرها ولبث واقفا بالباب وهو لا يفهم سر هذه الظواهر الغريبة . فلم تطاوعه نفسه على طرق هذا الباب لكنه احب العزلة برهة لعله اذا خلا بنفسه ينكشف له سبب من الاسباب . فانقلب راجعا حتى خرج من باب الدير ومشى في البستان حتى تجاوزه وهو غارق في بحار الهواجس لا يدري الى أين تسير به قدماه

وما شعر الا وهو على مقربة من الجبانة ولما وقع بصره على قبر حجر اختلج قلبه في صدره اذ تذكره ليلتهم على ذلك القبر . فتاقت نفسه الى البكاء فوق ترابه لعل هاتفا ينبئه بحقيقة ما يبدو له من الغرائب . وفيما هو يفكر في ذلك خطر بباله الشيخ الناسك فقال في نفسه « يا ليتني القاه واستطلعه سر

هذا الامر ولا شك في انه يفرج همي » ولم يكد يفكر في ذلك حتى رأى شيبو باً خارج من وراء الجميزة وهو يثب على جذعها كأنه يحاول الصعود اليها فأراد عامر ان يناديه فسبقه بصره الى أعلى الجميزة فرأى شيخاً متكئاً على بعض اغصانها فتفرس فيه فاذا هو الشيخ الناسك بعينه . فاجفل عامر وعجب لمقام ذلك الرجل هناك وتذكر ما ظهر منه من الغرائب السابقة ولكنه ارتاح لتلك الصدفة لالتقائه به في ذلك المكان وقبل ان يهم بمخاطبته رآه يتحرك فتربص ليرى مايبدو منه فاذا هو ينحدر نازلا باسهل مايكون . فظل عامر واقفاً حتى وصل الناسك الى الارض والكلب يحوم حوله ويثب على يديه ورجليه كأنه يرحب به

وكان الناسك قبل ان يصل الى الارض قد ارسل شعر ناصيته على جبينه وعينيه فغطى ما بقي من سحنته خالياً من الشعر الا رأس أنفه وصاح قائلا « لقد قضي الامر يا عامر ولكن لا تجزع فانهم لن يقتلوه على عجل » فارتعدت فرائص عامر واقشعر بدنه وهمّ بيد الشيخ ليقبلها فأمسك الشيخ يده بيده وكلاهما ترتعشان وقال « تجلد يا عامر وكن رجلا ... »

فامسك عامر ارتعاده وارتاحت نفسه الى مكاشفته بحال سلمى فقال « أني لا اجزع على عبد الرحمن ولكنني خائف على سلمى »

قال « وما الذي يخيفك عليها »

قال « لقد طلبها يزيد لتكون زوجاً له فقبلت بالرغم مني ... »

فارخى الشيخ يده فافلتت يد عامر منها ولبث كلاهما صامتين برهة وعامر ينظر ما يبدو من كرامات الشيخ وقلبه يخفق فاذا بالشيخ قد جلس واسند ظهره الى الجميزة وهو يحك رأسه باطراف اظافره كأنه يفكر في امر . ثم قال « وأي بأس عليها من ذلك القبول »

قال عامر «ألا ترى بأساً عليها ياسيدي ؟ وهب انها لا بأس عليها فكيف

تقبل هي بهذا الامر »

فضحك الشيخ حتى بدت نواجذه وقال « لا بد لهـا من خير ترجوه بذلك فلا تزجرها »

فتعجب عامر وقال « هب انها ترجو خيراً ولكن كيف يطاوعها قلبها على ذلك ؟ كيف تخون خطيبها وابن عمها وترضى بذلك الاموي بدلا منه ؟ . . .

فقال الشيخ « تأدب يا عامر ان ابنة حجر بن عدي لا تخون . وهي لم تأت الشام وتتكبد مشاق الاسفار وتتحمل خطر هذا المقام لتخون قلبها وتغدر بابن عمها »

قال عامر « ولـكنها قد فعلت يا مولاي . . وها انها مستعدة للذهاب الى يزيد »

قال « دعها تذهب واظهر لها رضاك بذهابها وانظر ما يبدو منها »

الفصل الاربعون

عودٌ الى سلمى

فانذهل عامر لتلك المعميات ولم يرد الالحاح في الاستفهام لئلا يغضب الناسك ولكنه استحسن رأيه في مسايرتها ليستطلع ما يكنه ضميرها وتظاهر برغبته في الانصراف اليها فابتدره قائلا « اذهب اليها على عجل »

فنهض عامر وتحول وهو يتعثر باذياله لفرط انذهاله من غرائب ما مر به في ذلك اليوم حتى أتى الغرفة . فرأى الباب لا يزال موصداً فطرقه وصبر فلم يجبه أحد فألح في قرعه ففتحته سلمى وتحولت الى حصير جلست عليه وهي مطرقة . فدخل عامر واقفل الباب وراءه ونظر في وجه سلمى فرأى الـكآبة بادية عليه وكانها كانت تبكي فقال لها « ألعلك لا تزالين على عهدك يا بنية »

فاشارت برأسها ان « نعم »

فقال « لقد فكرت في أمرك بعد خروجي من عندك فرأيت رأيك مصيباً لاننا لا نستطيع الفرار الآن وعلينا الارصاد والعيون من كل ناحية . وزد على ذلك أن تقربنا من الخليفة سعادة كبرى ربما عادت علينا بالخير »

فرفعت بصرها اليه وتفرست في وجهه هنيهة ثم قالت « يظهر أنك تريد الذهاب معي »

قال « وكيف لا ؟ »

قالت « لا .. لا تذهب معي ... »

قال « كيف لا أذهب معك والى اين اذهب ؟ »

قالت «لا أدري الى اين تذهب ولكني لا أريد أن يذهب معي أحد »

قال « كيف يا مولاتي . . . اذا كنت تعدين اقترانك بالخليفة سعادة فلماذا تريدين حرماني منها . وأرجو اذا صرت أنت زوج امير المؤمنين ان تساعديني على اطلاق سراح عبد الرحمن لانك ستتسلطين على قلب الخليفة ولا أظنه اذا طلبت اطلاق سراح ابن عمك الا فاعلاً ما تريدين . وربما توسلنا بواسطتك الى مناصب رفيعة » قال ذلك وهو يراقب ما يبدو منها وعيناه شاخصتان اليها

أما سلمى فلما سمعت كلامه شخصت ببصرها اليه وهي تشك في صدق مراده ثم قالت « أصحيح ما تقوله ياعماه .. هل رأيت ان تطاوعني في الذهاب الى الخليفة . اقسم بعبد الرحمن انك تسمح لي بذلك »

قال « نعم يا سلمى انه صحيح لا ريب فيه واقسم لك به »

قالت « فاطعني اذاً ودعني أذهب وحدي »

قال « ولماذا ذلك . . . اني لاعجب من أمرك . أكلما جاريناك في

غريبة أتيتنا بغريبة أخرى . ان السر في تمنعك من ذهابي معك أغرب من السر في قبولك بالذهاب . ما هذا يا سلمى ؟ » قال ذلك والاستغراب باد في عينيه . ولكنه لم يكد يتم قوله حتى رأى سحنة سلمى تبدلت من الكآبة الى الغضب فتقطب حاجباها وتوقدت عيناها وقد زادهما الاحمرار حنقاً وتعاظمت هيبتها حتى لم يعد عامر يستطيع النظر اليها وخاف مما وراء ذلك . أما هي فوقفت بغتة وقوف الاسد وتحولت حركاتها الى الخفة والشدة كأنها من أقوى الرجال وقالت « اتظنني ذاهبة للاقتران بيزيد ؟ »

قال « ولماذا اذاً »

فمدت يدها الى جيبها واستلت خنجراً كانت قد خبأته هناك وقالت « اني ذاهبة لاقتله بحد هذا الخنجر »

فاجفل عامر وغلب عليه الاستغراب لما ظهر من شجاعة سلمى وقال « كيف تفعلين ذلك يا سلمى ... كيف تطلبين مني ان ارضى معك بذلك ونحن لا نزال نشكو من تهور عبد الرحمن لانه ساقه الى خطر القتل فتسوقين نفسك الى تهور ابلغ منه ؟ »

الفصل الحادي والاربعون

القول الفصل

فقالت وقد هاجت عواطفها « أتعلم ان عبد الرحمن هناك تحت خطر القتل وتمنعني من الذهاب اليه ؟ . . . وتلومني لرغبتي في اللحاق به . فاذا لم ابادر اليه فماذا افعل ؟ أيدعوننا يزيد أن نسير اليه ونملك رقبته بالقرب من سجينه ولا نرضى نعم انني عددت عمل عبدالرحمن تهوراً لانه لم يرج الاقتراب من يزيد وحواله الخدم والاعوان . ولكن يزيد يدعوني اليوم لاكون معه

في فراشه وهي فرصة ينبغي أن لا اضيعها . أم تريد يا عامر ان اخاف على حياتي وعبد الرحمن تحت خطر القتل .. في قبضة ذلك الرجل . آه ...دعني أذهبْ اليه فأما ان اخلص حبيبي ومنتهى أملي واقتل يزيد وانقذ الاسلام من شره وانتقم لوالدي . واما ان أموت فداء عن حبيبي وينجو هو . أو ان نموت جميعاً ... فلا تقف في سبيلي . اني ذاهبة الى يزيد رضيت أم لم ترض ولولا خوفي من هذا الاعتراف لـكاشفتك بغرضي من بادىء الرأي . . . فلا تقف في سبيلي » قالت ذلك وقد تغيرت هيأتها من شدة الهياج

فلم يزدد عامر الا استغراباً ودهشة وظل برهة صامتاً متحيراً ثم قال« فاذا كنت ترين الموت هيناً عليك في سبيل عبد الرحمن فما الفائدة من بقائي وانا انما عشت لاجل راحتكما · فارفقي بي ودعيني أسير في خدمتك فاما ان نموت جميعاً واما ان نحيا جميعا ... أم انت تحسبينني جباناً ؟ »

فلما سمعت قوله امسكت نفسها وتجلدت وحاولت السكينـة وقالت « حاشا يا عماه ان اظن بك الجبن ولـكن لا فائدة من ذهابك ... » وكانها كانت تهم بان تقول شيئاً وأمسكت نفسها

فابتـدرها قائلاً « كيف لا يكون في ذهابي فائدة .. فهل الفائدة اذاً ببقائي هنا ؟ »

قالت « نعم يا سيدي ارعني سمعك ... وتبصر في قولي .. اذا ذهبت انت معي كنا جميعاً تحت خطر الاسر والقتـل . واذا لم افز انا بقتل يزيد وحكم عليّ بالموت يحكم عليـك انت ايضاً بمثله فمن يسعى بعد ذلك في انقاذ عبـد الرحمن . واما اذا كنت انت خارجاً وقدر عليّ بالموت ظللت انت مطلوق السراح فنسعى في انقاذ حبيبي عبـد الرحمن ... واذا تمكنت من ذلك، واقيته [illegible] عني [illegible] ان علي فضلت الموت، في [illegible] حبك على البقاء بعدك واذا بقيت انت حياً فان عظامها تبلى في اعماق القبر »

قالت ذلك وخنقتها العبرات وغلب عليها الهيام فجلست وقد خارت قواها ووقع الخنجر من يدها . فانتبهت لنفسها فاسترجعت رشدها والتقطت الخنجر من الارض وقربته من فمها فقبلته وهي تقول بصوت مختنق « ان فيك آمالي وعليك متكلي فاما ان تغمد في أحشاء يزيد أو في احشائي ... ويا حبذا هذا اذا كان فيه نجاة مالك فؤادي ... » ثم اغمدت الخنجر وارجعته الى جيبها وجلست وقد تكسرت اهدابها من فرط البكاء وهما تتقدان شجاعة وثباتاً

الفصل الثاني والاربعون

الوصية

فلما عاين منها عامر ذلك تضاعف اعجابه بشهامتها ولكنه ازداد حيرة ولم يعد يعلم بماذا يدافعها . فاطرق واعمل فكرته فلم ير مندوحة عن اجابتها . ولما تصور مقدار ما يهددها من الخطر هناك تحقق أنها ملقية بنفسها الى التهلكة وهو مع ذلك لا يرجو انقاذ عبد الرحمن فقال لها « وما قولك اذا حكم القضاء بقتلك وقتل عبد الرحمن هل من فائدة ببقائي »

قالت « اوصيك اذا حكم القضاء بذلك أن تقضي بقية حياتك فوق قبر والدي تبكيه عني وعن عبد الرحمن واذا ملكت رشدك فاذهب الى الامام الحسين سيد شباب المسلمين وجاهد معه في سبيل نصرة الحق لعل الله أن يأتيه بالفرج بعدنا »

فلم ير عامر بداً من السكوت بالرغم عنه وقال « لقد غلبتني يا سلمى بشهامتك وسددت عليَّ السبل بحجتك فها اني فاعل ما تأمرين والله حسبي ونعم الوكيل »

فلما سمعت قوله قالت « ولكن احذر يا عماه ان تبقى في هذا الدير لانهم اذا عرفوا من انا لا آمن ان يبعث يزيد اليك بجند يقبضون عليك على حين غفلة »

فقال « لقد اصبت ولا فائدة من بقائي هنا وأنت في قصر الخليفة ولكنني سأتنكر وادخل دمشق لاتنسم الاخبار. واوصيك أن تدبري امرك بالتأني والحيلة عسى أن يوفقك الله الى ما فيه الخير »

قالت « ليطمئن بالك عليّ ولا تعبأ بما تراه فيَّ الآن من ظواهر الحدة وتذكر كيف رأيتني لما اتيتني بخبر يزيد . ألم ترَ فيَّ دهاء ؟ »

قال « اني والله معجب بثبات جأشك يا سلمى ولكنني أخاف عليك ... قال ذلك وشرق بدموعه

قالت « كن ثابتاً مثلي على الاقل وأنا فتاة وأنت كهل عركه الدهر . ولا يخفى عليك أننا نهضنا لعمل كبير اذا فزنا فيه كان خيراً وسعادة لسائر المسلمين . أفلا يليق بنا أن نعرض انفسنا لخطر مثل هذا للحصول عليه »

فجثا عامر على ركبتيه ورفع يده ونظر الى فوق وقال « اني استودعك اللهم وديعة أودعنيها عبدك حجر بن عدي شهيد الحق ونصير صاحب الحق فلا تفجعني بها أنك فاحص القلوب وعالم بما وراء حجب الغيب »

ثم نهض ونهضت سلمى وقد سكن روعها هنيهة على أثر تلك العزيمة لكن عامراً عاد الى القلق حالاً وأما سلمى فانها ارتاحت لما تم لها أمر الذهاب وحدها وهي تتعزى بما عولت عليه من الاستهلاك في سبيل الحب الصادق ونصرة الحق القوي

وكانت الشمس قد توارت وراء الافق وهمَّ الليل بارسال النقاب . وأخذ التعب من سلمى وعامر مأخذاً عظيماً لما مرّ بهما من الاهوال في أثناء ذلك النهار فباتا تلك الليلة ولم يناما والقلق سائد عليهما

واستيقظ عامر قبل الفجر وسلمى لا تزال في الفراش فظنها نائمة فانسل حتى خرج من الغرفة وهو يريد الخلوة ليستخير ربه في ما يرجوه من ذهاب سلمى الى دار الخليفة أو يخافه من عواقب تهوّرها

فصعد الى السطح صعوداً بطيئاً لئلا يشعر به الرئيس حتى اطل على الغوطة وقد طارت عنها الاطيار وهي بين تغريد وزقزقة ومداعبة لا يشغلها شاغل عن التمتع بما خلقت له . فاتجه فكره الى ما هو فيه فقال في نفسه « هنيئاً لهذه الخلائق الخفيفة اني لا اخالها الا أسعد حالا من بني الانسان واذا فاخرناها بما نعتقده في انفسنا من السلطان عليها وما نرجوه من ثواب أو نتوقعه من نعيم فالعبرة في الواقع . فهي اسعد حالا منا ولا يظهر من سائر احوالها أنها تهتم بحبيب ولا تخاف من رقيب وما ادرانا أنها ترجو ثواباً مثلنا » واعترض أوهامه معاء الماعز في الزريبة وخوار الثيران فقال ولا أخال هذه أتعس حالا من أسيادها بني الانسان ونحن انما نخدمها بما في وسعنا التماساً لسعادتنا والسعادة تبعد عنا لما يقف في سبيلها من عقبات الطمع والشره مما لا نعرف له حداً نقف عنده

الفصل الثالث والاربعون

فشل شمر

ولم تطل احلامه في عالم الخيال لما قام في نفسه من الاهتمام الشديد بسلمى وذهابها الى يزيد . فلما عاد الى هذه الهواجس اقشعر بدنه لما يخافه عليها هناك . ولكنه لا يدري ما يفعل وقد نفذت حيلته في استيقافها فلم ير غير التسليم الى العناية وعزى نفسه بما سمعه تحت الجميزة من قول الهاتف « ويل للذين ظلموا من عذاب أليم » فارتاح باله فتحول ذهنه الى عبد الرحمن وخاف ان يستعجل يزيد في قتله فيذهب سعيهم هباء منثوراً .

فاستغرق في هـذه التخيلات حيناً وما انتبه حتى وقعت أشعة الشمس على عينيه وهو ينظر الى مشرقها على غير انتباه فخاف أن تستيقظ سلمى ولا تراه في الغرفة فتضطرب . فمشى نحو السلم فاذا بباب علية الرئيس قد فتح وخرج الرئيس وقد تزمل بعباءته فاستقبله عامر بالتحية فرد عليه السلام وقال « اراك مبكراً على السطح »

قال « خرجت استنشق نسيمات السحر »

قال « ظننتك رأيت رسول الخليفة . ألم تره ؟ »

فاختلج قلب عامر عند سماع اسم الخليفة وقال « لا لم أره اين هو »

قال « جاء مساء الامس واقتم نيام فبات عندنا على أن يقابلك في هذا الصباح »

قال « واين هو يا سيدي »

فنادى الرئيس بعض الرهبان وأمره ان يدعو الرسول

ولم تمض برهة حتى رأى الرجل صاعداً وحالما وقع نظره عليه عرف من برصه انه شمر بن ذي الجوشن فاستعاذ بالله من شره وعلم انه قادم لمخاطبته بشأن سلمى لنفسه

أما شمر فاستقبل عامراً باسما وقال له « هل تأذن لي بخلوة قصيرة »

قال « تفضل » ومشى به الى جانب من جوانب السطح منفرداً وقبل أن يصلا الى المكان قال شمر « أظنك ادركت سبب مجيئي يا عامر »

فرأى عامر ان يبغته بخبر الخليفة وخطبته سلمى لكي لا يترك له مجالاً فقال « ألعلك قادم من قبل الخليفة لحمل خطيبته اليه »

فلما سمع شمر بغت واستوقف عامراً بيده وقال له « وأي خطيبة »

قال « سلمى »

قال « هل خطبها الخليفة »

قال « هكذا يقولون ونحن ننتظر وفداً من عنده اليوم »

فبهت الرجل وظل صامتاً برهة ثم قال « قد خرجت سلمى من يدي اذاً ... »

فخاف عامر اذا جافاه ان يشي بسلمى أو ينوي بهما شراً وظن مجاملته تدفع ذلك الشر عنه فقال « لا أدري اذا كانت خرجت أو لم تخرج ولكنني أعلم ان مولانا امير المؤمنين بعث يخطبها لنفسه ومع ذلك فالمستقبل في علم الله »

قال « وأي مستقبل ترجو ؟ اتحاولني ياعامر ؟ ولكن ذلك كله من عناد تلك الفتاة الجاهلة ... ألم تخبرك بما لاقتني به من الجفاء بالامس؟ أظنها كانت طامعة بالخليفة ؟ » قال ذلك وضحك ضحكة اغتصابية ثم قال « فلتهنأ بالخليفة هي وخطيبها الاول اذا كان لا يزال في قيد الحياة »

فارتعدت فرائص عامر وقال « هل تعرف شيئاً عن عبد الرحمن واين هو »

قال « لا أعلم ما جرى له حتى الآن ولكنني أخبرك ان عناد سلمى سيجر الوبال عليها وعليه . انظن الخليفة اذا عرف علاقتها به يستبقيها او يستبقيه ؟ فلتهنأ ابنة حجر بما تتوقعه من رفض شمر » قال ذلك وتحول مسرعاً وهو يتعثر باذياله لشدة سرعته حتى نزل السلم وخرج فركب جواده وسار وعامر لا يزال واقفاً وقد جمد الدم في عروقه وهو لا يدري ما يفعل

الفصل الرابع والاربعون

الوداع الاخير

ثم تحول يريد النزول الى سلمى فاذا بفارس اقبل على الدير ودخل يطلب الرئيس فخاطبه فتحول الرئيس الى عامر وقال له « ابشرك بوفد قادم

لحمل العروس الى عريسها فاخبرها اتتأهب »

فهرول عامر حتى دخل الغرفة وهو لا يدري ما يقول لها وكانت هي قد نهضت ولبست ثيابها وتأهبت للسفر

فقال لها « ألا تزالين يا سلمى على عزمك » قالت « قدعزمت واتكلت على الله »

قال لها « ألا تراجعين نفسك ؟ ألا تذكرين ان في دار الخليفة اناساً يعرفون من انت وما علاقتك بعبد الرحمن ؟ أتظنين اذا عرف الخليفة حقيقة حالك يبقي عليك »

قالت « ان الذي يشاهد الموت امام عينيه ويسعى اليه باختياره لايخاف مثل هذه العواقب . اتظنني اجهل ان شمر اللعين يترقب فرصة للايقاع بي وانه حالما يعرف بوجودي في دار الخليفة يطلعه على سري ولكن... »

فقطع عامر كلامها قائلا « وماقولك اذا كان قدعرف ذلك قبل خروجك من هذا الدير »

قالت « لا ابالي عرف أم لم يعرف واذا تركت له فرصة فليفعل ما يشاء دعني الآن من بواعث التردد فقد عزمت وتوكلت والسلام . فهل سمعت شيئاً عن وفد الخليفة ؟ »

قال « علمت الساعة انهم قادمون لحملك فاذا رأوني هنا ولم أذهب معهم يرتابون في أمرنا وارى ان أخرج بحيلة . واذا جاءوا قولي لهم اني ذهبت في حاجة وسأوافيكم الى دار الخليفة » قال ذلك وبهت ثم التفت الى سلمى وقال « ها انك ذاهبة تحت خطر هو أشد مما خفناه على عبد الرحمن يوم خروجه لقتل يزيد فكيف ارضى بهذا الذهاب ؟ . . لا لا . لا ادعك تذهبين وحدك »

قالت « لقد قضي الامر يا عماه تعال ودعني على عجل واحفظ وصيتي

لك فاذا لقيت عبد الرحمن وكنت انا قد قضيت فداء عنه فبلغه الوصية »
قالت ذلك وشرقت بدموعها ولكنها ظلت على تجلدها وحاولت الكظم وهي تتشاغل باصلاح خمارها

أما هو فلم يعد يتمالك عن البكاء لاعتقاده انه لن يرى سلمى بعد ذلك الفراق ولكنه لم يشأ ان يكدرها فقال لها «سيري بحراسة الله وارفقي بنفسك فاذا رأيت سبيلا للنجاة غير القتل فافعلي

قالت « سأرى ما يكون » وا كبت على يده لتقبلها فضمها الى صدره والدموع تتناثر من عينيه بالرغم عنه وقال« سلمي على عبدالرحمن ولا أكلفك انفاذ الخبر عنك وعنه فأني ساستطلع كل شيء بنفسي واقف على مخبآت الاحوال فى حينها ولكنني أوصيك أن ترفقي بنفسك ما استطعت »

قالت « لا تخف ياعماه وأنت تعلم اني بنت حجر بن عدي وهذا يكفي »
قالت ذلك وقد استرجعت قواها واستوقفت عواطفها

وهما في ذلك سمعا ضجيجاً في باحة الدير فقال عامر « ان الوفد قدوصل وسأخرج خلسة ولا ينتبه لي أحد فاعتذري عني كما أوصيتك . استودعك الله»
قال ذلك وتزمل بعباءته وخرج بخفة وانسل من مكان سري واختلط بالجمع ولم ينتبه له أحد حتى خرج من الدير وقلبه يقطر دماً

أما الوفد فكان قد وصل الدير وفي مقدمته عبيدالله بن زياد وقد اعدوا هودجاً مجللاً بالاطالس . وتقدم ابن زياد تواً الى الرئيس وطلب مقابلة عامر فنزل الرئيس بنفسه الى غرفة سلمى فاستقبلته بجأش ثابت واعتذرت بغياب عامر وانه سيوافيهم الى دمشق . فعاد الرئيس بالخبر فلم يعبأ ابن زياد بذلك ولكنه طلب أن يقابل سلمى . فاخذه الرئيس اليها فقابلته والنقاب على رأسها واخبرته بغياب والدها

فقال « هل انت مستعدة للذهاب الى الخليفة » قالت « نعم »

الفصل الخامس والاربعون

الموكب

فخرجوا بها حتى اركبوها في الهودج ومشت الفرسان حولها بالرماح والحراب في موكب حافل حتى وصلوا باب المدينة . وكانت سلمى تنظر الى تلك المدينة من خلال تلك الستور فلما اطلت على بابها انبهرت بما رأته فيها من ازدحام الاقدام وما هنالك من الابنية الرومانية الهائلة وخصوصاً باب المدينة الكبير واقواسه الضخمة . فدخل الموكب في القوس الوسطى وسار في شارع طويل تحف به الاعمدة الرخامية من الجانبين واستلفت انتباهها بنوع خاص قرقعة حوافر الخيل على البلاط في ذلك الشارع الطويل . على ان تلك الضوضاء لم تشغلها عن هواجسها الا برهة يسيرة . وبعد قليل وقف الموكب امام باب كبير جانباه من الرخام المنقوش وعلى عتبته العليا رسم النسر الروماني والباب من خشب الابنوس مصفح بالنحاس بعض التصفيح . وعليه نقوش جميلة وكانت تسمع عن أمثال هذا الرسم من عمها وتعرف ان النسر شارة الروم . فاستغربت اقامة الخليفة في بيت من بيوت الروم

ولم يكد يقف بها الهودج هناك حتى ترجل ابن زياد ودنا من الهودج وقال لها من وراء الستار « اننا بباب الخليفة فانزلي يا سيدتي » فنزلت حتى دخلت الباب فرأت على جوانبه الحرس من جند الخليفة وفي ايديهم الحراب . فمشت وابن زياد دليلها في ساحة كبيرة مرصعة بالفسيفساء تتخللها مغارس الرياحين وأحواض الرخام تتدفق عن حوافيها الماء . فسارت في بعض طرق الحديقة وابن زياد يتقدمها وسيفه يجر وراءه وهو يخطر معجباً بما ملكوه من

ابنيـة الروم وآثار مجدهم ولسان حاله يقول « أين ما تعرفينه من سذاجة ابنية الـكوفة وهذه الابنية المزخرفة »

و بعد قليل انتهت الى باب آخر اصغر من ذاك يصعدون اليه بدرّجات قليلة من الرخام المصقول تكتنفه عمد من الرخام فوقها قبـة مغشاة بالذهب وعليها الرسوم بالالوان البـديعة . ورأت بينها رسوماً تشبه ما في كنائس النصارى فلم تستغرب ذلك لما تحققته من أن هذا القصر لا يزال في ما كان فيه على عهد ولاة الروم . فدخل عبيد الله امامها تحت القبة فتبعته فاشرفت على باحة واسعة مكشوفة مسورة بالعمدان المزخرفة بالنقوش وبعضها منزّل فيه الذهب وعلى دوائرها مقاصير . وأرض الباحة مرصفة كلها بالفسيفساء الدقيقة على اشكال تشبه رسوم الشجر والحيوانات وغيرها . وفي وسط الباحة حوض (فسقية) من الرخام المجزع يتصاعد الماء من انبوب في وسطه طرفه يشبه رأس الاسد . وفي صدر الباحة باب مرتفع عليـه ستار وأمامه الحجاب . فعلمت انه مدخل مجلس الخليفة . وتحققت ذلك مما رأته الى يمين الباب من جماهير الناس وفيهم الشعراء والرواة وأصحاب الحاجات ممن يقفون بباب الخليفة لقضاء حوائجهم . وكانت الباحة مكشوفة من الوسط فقط يكتنفها رواق قائم على أعمدة مزخرفة . وسقف الرواق بعضه منقوش بالحفر على اشكال الازهار والاثمار والآدميين والبعض مزين برسوم ملونة ومذهبة . فبهرتها تلك المناظر لانها لم تكن رأت مثلها من قبل

ولما أطل ابن زياد على تلك الباحة همَّ بعض الذين كانوا هنا وهناك من الشعراء وذوي الحاجات بالقدوم اليه لمخاطبته في شؤونهم . فلما رأوا سلمى معه تقاعسوا وانزووا وراء الاعمدة

وعطف ابن زياد نحو اليسار بين الاعمدة فتبعته سلمى حتى وصلا باباً بديع النقش عليه ستر من الحرير المزركش بالذهب برسوم جميلة وفي جملتها

كتابة باليونانيــة فازداد استغرابها لاستبقاء المسلمين تلك الآثار الى ذلك الحين مع ما وصل اليه سلطانهم من السعة والنفوذ . ولو علمت معنى تلك الكتابة لكان استغرابها اعظم كثيراً لانها كلمات تتألف منها عبارة الاستهلال بالصلاة عند النصارى وترجمتها « باسم الاب والابن والروح القدس » والسبب في ذلك ان الستور وامثالها من طراز الملك كانت قبل الاسلام تصنع في مصر وسكانها من النصارى وفيهم القبط والروم فكانوا يطرزونها بالرومية واكثر ما يرسمونه عليها تلك الآية . وكان الروم في الشام وغيرها يبتاعون تلك الستور ونحوها من مصر فيعلقونها على الابواب والنوافذ للزينة والتبرك . فلما ظهر الاسلام وفتح المسلمون مصر والشام استعاروا تلك الزينة من الروم ولم يلتفتوا الى فحوى ما عليها من الكتابة وفي جملتها الامويين في دمشق . وما زال ذلك دأبهم الى أيام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ الى ٨٦ هـ) وهو أول ما انتبه اليــه والى ما كان يضرب على النقود وما كان يطرز على القراطيس وهي البرد التي تحمل في الاواني والثياب . وذلك أنه فيما كان ذات يوم في مجلسه اذ مرَّ به قرطاس فنظر الى طرازه فامر أن يترجم بالعربية فترجموه له فانكره وقال « ما أغلظ هذا وكيف ان هـذه الاواني تصنع في مصر وتحمل في الآفاق » فامر بالكتابة الى عبدالعزيز بن مروان اخيه وعامله على مصر بابطال هذا الطراز وان يأمر صناع القراطيس أن يطرزوها بصورة التوحيد «أشهد الله انه لا اله الا هو» ففعلوا . وما زال هو شأن الطرز من ذلك الحين . وكتب الى عمـال الآفاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منه بالضرب الوجيع والحبس الطويل . ثم اعترضه امبراطور الروم يومئذ فدار بينهما جدال لا محل له هنا . وفعل مثل ذلك أيضاً بالدنانير[1]

---

(١) الدميري ج ١

الفصل السادس والاربعون

سلمى في دار النساء

ودخلت سلمى من ذلك الباب بعد أن ازاحوا الستارة عنه فانتبهت الى دهليز مفروش بالبسط من الديباج وعلى جدرانه نقوش كثيرة حتى اقبلت على دار النساء . وهي غرف تكتنف باحة فيها بركة من الرخام المجزّع . فقال لها ابن زياد « انك في دار النساء يا سيدتي» قال ذلك وتحول فاستقبلتها امرأة عجوز ومعها رجل عليه لباس الحجاب فاستغربت سلمى ذلك . فقالت لها العجوز انه فتح وهو خصي مولانا أمير المؤمنين وحاجبه (ويزيد أول من اتخذ الخصيان في الاسلام) ومشت بها العجوز حتى دخلت غرفة قد زينوها وفرشوها بالابسطة والاطالس وفيها سرير مذهب لم تر مثله في عمرها وما وصلت هناك حتي تهيبت وشمرت بعظم الامر الذي عرضت نفسها له وأحست انها في قفص من حديد . وتظاهرت بالتعب فرحبت العجوز بها وطلبت اليها أن تنزع خمارها وترتاح الى أن قالت « وقد أمرني امير المؤمنين أن أدخلك الحمام »

فرفعت سلمى الخمار عن رأسها فبان وجهها وتجلت محاسنها فانبهرت العجوز من جمالها وهيبتها وجعلت تمدحها وتطنب بما آنسته من حسنها تماساً لاستئناسها . فاجابتها سلمى بلطف ونباهة . فازدادت اعجاباً بها بما حازته من التفات الخليفة وألحت عليها بدخول الحمام.

فقالت « سأدخله بعد أن استريح »

قالت « لقد أعددنا لك الثياب الفاخرة ولا ريب عندي انك اذا لبستها زداد جمالك وتعلو منزلتك عند مولانا »

فشكرتها ولكنها استمهلتها ريثما تستريح . وهي انما ارادت التخلص

من الحمام لتخفي خنجرها في مكان أمين لعلمها انها اذا دخلت الحمام ستذهب العجوز معها فخافت أن تطلع على الخنجر فينفضح أمرها فاعتذرت بانحراف صحتها وانها تخاف ان يضر الحمام بها

فسايرتها العجوز ولكنها رجعت الى تنفيذ أمر الخليفة فقالت « واذا طلب الخليفة ان يراك فهل تقابلينه بهذه الثياب »

قالت « اذا شئت ان ابدل ثيابي فعلت واتركي الحمام الى الغد »

فاطاعتها واتتها بثوب من الحرير الناعم يجلله جلباب طويل وردي اللون فاحتالت في تبديل ثيابها بغير أن تشعر العجوز بخنجرها . واهتمت العجوز بتسريح شعرها باصلاحها فمشطتها وهيأتها فاصبحت سلمى بعد ذلك الاصلاح أشبه بالملائكة منها بالآدميين حتى ان العجوز عشقتها وعلق قلبها بها

الفصل السابع والاربعون

الجامع الاموي

أما سلمى فقد كانت في أثناء ذلك غارقة في بحار الهواجس لا تدري بماذا تفكر لكثرة ما يتجاذبها من المهام وأهم تلك الجواذب افتكارها بحبيبها وهي لا تدري ما أصابه هل هو مسجون أم قتل أو اطلق . ورأت في تلك الحجرة نافذة بجانبها مقعد مبني من الرخام كالدكة تكسوه وسادة كبيرة فجلست على الوسادة واطلت من النافذة فاشرفت على خلاء ضيق وراءه جدار عظيم يدل على فخامة ذلك البناء . وسمعت جلبة بما يشبه التكبير فعلمت انها بقرب الجامع على أنها ارادت مخاطبة العجوز لعلها تستطرق في حديثها الى خبر خطيبها فقالت لها « وما هذا البناء يا خالة »

قالت « هذا هو الجامع يا سيدتي »

قالت « وهل بناه أمير المؤمنين أم ابوه »

قالت « كلا يا حبيبتي فانه من بناء الروم مثل هذا القصر »

قالت « وهل كان عند الروم جوامع »

قالت « كلا ولكنه كان كنيسة على اسم سيدنا يحيى يصلي فيها النصارى وكان هذا القصر الذي نحن قائمون فيه قصراً لارباب الحكومة من الروم فلما فتح المسلمون الشام اتخذوا هذا القصر داراً للامارة واقتسموا الكنيسة بينهم وبين النصارى فجعلوا نصفها جامعاً وبقي النصف الآخر كنيسة »

قالت « وهل بين هذه الدار والجامع اتصال »

قالت « نعم ان بينهما دهليزاً يمرّ فيه الخليفة كل صباح للصلاة ويعود منه وقد ذهب في هذا الصباح ولم يعد بعد »

وبينما هي تخاطبها سمعت الضوضاء تتزايد في الجامع فقالت سلمى « وما سبب هذه الضوضاء »

قالت « ان المسلمين يلعنون ابا تراب »

قالت « ومن هو ابو تراب »

قالت « هو علي بن ابي طالب وكلما صلوا ختموا الصلاة بلعنه [1] »

فتذكرت سلمى مصيبتها وعلمت أن والدها انما مات في هذا السبيل

ولم تكن سلمى تعبأ بهذه الابحاث لو لم ترج التطرق الى حديث عبد الرحمن فقالت « بالحقيقة ان هذا القصر بديع لا أظن المسلمين بنوا قصراً مثله الى هذا اليوم ولكنني رأيت فيه الحرس وقوفاً في الابواب ومعهم السيوف والحراب مع علمي أن الخلفاء في الحجاز والعراق لم يكونوا يتخذون الحرس »

قالت « صدقت يا بنية وأول من اتخذ الحرس هو معاوية والد أمير

(١) ابن الاثير ج ٣

المؤمنين بعد حادثة البرك بن عبد الله التميمي الذي كاد يقتله لو لم يتداركه في قفاه و ينجو باذن الله فاتخذ معاوية الخفر من ذلك الحين وأمر باقامة حرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد وهو أول من فعل ذلك من الخلفاء [١] وفعل ابنه امير المؤمنين مثله والسبب في كل ذلك يا حبيبتي ان قلوب المسلمين تغيرت عما كانت عليه من قبل وداخلها الغلّ فاصبح الاخ يحقد على أخيه وغدا قتل الخلفاء سنّة عند بعض الناس حتى ان مولانا الخليفة كان في خطر القتل منذ يومين فكمن له رجل في مكان الصيد ولو لم ينبه بعض خاصته الى ذلك لذهبت حياته على أهون سبيل ولكن الله نجاه وعادت العائدة على الباغي »

فلما سمعت سلمى ذلك اختلج قلبها وارتعدت فرائصها وخافت ان تستزيدها بياناً فتسمع خبر قتل حبيبها . ولكنها لم تكن تصبر عن الاستطلاع فقالت « وماذا فعلوا بذلك الرجل »

قالت « قادوه مغلولاً وحبسوه وسمعت في هذا الصباح انهم سيوقفونه بين يدي الخليفة و يسألونه عن أصله وسبب مجيئه و بعد ذلك يقتلونه . ألا يستحق القتل ؟ »

فسكتت سلمى وزاد اضطرابها وخافت أن يبدو ذلك على وجهها فتظاهرت بصداع دهمها وحنت رأسها على ذراعها فوق النافذة وأخفت وجهها

فقالت لها العجوز « ما بالك يا سيدتي لا بأس عليك »

قالت « اني أشعر بصداع أليم في رأسي لا اكاد احتمله » فمدت العجوز يدها واستخرجت من جيبها خرزة من الجزع معلقة بخيط وقالت لها « خذي هذه التعويذة علقيها بين ضفائرك فانها تشفيك باذن الله وقد جربتها بنفسي مراراً فكان الصداع يذهب عني حالا »

---

(١) مروج الذهب ج ٣

فقالت « ولكن صداعي شديد يا خالتي »

قالت « لا بأس عليك خذي هذه التعويذة »

قالت ذلك ولم تنتظر جوابها بل وقفت وربطت الخرزة بضفيرة من ضفائرها وهي تقول « واذا كان لم يزل بعد فانه يزول عن قريب بقدوم عريسك . وأظنه متى عاد من الصلاة يسأل عنك ولا ريب عندي انك ستكونين عنده في المنزلة الاولى بين سائر نسائه »

فاقشعر بدنها وتحققت قرب الساعة العظمى وقالت في نفسها « لقد آن الاوان فلا بد من الدهاء والحكمة والا ذهب السعي سدًى » فطلبت الى الله ان يلهمها الصبر ويثبت جأشها

الفصل الثامن والاربعون

المقصورة

وفيما هي تفكر في ذلك واذا بالغوغاء قد قامت في الدار فبغتت سلمى فقالت لها العجوز » ان الخليفة قادم ومن عادته اذا عاد من الصلاة أن يمر بهذه الدار قبل دخوله المجلس ولا بد من مجيئه اليك لانه اوصاني بالعناية بك ولحظت انه كان ينتظر مجيئك بفارغ الصبر »

فاستعاذت سلمى بالله في باطن سرها ولبثت صامتة وقلبها يخفق فحملت العجوز منها ذلك محمل الحياء فقالت وهي تضحك « يا للعجب من البنات كيف يظهرون الحياء والتمنع وقلوبهن تطفح سروراً عند سماع صوت العريس . وما كل العرايس مثل عريسك يا مليحة فانه الخليفة امير المؤمنين القابض على رقاب المسلمين »

فظلت سلمى صامتة وهي تكظم ما في نفسها وتتجلد وبعد هنيهة اقبل فتح الخصي المتقدم ذكره وقال « ان الخليفة قادم يا خالة » وما لبث ان

سمعت وقع خفافه قرب حجرتها حتى لم تعد تمالك من الاضطراب فارسلت النقاب على وجهها .فابتدرتها العجوز ورفعت النقاب عنها وقالت « أتحتجبين عن امير المؤمنين وهو زوجك » وما أتمت كلامها حتى دخل يزيد وعليه رداء أزرق وعلى رأسه عمامة خضراء و بيده درة (وهي قدة من جلد ثخين تشبه الكرباج) فلما اطل على الغرفة استقبلته العجوز فقبلت يده وأمسكت سلمى واستنهضتها لملاقاة الخليفة . فوقفت وتظاهرت بالحياء فناداها يزيد قائلاً « اهلاً بعروسنا » ومد يده ورفع الغطاء عن وجهها وقلبه يكاد يطفح سروراً لحصوله عليها لانه لم يشاهد في عمره مثل ما في وجهها من الجمال والهيبة وقد زاده ذلك التمنع رغبة فيها وشوقاً اليها

أما هي فتجلدت ونظرت الى يزيد كأنها تزن قواه لترى ما يكون من أمرها معه اذا همت بقتله فرأت جسمه لا يدل على بطش شديد . وكان طويل القامة ادم اللون جعد الشعر أحور العينين بوجهه آثار الجدري [1] له لحية حسنة خفيفة [2] فلم يهمها منظره ولكنها أحبت مطاولته فبالغت في اظهار التوجع من الصداع ولم تجب . فالتفت يزيد الى العجوز كأنه يستفهمها فابتدرته قائلة « ان عروس مولانا تشكو من صداع شديد أظنه يزول قريباً »

فقال « لا بأس عليها فارى ان تنتقلي بها الى المقصورة في اعلى هذا القصر فتكون على مقربة من مجلسي فاذا اردت أن اتفقدها في اثناء النهار لم يكن المجال واسعاً بيني وبينها . او لتقم هناك أو تنام وترتاح حتى نلتقي في المساء » قال ذلك وتحول حتى خرج من دار النساء الى مجلسه

اما سلمى فقد سرها ذلك التأجيل ريثما تدبر حيلة تتمم بها الامر

وصعدت العجوز بسلمى على سلم من الرخام بجانب تلك الدار حتى اتت الطبقة العليا ومشت في دهليز والعجوز أمامها حتى وصلت الى غرفة مفروشة

---

(١) ابو الفداء ج ١ (٢) العقد الفريد ج ٢

باحسن الاثاث وفيها الطنافس والوسائد والمقاعد ولها نافذة تطل على الحديقة فتحققت ان يزيداً يوافيها الى هناك واذا همت بقتله فانما تقتله في تلك الغرفة فكيف تنجو بنفسها بعد ذلك . فاخذت تبحث وتفكر فقالت للعجوز «ألعل هذه الغرفة منفردة هنا » قالت « ليست منفردة ولكنها مقصورة خاصة بالخليفة يصعد اليها من باب خاص »

قالت « ربما ينام فيها احياناً »

قالت « ربما نام فيها احياناً ولكنه يجلس فيها لغرض سري لا أرى مانعاً من الاباحة به لك . وذلك ان والده معاوية كان لفرط دهائه وعلو همته قد اتخذ هذه المقصورة مخبأ له يطل منه على المجلس من كوة صغيرة فيرى أهل المجلس تحته وهم لا يرونه . فعل ذلك حتى لا تخفى عليه خافية »

الفصل التاسع والاربعون

مجلس الخليفة

فاستبشرت سلمى بذلك المطل لتشاهد منه ما سيدور بين عبد الرحمن والخليفة اذا استحضروه للاستنطاق فقالت « وهل يجوز لي ان اطل من تلك الكوة لاشاهد مجلس الخليفة فاني لم أر مجلساً في عمري »

قالت « ان الخليفة لا يأذن بذلك لاحد ولكنني لا اظنه يمنعه عنك على أني ادلك على الكوة فتطلين منها على المجلس واذا جاء الخليفة لا تقولي له انك فعلت ذلك »

قالت « بورك فيك يا خالة انك والله لطيفة ومحبة ولا غرو اذا ارتفعت منزلتك عند الخليفة »

فانشرح صدر العجوز من هذا الاطناب وزادت رغبة في خدمتها

فقالت لها سلمى « وأين الباب السري الذي يخرج مولانا منه »

فامسكتها بيدها ومشت بها عدة خطوات ثم دارت من وراء الغرفة فاذا هناك باب صغير فتحته وأرتها سلماً ضيقاً وقالت « هذا هو باب السر فاكتمي ذلك »

قالت « والى أين يستطرق »

قالت « انه ينتهي الى دهليز طويل آخره في الحديقة الخارجية يفتح من الداخل ولا يفتح من الخارج الا بمفتاح خاص »

فتفرست سلمى بالمكان حتى تصورت المدخل والمخرج فعادت الى استطلاع امر عبد الرحمن ولكنها تظاهرت بعدم الاهتمام في بادىء الرأي وعادت الى المقصورة وجلست الى النافذة فاطلت على الحديقة والعجوز الى جانبها تسليها بالاحاديث . ثم تظاهرت سلمى بالملل وقالت « دعينا نطل من الكوة ونرى مجلس الخليفة »

فمشت العجوز أمامها حتى خرجت من الغرفة وتحولت بضع خطوات على الطنافس المفروشة هناك فوصلت الى وسادة صغيرة أزاحتها فانكشفت كوة صغيرة تطل على المجلس . فاذا بالمجلس قاعة كبيرة مفروشة بالسجاد الملون وعلى دائرها مما يلي الجدران وسائد جلس الامراء عليها بعضهم على وسائد مثناة و بعضهم على وسائد غير مثناة الا يزيداً فقد كان جالساً في صدر القاعة على دكة مرتفعة من خشب العرر منزل فيها الذهب وعلى رأسه اثنان بايديهما الحراب والى جانبه ابن زياد على وسادة من الديباج المزركش بالذهب مثناة . وفي يد يزيد قضيب الخلافة وعلى كتفيه برد خاص بالخلفاء ورأت على نوافذ القاعة ستوراً من الاطلس المزركش بالكتابة اليونانية التي ذكرناها

فتأملت في هيئة ذلك المجلس فلم تجد فيه ما كانت تتوقعه من الهيبة

والوقار فقد كان أهل المجلس يخاطب بعضهم بعضاً حتى عات ضوضاءهم . وسمعت بعضهم يقهقه ويزيد لا يعبأ بقهقهتهم وكان مولياً وجهه الى ابن زياد يخاطبه سراً وهو يضحك

ثم صاح بغتة قائلا « يا غلام » فدخل رجل كان واقفاً بالباب ووقف متأدباً . فقال يزيد « قل لمن في بابنا من الشعراء اننا لا نقابل أحداً منهم اليوم وانما نريد أن نرى ذلك الغلام الذي همَّ بقتلنا ...اليَّ به »

فخرج الغلام ثم عاد ووراءه عبد الرحمن مكبلا بالحديد . فلما رأته سلمى ارتعشت مفاصلها لما خافت عليه من فتك يزيد

الفصل الخمسون

الاستنطاق

فلما وقف عبد الرحمن في وسط القاعة التفت يمنة ويسرة وتفرس في الناس وهو لا يبالي بما يتهدده من الخطر فسرت سلمى برباطة جأشه ولبثت تنتظر ما يكون منه

فناداه يزيد قائلا « ممن أنت يا رجل »

فقال عبد الرحمن « اني من هذه الساحة »

فبدره عبيد الله بن زياد قائلا « أيسألك أمير المؤمنين عن نسبك فتجيبه بهذا الجواب »

قال « هو الذي يسألني وهذا هو جوابي »

قال عبيد الله « يظهر من وقاحتك انك لا تدري من هو الذي يخاطبك

قال « ادري ذلك وان الذي يخاطبني يزيد بن معاوية »

قال « قل امير المؤمنين . . . »

فقطع يزيد كلام ابن زياد وقال « دعه يا عبيد الله » ثم التفت الى عبد الرحمن وقال « وما حملك على هذه الخيانة »

قال « ليست هي خيانة وانما هي جسارة حملني عليها اعتقادي بصدق خدمتي فيها للاسلام والمسلمين »

فشعر يزيد ان الرجل ينوي التصريح بامور مهينة فرأى من الدهاء محاولته على جاري عادة والده معاوية في مثل تلك الحال — وهو القائل لو كان بيني و بين الناس شعرة ما انقطعت . فقيل له وكيف ذلك قال « اذا هم شدوا ارخيت واذا ارخوا شددت »

وكثيراً ما كان معاوية يتحمل من اتباع علي كلاماً غليظاً ويصرفهم راضين وما ذلك الا من سعة صدره وغزارة حلمه وكثرة دهائه — ولم يكن يزيد مثل والده ولكنه أراد ان يتشبه به فقال لعبد الرحمن « ولكن ما يمنع أن تقول من أنت وما الذي جاء بك الى هذه الديار »

قال عبد الرحمن « انك تسألني سؤالاً لا دخل له في عقابك أو ثوابك وانما يكفيك أن تسمع كلامي وتأخذني باقراري وأنا أقول انني جئت اتعمد قتلك »

فضحك يزيد والتفت الى ابن زياد وخاطبه خطابا لم يفهمه أحد . ثم التفت الى عبد الرحمن وقال له « يظهر انك مغرور ونحن لا نرضى الا أن نلتمس لك عذراً لئلا تكون مدفوعاً من أحد بطريق الاغواء ويكفي للصفح عنك ان تلعن علياً »

فلما سمع عبد الرحمن ذلك نسي انه مقيد بين يدي الخليفة فالتفت اليه وقال « انك تطلب أمراً مستحيلاً وما عليّ مما يجوز ذلك عليه »

فقال ابن زياد « اقبل النصيحة وأطع امير المؤمنين لئلا يصيبك ما أصاب أمثالك ممن ساقهم عنادهم الى القتل مثل حجر بن عدي و ..... »

فنظر عبد الرحمن الى ابن زياد والشرر يكاد يتطاير من عينيه وقال « كأني بك يا بن ابن سمية بما فعله ابوك بحجر وقد سعى في قتله زوراً . قتله لانه لم يلعن ابن عم الرسول (صلعم) فاذا رأيت أن ترتكب انت أيضاً مثل ذلك فاقتلني ولا تخوفني . فان علياً اولى بالمدح من سواه » فلما قال عبد الرحمن ذلك ضج المجلس وقامت الغوغاء وما من أحد الا أعجب بجسارة ذلك الاسير المقيد

أما سلمى فقد كادت تضيع رشدها من عظم التأثر وهي تتقلب بين الاعجاب بشهامة ابن عمها و بين الخوف على حياته

ثم سمعت يزيد يقول له « قد امهلناك يوما آخر فاذا لم ترجع عن غرورك اذقناك الموت . خذوه الى السجن » فدخل الحرس ليأخذوه فقال « لا تؤجل عملاً الى الغد فاني أنا اليوم مثلي بالامس وبالغد لا أحيد عن الحق ولو قطعتموني ارباً »

فضحك يزيد وهو يقول « خذوه »

وكانت العجوز جالسة بجانب سلمى تسمع ما دار في المجلس فلما اخرجوا عبد الرحمن قالت لسلمى « أرأيت مثل هذه الجسارة ولكنها لا تفيده شيئاً وغداً يقتلونه »

فلم تستطع سلمى صبراً على سماع ذلك الكلام ولكنها قالت في باطن سرها « اذا بقيت يا يزيد حياً الى الغد فاقتل عبد الرحمن » وعادت الى الغرفة وقد ظهر الاضطراب عليها ولكنها تظاهرت بالصداع

الفصل الحادي والخمسون

الافتقاد

فاستقبلتها العجوز ورحبت بها ورثت لما ظهر عليها من آثار الاضطراب لاعتقادها انه مسبب عن الصداع . فقالت لها ألم تفدك التعويذة يا حبيبتي انها لم تخني الا اليوم

فلم تجبها سلمى ولكنها احتالت بمنديل استخرجته من جيبها وعصبت به رأسها وتظاهرت بشدة الالم . فقالت لها العجوز « اذا كنت تشكين من الصداع الشديد فاليك بالفراش توسدي فيه وارتاحي »

فاطاعتها وانثنت الى فراش من الحرير الملون عليه غطاء من الاطلس المزركش بالذهب كانت قد اعدته العجوز هناك بامر يزيد . فتوسدت سلمى في الفراش والتحفت الغطاء الى رأسها ولبثت لا تبدي حراكاً حتى ظنتها العجوز قد نامت . وهي انما سكتت لانشغال خاطرها في ما هي فيه من القلق وما تخافه على عبد الرحمن وعلى نفسها من الخطر

وفيما هي راقدة سمعت خطوات مفردة على السلم فعلمت ان يزيداً صاعد ليفتقدها ويسأل عن صحتها اذ لا يتجاسر أحد على الصعود الى تلك المقصورة سواه . فاستعاذت بالله ولكنها رأت ان تتظاهر بالرقاد لان الليل لم يدن بعد وهي انما تريد قتله ليلا والناس نيام لتتمكن من الفرار

وبعد هنيهة وصل يزيد الى باب المقصورة فاسرعت العجوز اليه واستقبلته في الباب وهي تشير بسبابتها على فمها ان « امشي الهوينا ولا تتكلم لان العروس نائمة »

فخفف الوطء واستفهم عن سبب نومها فقالت « ان الصداع اشتد عليها

فوقف شمر والسرور باد على وجهه وقال « اذا امرني مولاي اخبرته بنسبه ولا اظنه بعد ذلك الا آمراً بقتله في هذه الساعة »

فلما سمعت سلمى كلام شمر اهتزت كل جوارحها ولم تعد تستطيع الوقوف من شدة الاضطراب ولعنت ذلك الرجل وساعة قدومه ولكنها تجلدت لترى ما يكون فاذا بيزيد يقول « ومن هو؟ قل »

قال « ألا تعرف حجر بن عدي ؟ »

قال « بلى أعرفه بالسمع »

قال « انه ابن أخيه ويزعم هذا الغادر انه سينتقم لعمه من امير المؤمنين »

فهب يزيد من مجلسه وصاح قائلا « أصحيح ما تقول يا شمر ؟ »

قال « اني لا اقول غير الصدق واذا حضر الآن فقأت حصرماً في عينيه »

فضج المجلس وصاح يزيد « آتوني به »

وما عتم ان جاؤا بعبد الرحمن وعليه الاغلال والقيود فوقف بين يدي يزيد وهو لا يبالي . فنظر يزيد الى شمر وأومأ اليه ان يخاطبه

فالتفت شمر الى عبد الرحمن وقال له « أيسألك امير المؤمنين عن اسبك فتخفيه عنه »

فنظر عبد الرحمن الى شمر وحملق فيه وهو لا يعبأ بما يتهدده من الخطر في ذلك الموقف وقال « لم أخف نسبي خوفاً على حياتي ولا أرى في نسبي الا ما يدعو الى الافتخار »

قال شمر « قل اذاً من أنت »

فرفع عبد الرحمن صوته وقال « اني من كندة واسمي عبد الرحمن وعمي حجر بن عدي الذي قتلتموه ظلماً وعدواناً »

فتعجب يزيد لتلك الجسارة وقال « أتقول ذلك ولا تخاف »

قال « ممَّ اخاف وقد اقررت بعزمي جهاراً وازيدكم بيانا اني انما تعمدت قتل يزيد انتقاماً لعمي المقتول ظلماً .. »

وكان ابن زياد جالساً بجانب يزيد يسمع ما يدور بينهما فلما سمع قوله أراد مطاولته فقال « يظهر انك مصاب في عقلك فاقلع عما أنت فيه وان كان حلم امير المؤمنين لا يضيق عن وقاحتك . فاذا استغفرته ورجعت عن غيك أظنه يصفح عن جهالتك »

قال « مه يا ابن زياد لا تتوسط في استبقائي · ولا تذكروني بحلمكم فما أنا ملتمس البقاء »

قال يزيد والغضب ظاهر في حاجبيه » قد كنا اجلنا قتلك الى الغد ونحن نحسبك نادماً على وقاحتك فاذا انت مستعجل اجلك . فاعلم انك مقتول قبل ان تطلع شمس الغد ... خذوه الى السجن وأروني رأسه في الصباح »

الفصل الثالث والخمسون

اليأس

فارادوا أن يتحولوا به الى السجن فقال شمر « فليأذن لي مولاي أن أقتله بيدي »

قال « اقتله وأتني برأسه غداً الا اذا رجع عن غيه واستغفر ولعن ابا تراب [1] »

فلما سمع عبد الرحمن ذلك نفر ممن كان ممسكاً بيده وحول وجهه الى يزيد وقال « اقتلوني الآن فشاي ان ألقى علياً وجحراً على محل واذا كان

(١) ابن الاثير ج ٣ والمسعودي ج ٢ والفخري والخميس والعقد الفريد الخ

لا بد من تأجيل قتلي فلا أرضى بالموت قبل ان أؤدي شهادتي على رؤوس الملأ . فاعلموا يا بني امية انكم توليتم هذه الخلافة بغير الحق واخرجتموها من أهل بيت الرسول بالحيلة وحاربتم من هو أحق بها من سائر المسلمين ولم تفوزوا بها من دونه الا لرغبتكم في الدنيا ورغبته في الآخرة ولسوف تلقون عاقبة ما جنته ايديكم »

فانتهره ابن زياد قائلاً « أتقول ذلك جهاراً يا خائن »

فالتفت عبد الرحمن اليه وقد صعد الدم الى رأسه وتعاظم غضبه وتذكر ما افتراه زياد والده على عمه حجر حتى تمكن من قتله فقال « لا تقل خائن .. وما الخيانة الا من شأنك وشأن ابيك من قبلك .... وليس في هذا المجلس أحد لا يعرف اباك زياداً وامه سمية وكلهم يعرفون لماذا سموه ابن ابيه . اذكر يا عبد الله شهادة ابي مريم خمار المدينة ألم يقل ان جدتك سمية كانت بغياً من بغايا المدينة ؟ هل وصلت انت وابوك الى هذا المجلس الا بفضل بغيها .. وما في هذا الجمع من يجهل ان معاوية لم يستلحق زياداً بنفسه ويرضى بان يكون اخاه من ابيه الا لاستخدامه في مصلحته واستنصاره على أهل البيت . فاذا رضيت بهذا الاستلحاق فانما هو شهادة على قذارة أصلك. وان لم ترضه فاخبرني ما هو نسبك ؟ .. وتزعم مع ذلك اني خائن وما الخائن الا من عرف الحق وانحرف عنه طمعاً في الدنيا كما فعل ابوك وأمثاله وكما فعلت انت وامثالك . فلا غرو اذا استغربت المجاهرة بانتصاري للحق . وهي شهادة حق اموت في سبيلها واذا انا مت فان عظامي تنادي بها من أعماق القبر »

فضج الناس وتشوش المجلس والكل معجبون بتلك الجسارة وتقدم شمر الى يزيد وهو يقول « الى متى يصبر امير المؤمنين على هذه الوقاحة مرني فاقطع رأسه في هذه الساعة »

فصاح فيه عبد الرحمن « اقتل . . جرد سيفك ... انكم ما قتلتم من

قتلتموه من نصراء الحق الا بمثل ذلك .. تتكاثفون على الرجل عشرات ومئات ... اقتل .. قتلك الله ... » ثم التفت الى يزيد وقال « أتظنون قتل رجل مثلي يؤيد سلطانكم » وأشار الى عمامته وقال « ان دون هذه العمامة ألوفاً من الرجال الصناديد سوف يذيقونكم مرارة ما جنته ايديكم انسلطانكم يا ابن معاوية لم يتأيد الا بالحيلة . اطمعتم الناس بالدنيا فنصروكم... استلحقتم زياداً بنسبكم واطمعتم عمرو بن العاص بمصر فنصراكم ولولا ابن العاص ما بقيتم بعد واقعة صفين يوماً واحداً . ولولا فعلته بالاشعري في مجلس التحكيم لم تقم لكم قائمة ولكن دهاء ابيك معاوية غلب على دهائه فاستخدمه في مصلحته فاطعمه مصر وا كله هو مصر والشام .... ولكنها لقمة لن تهضمها امعاؤكم وسوف ترون ونرى ... »

وقبل أن يتم كلامه قال يزيد « خذوه الى السجن وأتوني برأسه في الغد باكراً » قال ذلك وهو يضحك ويظهر الاستخفاف .فساقوه فمشى وهو يرسف بقيوده بخطوات ثابتة كأنه ذاهب الى المنافرة . ولا تسل عما اصاب سلمى من الارتعاد وما ظهر على وجهها من الاضطراب حتى اغرورقت عيناها بالدموع رغماً عنها . ولكنها فرحت بما ابداه عبد الرحمن من الانفةوالحرية. فلما خرج من المجلس انخلع قلبها معه وتعاظم قلقها . ثم عادت الى روعها وعللت نفسها بقتل يزيد في ذلك المساء قبل ان يقتل خطيبها . وكانت الى تلك الساعة تهيب جريمة القتل لغلبة طبيعة النساء عليها فلما سمعت ما دار بينهم وبين عبد الرحمن هان عليها كل أمر فظيع . واشتد بها الهياج حتى لم تستطيع البقاء هناك فتحولت الى المقصورة والعجوز لم تأت بعد فافتقدت الخنجر واستخرجته ونظرت اليه وخاطبته قائلة «أرجو ان لا تخونني الليلة ... انك اذا اطعتني اتيت بما لم يقوعليه ألوف من المسلمين ... فتنقذهم من سلطان أناس اختلسوا الخلافة وأهانوها وتعبدها الى اولى الناس بها .

تعيدها الى سيد شباب المسلمين ابن بنت الرسول ..... »

ولما تصورت ذلك اهتزت طرباً وقالت وقد نسيت موقفها « اذا انا ظفرت بهذه الامنية لا ابالي ان مت او بقت حية ... »

ولم تكد تقول ذلك حتى سمعت وقع اقدام على السلم فاسرعت الى اخفاء الخنجر تحت الفراش وجلست في الفراش وهي ترتجف وتغطت الى فوق رأسها

الفصل الرابع والخمسون

المائدة

وبعد هنيهة دخلت العجوز ووراءها جماعة يحملون آنية الطعام والشراب فمدوا السماط ووضعوا فوقه المواعين من الذهب والفضة وفيها الدجاج المشوي وانواع اللحوم والحلواء والفاكهة وصفت اقداح الشراب . وتظاهرت سلمى باليقظة وتململت ثم رفعت الغطاء عن رأسها فوقع نظرها على ذلك السماط وعليه انواع الاشربة والوان الطعام . ورأت بجانب السماط طنبوراً فتذكرت ما كانت تسمعه عن اشتغال يزيد بشرب الخمر وضرب الطنابير [١] مما لم يسبق لاحد من الخلفاء . فقالت في نفسها اذا لم يكن وراء قتل هذا الرجل الا نزع هذا العار عن الخلافة لكفاني شرفاً بقتله»

أما العجوز فلما رأتها ترفع الغطاء عن رأسها تفرست فيها فرأت الاحمرار قد تعاظم في وجهها حتى توردت وجنتاها واحمرت عيناها وقد ازدادت هيبة وجمالا فسرعت اليها وقبلتها بين عينيها وقالت « هنيئاً لامير المؤمنين متى فاز بنيل هذه القبلة وهنيئاً لك على ما ستحوزينه من المكانة الرفيعة عنده »

---

(١) المسعودي ج ٢ والخميس ج ٢ والفخري

فظلت سلمى ساكتة ولم تبد حرا كا فظنتها لا تزال تشكو الصداع فقالت لها « كيف تشعرين الآن يا بنية »

قالت « اني أحسبني أحسن قليلا »

قالت « وسيزول بقية الالم متى جاس الخليفة الى جانبك الليلة وسمعت ضربه على هذا الطنبور فاننا قد اعددنا لك كل شيء بامره »

ولم تتم كلامها حتى فاحت رائحة البخور وسمعت وقع اقدام خفيفة خارج الغرفة فتحركت في فراشها . فقالت لها العجوز لا تجزعي يا حبيبتي ان الخليفة لم يأت بعد واما الذي تسمعين وقع اقدامه فهو رجل يحمل البخور سيضع مبخرته هنا ويعود . فارخت سلمى خمارها على رأسها ونظرت من خلاله الى القادم فاذا هو رجل عليه قباء من الاطلس الاحمر وعلى كتفه كساء مزركش أصفر وعلى رأسه شاش وعلى كتفه الاخرى مخلاة من الحرير الاخضر ملآنة بعود القاقلي وفي يده مبخرة من الذهب الاحمر فيها نار يلقى فيها عود القاقلي والدخان يتصاعد من المبخرة حتى ملأ المكان برائحة العود . فدخل الرجل بخفة ووضع المبخرة بباب المقصورة وكر راجعاً ولم يبق في الغرفة غير العجوز والمائدة وعليها الاطعمة والاشربة

ثم اشتغلت العجوز بوضع الوسائد حول تلك المائدة وأتت بقوائم من الذهب مغروس في رؤوسها وجوانبها شموع بعضها ابيض والبعض الآخر احمر والبعض اخضر واوقفتها في وسط السماط ولم تشعلها لان الليل لم يقبل بعد

كل ذلك وسلمى مستكنة في الفراش غارقة في الافكار والهواجس وهي ترجو ان لا يحضر مجلسهم تلك الليلة أحد غير يزيد

ولما غابت الشمس همت العجوز بالشموع فانارتها فاضاءت الغرفة ولبثت

في انتظار يزيد . وكانت العجوز تتوقع قدومه قبل الغروب فلما غابت الشمس ولم يأت استبطأته فقالت لسلمى يظهر ان مولانا الخليفة قد شغل عنا وانا لا أظن في الدنيا شيئا يشغله عن هذا المجلس . فاوجست سلمى خيفة من سبب تأخره وحسبت لذلك الف حساب

الفصل الخامس والخمسون

يزيد

ثم سمعتا وقع اقدامه على السلم فقالت العجوز ها انه آت والحمد لله . فلما سمعت سلمى ذكره اختلج قلبها في صدرها وتحققت دنو الخطر العظيم فتجلدت وجلست في الفراش . فقالت لها العجوز انهضي من الفراش الآن ليس هذا وقته واجلسي الى المائدة . ولم تكد سلمى تهم بالجواب حتى دخل يزيد وقد بدل ثيابه بثياب خفيفة وعلى رأسه عمامة صغيرة . فلما أقبل على المائدة رأى سلمى لا تزال في الفراش فقال لها وهو يبتسم غصباً « ألعلك لا تزالين مصدوعة »

فلما سمعت نغمته تفرست في وجهه فاذا هو قد تغير وعلاه الاضطراب فانزعجت وحدثتها نفسها بشيء يضمره وخافت ان يكون قد اطلع على سرها فعلمها بما في نفس شمر بن ذي الجوشن عليها ولم تر بداً من التجلد والتكلف وان لم يكن ذلك من فطرتها . ولكنها كانت كبيرة العقل قوية الارادة فتجاهلت عما يبدو في يزيد من القلق وجلست كأنها تتأهب لمسايرته

اما هو فحالما نظر الى وجهها أشرق وجهه وزال انقباضه وعاد الى هيامه . وكانت العجوز واقفة بين يديه فقال لها على سبيل المزاح « تعالي يا عجوز النحس واملأي هذا القدح من هذا الشراب واعطي سلمى فانه شراب حلو »

فملأت العجوز قدحا من شراب احمر وقالت لها « اشربي انه مصنوع من عصير التفاح فلا تخافي »

فتحيرت سلمى لانها لم تذق تلك الاشربة ولا تريد ان تذوقها ولكنها تناولت الكاس ولبثت تنتظر ما يريده يزيد فاذا هو قد صب قدحاً آخر من زجاجة أخرى فيها شراب اصفر وقال « وهذا من عصير البلح » وشرب فتظاهرت هي بالشرب وصبت الكاس في ثيابها

فلم يستقر الشراب في جوف يزيد حتى غلب عليه الانبساط ودنا من فراش سلمى والطنبور بيده وهو يضرب عليه ويطرب والعجوز تفصل اللحوم وتناوله وتناولها وتصب الاشربة وسلمى تحبب اليه الشرب عساه أن يسكر فيهون عليها الفتك به

وكان شمر مذ علم بعزم الخليفة على الاقتران بسلمى قد نوى على الوشاية بها انتقاماً لما ناله من مجافاتها . فلما رأى موكبًا قادماً الى دمشق وتحقق دخولها القصر ووقوعها من يزيد موقع الاستحسان أخذ في اعداد المكيدة فاغتنم فرصة رأى فيها يزيداً خارجاً وحده من المجلس الى المقصورة فاعترضه وهمس في اذنه « ان عروسك لا تركن الى قلبها فاحترس على نفسك منها » وكان يزيد مسرعاً الى ملاقاة سلمى وقد أخذ الشوق منه مأخذاً عظيماً فاثرت فيه كلمات شمر تأثيراً لم يطل مكثه طويلا . ولم يكد يجلس اليها ويتأمل محياها حتى نسي الوصية وخصوصاً بعد ان دارت في رأسه سورة الخمر ولم يعد يرى من الدنيا شيئاً غير ما في مقصورته

أما شمر فلما طال مقام يزيد مع سلمى في تلك الخلوة ولم يسمع شيئاً جديداً زاد الحسد فيه لئلا تكون سلمى قد تسلطت على قلب يزيد وانستة حاله . وندم لانه لم يصرح له بحقيقة نسبها وانها ابنة عم عبد الرحمن وخطيبته فيتحقق خيانتها ويخاف غدرها . وأصبح شمر عند ذلك لا يهدأ له بال

وفكر في سبيل ينال به بغيته . وهو يعلم منزلة عبيد الله بن زياد من يزيد فسار اليه وكان ابن زياد في غفلة عن علاقة سلمى بعبد الرحمن ولكنه بات كاسف البال لفشله فى خطبته سلمى وقد شق عليه خروجها من يديه ولم يكن أطول من تلك الليلة عنده

الفصل السادس والخمسون

الغيرة

فلما انفض المجلس وعلم عبيد الله بذهاب يزيد الى المقصورة وان سلمى هناك في انتظاره ثارت الغيرة في قلبه وطار النوم من عينيه وكان قد أوى الى غرفته في القصر وتوسد الفراش ولكنه لم يجد الى الرقاد سبيلا . وكلما تذكر سلمى وجمالها وهيبتها وتصور جلوسها الى جانب يزيد وهو يعتقد ضعفه ولا يحترمه الا بالنظر الى منصبه في الخلافة — فكلما تصور ذلك يقشعر بدنه

قضى ابن زياد في غرفته بضع ساعات وهو في قلق شديد يغالب عواطفه ويهون المصيبة عليه ولكنه لم يمالك عن الغيرة وفيما هو في تلك الهواجس دخل عليه خادمه وهو يحسبه نائما فلما رآه مستيقظا قال له « ان شمر بن ذي الجوشن في الباب»

فقال « دعه يدخل » وجلس في الفراش وأمر الخادم فأضاء السراج فدخل شمر وعلى وجهه علامات البغتة والاهتمام

فابتدره عبيد الله بالاستفهام عما وراءه

فقال « لقد أتيتك في أمر ذي بال »

قال « وما هو »

قال « أنت تعلم عزم الخليفة على الاقتران بتلك الفتاة الحسناء »

فلما سمع ابن زياد الاشارة الى سلمى اختلج قلبه في صدره وأصاخ بسمعه وقال « نعم أعلم ذلك ثم ماذا ؟ »

قال « اتعلم من هي هذه الفتاة »

قال « لا أعلم سوى انها غريبة واظنها من العراق »

قال « نعم انها عراقية ولكن من هو أبوها ؟ »

قال « أليس هو ذلك الكهل الذي كان معها في الدير . وهب انه ليس اباها فلا أظن معرفته تهمنا »

قال « ان معرفة والدها تهمنا جميعاً ولو عرف أمير المؤمنين من هو حموه لما اقترب منها . فانه غير الكهل الذي أشرت اليه »

فاستغرب عبيد الله ذلك القول وقال « ومن عسى ان يكون والدها قل يا شمر ... »

قال « انه حجر بن عدي »

ولم يتم كلامه حتى بانت البغتة في عيني عبيد الله وصمت برهة ثم قال « وهل أنت واثق بصدق ما تقول ؟ ... »

فابتسم شمر وقال « اني اعرفها واعرف اباها وعمها وكل أهلها وقد صحبتها ... »

فقطع ابن زياد كلامه قائلا « فيكون عبد الرحمن اذاً ابن عمها ! »

قال « نعم .. وهو أيضاً خطيبها وقد قدما ومعهما الرجل الكهل الذي ذكرته وهو الوصي عليهما . فاقاموا في دير خالد يتربصون للفتك بامير المؤمنين وهذا الذي ساعدني على كشف أمر الرجل وايقاعه في الاشراك وهو يهم بتلك الجريمة »

فبهت عبيد الله وتحقق كلام شمر مما لاحظه من القرائن الاخرى فقال

له « لماذا لم تطلع الخليفة على هذا السر . اني اخاف ان يكون قبولها بهـذا الاقتران مكيدة وأخشى ان تكون عازمة على الفتك بامير المؤمنين خلسة »

قال « لقد لمحت له تلميحاً ولـكنه لفرط شغفه بهـا وشدة سرعته في الذهاب اليها لم يدع لي مجالا للـكلام أو زيادة التفصيل »

قال « لا أستبعد ان تكون ناوية على قتله . وخصوصاً اذا كانت ثابتة في رأيها مثل ثبات ابن عمها وقد شاهدنا ما كان من تصلبه في هذا النهار . أو ان تكون متصلبة مثل والدها وقد قتل بعناده لانه لم يلعن علياً كما تعلم . . ما العمل الآن ؟ . . يجب ان نبلغ الخليفة الامر بصراحة لئلا نلوم انفسنا فيما بعد »

قال « الرأي رأيك ولا بد من المبادرة فيه قبل انقضاء الليل

فاطرق عبيد الله برهة ثم نهض من فراشه بغتة وقال « اليَّ بفتح خصي أمير المؤمنين ... لانفذه اليه الآن »

فاسرع شمر حتى اتى غرفة فتح بباب دار النساء فايقظه ودعاه الى عبيد الله فنهض حتى دخل على ابن زياد وهو يخطر في الغرفة فلما أقبل عليه ناداه ابن زياد فدنا منه فقال له « اذهب الى الخليفة الآن على عجل وقل له اني اريد ان اخاطبه في أمر يهمه »

وضحك فتح وقال « يظهر انك لا تدري اين هو الليلة .. »

قال « بلى اني عالم بمجلسه ولولا ذلك لدخلت انا عليه وكلمته »

قال « وكيف ادخل عليه وهو في مجلس طرب وسرور وقد اوصى ان لا يزعجه احد بشيء . فمن يجسر على الصعود الى المقصورة ؟ . . . حتى ولا انا »

قال « اما أنت فتدخل وهو انما اذخرك لمثل هذه الليلة . وتلك هي مزية الخصيان فامض اليه على عجل لان الوقت ضيق وقل له ان عبيدالله يريد ان

يراك لحظة الآن »

فقال « واذا انتهرني ولم يسمع كلامي ؟ »

قال « خوفه بما شئت . قل له ان عبيد الله يطلب مخاطبتك لاطلاعك على أمر ذي بال يتعلق بالخلافة . . ولكن لا تقل له ذلك على مسمع من احد .. امض يا فتح عاجلاً وسترى أهمية هذه الدعوة »

الفصل السابع والخمسون

البغتة

فاسرع فتح وهو يتعثر باذياله حتى صعد الى المقصورة فرأى الباب مغلقاً فتنصت فسمع يزيداً يضرب بالطنبور ويقهقه . فوقف برهة وقلبه يخفق وخاف أن يغضب الخليفة اذا دعاه . فلبث مدة يتردد حتى كاد ينثني . ثم تذكر الحاح عبيد الله فهان عليه كل شيء فدنا من الباب وقرعه »

وكان يزيد في ابان انبساطه وقد اتكأ الى جانب سلمى وأسند رأسه على صدرها وتمثلت له السعادة بابهج حالاتها . فلما سمع قرع الباب أجفل وجلس وصاح « من بالباب »

فاجابه فتح « انا عبدك فتح »

فصاح يزيد « اذهب فتح الله قبرك لقد ازعجتني »

قال « اني ذاهب ولكنني أتيت بمهمة ذات بال لمولاي امير المؤمنين »

فضحك يزيد وقال له « دع المهمات الى الغد وامض . ولو قرع هذا الباب أحد سواك لقتلته

قال « اني اعلم ذلك يا مولاي ولكنني التمس من امير المؤمنين أن يريني وجهه لحظة ثم يعود »

فنهض يزيد والطنبور بيده وقد وقعت العمامة عن رأسه و وقف بالباب.
فهمس فتح في اذنه « ان عبيـد الله بن زياد بريد أن يكامك في شأن يتعلق بالخلافة »

فقال يزيد « قل له ان موعدنا في ذلك الغد » وهم بالرجوع . فامسكه فتح بيده وقال له « لو استطاع تأجيله لما ازعج مولانا في مثل هذه الليلة وقد استمهلته فالح عليّ أن آتي اليك الساعة . وكنت مستغرق في نومي فايقظني لهذا الامر . ولم آت اليك الا وانا أتوقع انتهارك وغضبـك و لـكنني لم ار بدًّا من المجيء »

فمشى يزيد والطنبور لا يزال بيـده وقد غضب من عبيد الله وعول على توبيخه . ومشى فتح في أثره . ثم أمر فتحاً ان يسبقه ويدعو ابن زياد اليه »

فهرع فتح حتى لقي ابن زياد واستقدمه . فجاء واستقبل الخليفة في دهليز منفرد وقبل ان يتكلم يزيد ابتدره عبيـد الله قائلاً « انا اعلم ابي ازعجت أمير المؤمنين في ساعة طربه . و لـكنني اطلعت على سر لا يصح السكوت عنـه الى الغد الا بالخطر الشديد . فهل يأذن مولاي الخليفة بخلوة ؟ »

فبغت يزيد وسار في اثره الى غرفة فيها شمعة مضيئةوليس فيها احد . فلما خلا به قال « بلغني يا امير المؤمنين ان عروسك التي حملناها اليك اليوم لا تقل خطراً عن عبد الرحمن الذي تعمد قتلك بالامس »

فبغت يزيد وقال « وكيف يكون ذلك »

قال لانها ابنة حجر بن عدي وعبد الرحمن ابن عمها وخطيبها »

قال يزيد « ومن أنبأك بذلك »

قال « انبأني به شمر الذي كشف لنا الدسيسة الاولى فاخشى ان تكون

سلمى هذه انما أتت الى منزل الخليفة لمثل الامر الذي همَّ ابن عمها به والعياذ بالله ؟؟ »

فاطرق يزيد ثم قال « سمعت مثل هـذا التلميح من شمر .. ولـكن ما المانع ان لا تكون هي مثله وخصوصاً بعد أن أتيح لها ان تكون من نسائي »

قال « قد يكون ذلك اذا عرفت قيمة السعادة التي خصها بها امير المؤمنين وقد تكون شريرة متصلبة مثل ابيها وابن عمها وترتكب امراً عظيماً يسوء المسلمون و يهد ركن الاسلام »

قال « كيف نعرف الحقيقة يا عبيد الله »

قال « نعرفها من البحث بين أثوابها عن سلاح او سم او نحوه مما قد يستعان به على مثل ذلك المنكر »

قال « لا يمكن ان يكون معها سلاح اونحوه ولو كان معها شيء من ذلك لظهر لعجوزنا لما بدلت ثيابها في الحمام »

قال « وهل تحقق مولاي دخولها الحمام »

قال « لا ريب من دخولها لأني اوصيتهم ان يدخلوها الحمام وقد سألت العجوز فاجابت ... » ثم توقف عن الحديث وتذكر انه لما سأل العجوز عن حمامها لم تجبه جواباً صريحاً فقال « وسأسأل هذه العجوز ثانية اذا كانت فعلت ما امرتها به فان كانت لم تدخلها الحمام تزداد الشبهة عندي فنفتشها » قال ذلك وهمَّ بالخروج . فاستوقفه عبيد الله وقال « لا يكفي ان تبحث في أثوابها بل ابحث في كل الغرفة فاذا وجدت شيئاً فلا تتسرع في الامر بل كن حازماً مثل ابيك رحمه الله وخذ الامور بالتؤدة والحلم . وها اني متربص حتى يأتيني امر مولاي »

الفصل الثامن والخمسون
كشف المخبأ

وكانت سلمى لما سمعت الخصي يخاطب يزيداً ويلح عليه بالقدوم اليه قد اوجست منه . على أنها لم تتصور انه جاء لمثل ذلك الغرض . وكأن نفسها حدثتها بشر يتهددها فاختلج قلبها واصطكت ركبتاها ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر عودته وقد علمت ان الشراب دار في رأسه ودنا الوقت المنتظر

وكانت العجوز قد انزوت في بعض جوانب الغرفة وغلب عليها النعاس فنامت وقد تدلى رأسها وهي جالسة

فلما عاد يزيد بشت سلمى بوجهه وتوقعت ان يخاطبها أو يجلس الى جانبها فاذا هو يصيح بالعجوز . فافاقت مذعورة وأسرعت اليه فاخذ بيدها وخرج من الغرفة . فلما خلا بها سألها اذا كانت أدخلت سلمى الحمام . فتلعثمت وأقرت له بانها لم تفعل لانها رأتها منحرفة الصحة . فعنفها ولكنه أوصاها بالسكوت ودخل وجلس الى سلمى فظنت لاول وهلة انه عاد الى ما كان فيه وليس هناك ما يوجب الشك . فاذا به قد مد يده الى صدرها وجعل يجس جوانبها فاجفلت وخافت ولكنها ظنته يداعبها . أما هو فتظاهر بمداعبتها ولما لم ير معها سلاحاً قال للعجوز « ألم اقل لك ادخليها الحمام ؟ »

قالت « بلى يا مولاي ولكنها كانت منحرفة المزاج فلم اشأ ان ازعجها »

قال « خذيها الآن وها اني في انتظاركما » وأشار اليها ان تأخذها الى غرفة قريبة في اول الدهليز

فتحيرت سلمى بماذا تجيب ولكنها اطاعته وخرجت مع العجوز وهي لا تخاف الحمام لان الخنجر ليس معها . اما هو فاخذ يفتش في جوانب المقصورة حتى قلب الفراش ؛ رأى الخنجر تحته فلم يبق عنده شك في المكيدة

فجعل ينتفض من شدة التأثر وحدثتـه نفسه ان يقتلها بذلك الخنجر حالا . ولكنه تذكر كلام ابن زياد واسرع اليه والخنجر في يده وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً

اما يزيد فان شغفه بسلمى واعجابه بجمالها هوّنا عليه التماس العذر لها فقال « ولكنني مع ذلك لا أرى ان احكم عليها بمجرد الظن اذ قد يتفقق ان يكون هذا الخنجر هناك بالصدفة وهب أنها كانت متعمدة قتلي فهل تستحيل استتابتها ؟ »

فادرك عبيد الله غرض يزيد واستصوب رأيه لانه عدل فقال « لقد أصاب مولانا والرأي عندي أن نبعث اليها من يستنطقها ويسألها عن هذا الخنجر وسبب وجوده معها فاذا أقرت بجريمتها عنفها وحرضها على التوبة والتماس العفو منك فان فعلت بقيت والا فالخاطر لك »

فقال يزيد « نعم الرأي هذا ولكنني لا آمن ان أعهد بهذه المهمة الى سواك لعلمي بحكمتك ودهائك

فلم يصدق عبيد الله ان اذن له بذلك فاسرع الى الغرفة التي كانت سلمى فيها

وكانت سلمى لما نزلت الى تلك الغرفة والعجوز معها ولم تجد هناك شيئاً من معدات الحمام ادركت ان أمرها لم يبق مكتوماً وانها انما سيقت الى هناك لامر يوجب الخوف فلم تعبأ بشيء وقد يئست من الحيـاة . ولولا الافتكار بعبد الرحمن واملها ببقائه لما ترددت لحظة في الموت . وكانت العجوز ايضاً مندهشة ولم تفهم معنى هذا الانقلاب ولم يستقر بهما المقام هناك حتى جاء ابن زياد وقرع الباب فخرجت له العجوز . فقال لها « اين سلمى »

قالت « وماذا تريده منها »

قال « أريد ان ابلغها أمراً من أمير المؤمنين »

قالت « هي هنا » واشارت الى داخل الغرفة

الفصل التاسع والخمسون

سلمى وعبيد الله

فدخل عبيد الله وقد خبأ الخنجر تحت أثوابه . وكانت سلمى لما سمعت صوته ارتعدت فرائصها وارخت النقاب على رأسها . فلما أقبل عليها وتصور جمالها قال في نفسه « حرام ان يمس هذا الجسم بسوء » فتلطف في الكلام وقال « لقد جئت من قبل مولاي أمير المؤمنين اسألك عن أمر أرجوك ان تجيبي عليه بالصدق

فظلت سلمى ساكتة مطرقة ولكن قلبها اشتد خفقانه . فلما لم تجب مدّ عبيد الله يده الى جيبه واستخرج الخنجر وقال لها « أتعرفين هذا الخنجر يا سلمى »

فلما رأت الخنجر تحققت فشلها وايقنت انها ذاهبة فريسة جسارتها فامتقع لونها وظلت مطرقة لانها لم تجد جواباً تجيب به

فتوسم عبيد الله من سكوتها خيراً وقال لها « يظهر انك نادمة على تهجمك في مثل هذه الحال والعاقل من رأى العبرة في غيره فاعتبر . اما كفاك ما رأيت من فشل عبد الرحمن وطيشه حتى القيت بنفسك الى التهلكة . ولا ريب انك انما فعلت ذلك باغراء بعض الجهال والا فمن كان عنده ذرة من العقل لا يفعل مثل فعلتك . . . يطلبك الخليفة لتكوني عروساً له فتتعمدي قتله وأنت تعلمين ان حوله الجند والرجال ! ! فالى اين تمضين . فاذا قلت انك عالقة بذلك الشاب الجاهل فاعلمي انه قتل وأصبح في عداد الاموات منذ ساعتين .... »

ولم يكن عبد الرحمن قتل بعد ولكن عبيد الله ظن يأسها منه يقرب

رضوخها لـكنه لم يبلغ الى هذا القول حتى شهقت سلمى شهقة أجفل لهـا عبيد الله واطلقت لنفسها عنان البكاء لانها تصورت فشلها وفشل حبيبها وذهاب آمالها ادراج الرياح . فلما سمعت انه صار في عداد الاموات لم تتمالك عن البكاء والنحيب

فلما سمعها عبيد الله تبكي ظنها ندمت على ما فرط منها فجلس بجانبهـا على وسادة وقال بنغمة المشفق « لا تبكي يا سيدتي ولا تخافي فاذا كنت نادمة على ما فرط منك فانا أتوسط لك في العفو لدى أمير المؤمنين واظنه يعفو عنك »

فلم تجب ولـكنها ابطلت البكاء ولبثت صامتة وتزحزحت من مكانهـا لتبتعد عن عبيد الله وقد تحول خوفها الى غضب وأصبحت بعد سماعها بموت عبد الرحمن لا تبالي بالحياة بل هي تتمنى الموت . ولو تحقق عبيد الله من وراء النقاب لرأى عليه امارات الغضب وليس امارات الخوف . ولـكنه حمل سكوتها محمل القبول فقال لها « وانا اضمن عفو الخليفة عنك اذا اقررت بذنبك ولعنت ابا تراب »

فلم تعد سلمى تصبر على ما تسمعه فرفعت رأسها وقالت « امض يا ابن زياد من امام وجهي »

فقال وهو يمازحها « وهل تريدين ان ابعث اليك أمير المؤمنين ليكون العفو على يديه »

قالت « ألا تزال تذكر العفو . . . وممن أطلبه ؟ أمن يزيد بن معاوية دقاق الطنابير ومعاقر الخمور ... وعلى مَ أطلب العفو ؟ . . . ألـكي ابقى حية وأنت تقول انكم قتلتم عبد الرحمن ؟ .. آه منكم .. آه من ظلمكم وعتوكم ... قتلتم عبد الرحمن وجئتم تلتمسون بقائي . اقتلوني فما انا طامعة بالحياة بعد الذين ماتوا قبلي... » قالت ذلك واختنق صوتها وهي تتجلد ولا تريد أن

يبدو الضعف عليها وعبيد الله يعجب بجسارتها . وكان يختلس النظر الى وجهها من خلال النقاب وهي تتكلم فسحر بماء عينيها وملامح فمها حتى اذا هم بمخاطبتها رآها عادت الى الكلام فقالت « ثم انتم تجعلون لعن علي شرطاً على العفو وهو أولى الناس بالفضل .... دعوني من عفوكم والحقوني بعبد الرحمن . الحقوني به ...اقتلوني ... آه يا عبد الرحمن قتلوك قتلة الصالحين ؟ سافكو دماء الابرياء .. لا جرم .. ان لك أسوة بأولئك....» ثم خنقتها العبرات فسكتت

فاجابها عبيد الله وهو يخفف عنها « يظهر انك لم تفهمي حقيقة حالك انك متعمدة قتل الخليفة وهو انما بعثني لاقتلك فشفقت على شبابك وأردت استبقاءك أهكذا يكون جوابك »

قالت « لا جواب عندي غير هذا . اذا كنت آتياً لتقتلني فانا أقول لك اقتلني وما القتل الا من أسباب الراحة عندي اقتلوني . اقتلوني ... »

فقطع ابن زياد خطابها وقال « اتفضلين القتل وخسارة الدنيا والآخرة على ان تلعني علياً أو على ان تستغفري الخليفة وانا واثق بانك لم تقدمي على هذا المنكر الا باغواء بعض الناس و ... »

فقطعت كلامه وقالت « لم يغوني أحد ولكنني تعمدت قتله انتقاماً لابي وابن عمي وسعياً في مصلحة المسلمين . ولم أقدم على هذا الا وانا عالمة بما يتهددني من خطر القتل . فلم اتوفق لما اريد . . فاقتلوني فما انا خير ممن قتلتموه قبلي »

فقال عبيد الله « اني انصحك نصيحة لوجه الله ان تقلعي عن هذا الحمق ولا فائدة من العناد فقد أصبحت وحيدة لا نصير لك الا ان تشفقي على شبابك وتطيعيني . . . اني والله أضن بهذا الوجه المليح أن يعفره هذا التراب »

قالت « لا تضن بشيء لا يضن به صاحبه . . . اقتلني أو اعطني هذا

الخنجر فاغمده في احشائي » قالت ذلك ومدت يدها الى الخنجر فاخفاه عبيد الله وتحقق ان الكلام معها لا يجدي نفعاً فتركها وعاد الى يزيد

الفصل الستون

ان لله جنداً من العسل

وكان يزيد في انتظاره على مثل الجمر وهو يود ان ترجع سلمى عن عزمها وتعتذر وتبقى عروساً له — فلما عاد عبيد الله قص عليه ما بدا منها من الاول الى الاخر فعاد يزيد الى غضبه وقال « قبحها الله من خائنة منافقة »

فلما رآه ابن زياد في تلك الحال قال له « ماذا يرى مولاي ان نفعل بها »

قال « ارى ان اقتلها حالاً بهذا الخنجر »

قال « انها تستوجب القتل . ولكنني لا أرى ان تلوث يدك بدمها ولا ان تجعل أحداً من أهل القصر يعلم بذلك »

قال « وكيف اذن ؟ .. أ أعفو عنها ؟؟ »

قال « اذا عفوت عنها كان ذلك من حلمك وسعة صدرك وكذلك كان يفعل ابوك رحمه الله . فقد كان يسمع الاهانة من نساء بني هاشم ورجالهم فيسكت عنها وهو قادر على الانتقام . وكثيراً ما كان يقربهم ويعطيهم العطيات [1] وهو دهاء امتدحه العقلاء عليه . ولولا ذلك ما هان عليه تأييد سلطانه . فاذا رأيت ان تترفع عن الانتقام من هذه الفتاة وتخرجها من قصرك اتقاء شرها فعلت ما هو جدير بابن معاوية بن ابي سفيان »

قال « اتطلب مني الافراج عن هذه الخائنة بعد ان تحققت عزمها على قتلي » لا أظن معاوية يفعل ذلك في مثل هذه الحال »

---

(١) المسعودي وابن الاثير والعقد الفريد الخ

قال اذا لم يكن السكوت عنها ممكنــاً فافعل ما بدا لك . ولــكنني لا اريد ان يعلم أهل هذا القصر ان هذه الفتاة تجرأت على الفتك بالخليفة لئلا يهون الاقدام على ذلك في عيون الآخرين »

قال « ما العمل اذاً »

قال « قلت لك افعل كما كان يفعل ابوك . فاذا لم يكن من قبيل العفو بالحلم الواسع فعلى سبيل القتــل بالعسل ... ألا تذكر طبيبه النصراني ابن أثال »

قال « بلى »

قال « ألم يكن ابوك يستخدمه في قتل اعدائه سراً بالعسل المسموم »

قال « سمعت ذلك ولــكنني لم أتحققه »

قال « ألا تذكر لما أراد والدك رحمه الله ان يبايعك في حيــاته — ما كان من أمر عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ؟ »

قال « وأي شيء تعني ؟ »

قال « اعني ان اباك لما أراد ان يعهد بالخلافة اليك من بعده جمع اعيان أهل الشام اليه وقال لهم (اني قــد كبرت سني ورق جلدي ودقّ عظمي واقترب اجلي وأريد ان استخلف عليكم فمن ترون) فقالوا (عبــد الرحمن ابن خالد بن الوليد) فسكت وأضمرها ودس ابن اثال الطبيب الذي ذكرته فسقى عبد الرحمن هــذا قدحاً من العسل مسموماً . فمات والناس يحسبونه مات بعلة . وفعل مثل ذلك ايضاً بالاشتر وكان علي بن ابي طالب قد انفذه والياً على مصر بعد قتل محمد بن ابي بكر . فسبر والدك الى دهقان العريش فقال له (ان قتلت الاشتر فلك خراجك عشرين ســنة) فسقاه السم في العسل فمات الاشتر وخلصنا من شره على أهون سبيل . وهكذا فعل ابوك ايضا بالحسن بن علي لما رأى ما كان من حاله في أمر الخلافة فدس الى

جعدة بنت الاشعث زوجة الحسن وقال لها « ان قتلتِ الحسن زوَّجتك يزيداً » فدست له السم فلما مات الحسن بعثت جعدة الى ابيك تطالبه بك فاجابها « اني أضن بيزيد » وقد مات في ايام أبيك كثيرون من اكابر الناس بهذه الحيلة . وكان ابن اثال هو الذي يركب لهم السموم ويمزجها بالعسل (١) فهل كان أبوك عاجزاً عن قتلهم بالسيف ؟ كلا . ولكنه كان يرى السم أهون سبيلاً حتى قال « ان لله جنداً من العسل » فاذا كان لابد من قتل هذه الفتاة فما يمنعك من أن تفعل انت أيضاً مثل فعل ابيك . وما هي الا جرعة تشربها فتموت والناس يحسبونها ماتت بمرض أو نحوه . وهذا طبيبك ابو الحكم عالم بانواع الادوية وله وصفات مشهورة وكثيراً ماكان والدك ايضاً يستطبه ويعتمد عليه في تركيب العقاقير لمثل هذه الغاية ؟

الفصل الحادي والستون

ابو الحكم الطبيب

فلما فرغ عبيد الله من كلامه قال يزيد « اليَّ بابي الحكم في هذه الساعة »

فخرج عبيد الله الى غرفته فرأى شمر وكان في انتظاره هناك فقال شمر « ماذا فعل الخليفة »

قال « لقد كشف المكيدة وحقق قولنا . انعرف منزل ابي الحكم الطبيب النصراني »

قال « اعرف انه بالقرب من هذا القصر »

قال « سر اليه وقل له ان أمير المؤمنين يدعوك اليه الساعة »

---

(١) طبقات الاطباء ج ١

فسار شمر وتحول ابن زياد الى يزيد فرآه جالساً وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً فجعل يهون عليه ويهنئه بالسلامة ومن قوله « نحمد الله انه لطف بمولانا وكشف لنا نيات أعدائنا فلا تطلع الشمس الا وقد قتل هذان الخائنان وارتاحت البلاد من شرهما وما ذلك الا لان الله مؤيد سلطاننا بالرغم من أهل العناد »

فانشرح صدر يزيد وقال « بورك فيك يا عبيد الله وبورك بشمر انه والله ذو فضل علينا وسنوليه عملاً يتمتع به انشاء الله »

وبعد قليل سمعا وقع أقدام بينها خفق نعال رومية فعلما أن الطبيب قادم . ثم دخل شمر وهو يقول « ان الطبيب بالباب » فامر بدخوله

وكان ابو الحكم شيخاً تدلت على صدره لحية بيضاء وبان الهرم على وجهه من تجعد بشرته وقد تزمل برداته على عجل ووضع القلنسوة على رأسه بغير نظام لسرعة قدومه . فحيا الخليفة ووقف بين يديه فابتدره يزيد قائلا « اجلس يا ابا الحكم » فجلس

فقال يزيد « أتدري لماذا دعوناك »

قال « كلا يا مولاي »

قال « دعوناك لنستعين بعلمك على مقاصة الخونة أهل الغدر »

قال « اني وما أعلم بين يدي أمير المؤمنين »

قال « هيء لنا جرعة عسل قاتلة واسقها في الفجر القادم لفتاة تراها جالسة مع عجوزنا في المقصورة . واحذر أن يعلم أحد بذلك »

قال « العجب يا مولاي كيف تحذرني من هذا الامر وانت تعلم اني طالما كنت افعل مثله بامر أبيك ولم يعلم به أحد »

قال يزيد « فامض الآن واعد العقاقير واستعن بحبيبنا عبيد الله على ذلك »

فوقف الطبيب وقبل يد الخليفة وخرج ومضى الخليفة الى فراشه وسار عبيد الله الى غرفته . وقد سر شمر بنفوذ بغيته

الفصل الثاني والستون

عامر

فلنترك ابا الحكم يهيء جرعة العسل . ولنعد الى عامر وما كان من أمره بعد خروجه من الدير . فانه خرج بالرغم عنه وقلبه معلق بسلمى خوفاً عليها مما عرضت نفسها له من الخطر العظيم . فاستظل في مكان يشير على المارة حتى رأى موكب سلمى ماراً الى دمشق فانصدع قلبه وندم على مجاراتها وتحقق وقوعها في الفخ وذهابها هي وعبد الرحمن ضياعاً

لبث مستظلاً في الغوطة حتى توارى الموكب . فلم يعد يستطيع صبراً عن تتبع الخبر فمشى نحو دمشق وهو يفكر في سبيل يدخل به دار الخليفة ويستطلع أحوال عبد الرحمن وسلمى . وما زال ماشياً حتى دخل دمشق فسار الى المسجد وهو يعلم ان دار الخليفة بجانب المسجد . فلما أقبل على الجامع رأى الصلاة قائمة ويزيد يخطب في الناس . فسجد مع الساجدين وأخذ يتفرس في الوجوه لعله يرى أحداً يعرفه ليستعين به أو يسترشده أو يستشيره فوقع نظره على شاب واقف بازاء اسطوانة من اسطوانات المسجد يسمع الخطبة . وخيل اله لاول وهلة أنه يعرفه . فتفرس فيه جيداً فتذكر انه رآه في غير ذلك المكان وما لبث ان عرفه وهو الفرزدق الشاعر الشهير . وكان يومئذ في اول العقد الرابع من عمره لم يتزوج نواراً بعد . وكان سبب معرفة عامر به ان غالباً ابا الفرزدق جاء الى الامام علي بعد واقعة الجمل بالبصرة (سنة ٣٦ هـ) ومعه ابنه الفرزدق وكان صبياً وقال لعلي « ان ابني هذا من شعراء مضر فاسمع

منه » فاجابه علي « علمه القرآن » [١] وكان عامر حاضراً في ذلك المجلس واعجب بغيرة الامام على الدين . ثم شاهد الفرزدق بعد ذلك باعوام في الكوفة وقد صار شاباً فذكره بما قاله الامام فقال الفرزدق « ان تلك الكلمة ما زالت ترن في اذني وقد قيدت نفسي عن الشعر فآليت ان لا اقول الشعر حتى أحفظ القرآن »

وكان عامر يعلم ان الفرزدق متشيع لاهل البيت سراً فرأى أن يستعين به في الامر . فلما انقضت الصلاة وتفرق الناس سار في اثره فرآه يعرج نحو القصر فاعترضه وأوقفه وحياه فعرفه الفرزدق ورحب به فطلب الخلوة به . فمشيا الى منزله فلما خلوا شكا له عامر حاله حتى بكى . فاستغرب الفرزدق حكايته وقال « ما العمل الآن وما الذي أستطيعه . ان الواقعة مشكلة . ولا يستطيع أحد التظاهر بهذا الامر كما تعلم . ولو شاورني عبد الرحمن لاشرت عليه بالسكون لان الامر قد استتب لهؤلاء . ولا حيلة في النجاة من ايديهم فلا يفيدنا التمرد شيئاً »

فتنهد عامر وقال « وهو لم يقدم على ذلك برأيي ولكن لا خيرة في الواقع وانما أريد منك ان تصحبني معك الى مجلس الخليفة فاقف ببابه في جملة الشعراء لعلي اسمع ما يجري على عبد الرحمن من المقادير »

قال الفرزدق « اني اجعلك راويتي » وكان الشعراء في الجاهلية واوائل الاسلام يصطحبون الرواة حيثما رحلوا ولكل شاعر راوٍ خاص يحفظ شعره أو يروي له أقوال الآخرين فاذا دخل الشاعر على الخليفة دخل راويته معه وجلسا متحاذيين [٢] فاستحسن عامر الرأي فتنكر بلباس الراوية وخرج مع الفرزدق حتى دخلا دار الخليفة ووقفا مع سائر الشعراء ولم يأذن يزيد للشعراء بالدخول عليه في ذلك اليوم كما تقدم . واما عامر فكان يستطلع

(١) الاغاني ج ١٩ (٢) الاغاني

الاحوال ويتنسم الاخبار فشاهد عبد الرحمن بعينه لما ساقوه مغلولا للمرة الاولى ثم جاء بعض الذين كانوا معه وقص ما ظهر من بسالته وهو معجب بذلك

ولما استقدموه للمرة الثانية وجاء المخبر بعد رجوعه قص ما كان من الامر بقتله ٠ فوقع عامر في حيرة وبحث عن الحجرة التي سجن فيها فعلم انها حجرة واطئة كانت في عهد الرومانيين حماماً يغتسل به والي دمشق ٠ ولم يعد عامر يستطيع صبراً وهو يفكر في حيلة ينقذ بها عبد الرحمن ثم يفكر في سلمى

الفصل الثالث والستون

السرداب

وفيما هو يعمل فكرته تذكر الشيخ الناسك فاستأذن الفرزدق وخرج مسرعاً الى الغوطة حتى أطل على الدير فالتمس الناسك عند الجوزة حيثما لقيه المرة الاخيرة فسمع نباح الكلب قبل وصوله اليها فاستبشر وأسرع الى الجوزة فرأى الناسك متكئاً فوق قبر حجر ولما سمع نباح الكلب جلس ونظر الى عامر . فلما عرفه ارخى شعره على عينيه وصاح به « اين سلمى »

قال « انها يا سيدي في قصر يزيد لا أدري ما آل اليه حالها وانما جئتك في أمر ذي بال لا اخال أحداً يفرجني فيه سواك »

قال « قل واتكل على الله »

فقص عليه حديث عبد الرحمن باختصار حتى اتى الى آخر الكلام فقال « وفي هذا الليل يقتلونه ... سيقتله شمر اللعين بيده فما العمل ؟ .. »

فظل الشيخ الناسك مطرقاً ولم يجب . فسكت عامر ايضاً املا ان

النساك وأصحاب الكرامات لهم مناجات خصوصية يستخيرون الله بها . ثم قال الناسك « ألم تعلم أين سجنوا عبد الرحمن »

قال « بلى يا مولاي انه مسجون في الحمام القديم في قصر يزيد » .

فرفع الناسك رأسه وقال « ابشر بالفرج يا عامر ... ولكن يجب ان تكون رجلاً وتتشدد وتكابد الخطر في انقاذ عبد الرحمن »

فقال « اني مستعد ان افديه بروحي .... »

قال « أتعرف الكنيسة جيداً »

قال « وأي كنيسة يا مولاي »

قال « كنيسة النبي يحيى التي جعل المسلمون نصفها جامعاً وهي بجوار القصر »

قال « نعم أعرفها وقد كنت في صباي اذا جئت مع اهلي الى دمشق صليت فيها ونحن يومئذ على دين النصرانية مثل سائر اهل كندة »

قال « لا يخفى عليك ان الجامع والكنيسة والقصر متلاصقة ومجاورة »

قال « نعم يا سيدي »

قال « ادخل الجزء الباقي للنصارى الذي يصلون فيه ولا حرج عليك في الدخول . ولكن يجب ان تحتال في البقاء بالكنيسة الى الليل . فاذا امنت العيون امش الى جانب المحراب فتجد هناك رخامة مشغولة بالفسيفساء على شكل اسد . فاذا رفعت هذه البلاطة رأيت سلماً قصيراً يؤدي الى سرداب تحت الارض فامش في ذلك السرداب وأنت تتجسس الجدران بيدك واجعل اعتمادك على اليد اليسرى . فلا تمشي بضع دقائق حتى تقبل على باب صغير يستطرق الى الحمام . فاذا توفقت للوصول اليه وعبد الرحمن باق حل قيوده وعد به في نفس السرداب واجعل هذه المرة يدك اليسرى دليلك فيطول بك المسير في اثناء رجوعك فلا تخف لانك تصل بعد طول المشقة الى مكان خارج سور المدينة . فاذا نجوتما تعاليا اليَّ »

وكان الناسك يتكلم وعامر متطاول يصغي لقوله فاستبعد اتفاق ذلك وخاف ان يعتمد على هذه النصيحة فيقضي بقية اليوم في الانتظار ثم لا يجد سرداباً ولا سبيلاً وتكون الفرصة قد فاتت . فاراد ان يتحقق نجاح مسعاه فقال « هل يسمح لي مولاي بسؤال »

قال « لا تشك يا عامر في ما اقوله لك ولا تظن قولي من قبيل الظن أو الحلم . ولكنني اعرف المكان جيداً وامثال هذه السراديب كثيرة في دمشق واكثرها كان اقنية للماء من عهد الروم ثم اعتاضوا عنها باقنية اخرى جديدة فظلت تلك السراديب خالية . ولا اخفي عنك انك قد تلاقي مشقة كبيرة في تخطي هذا السرداب لانه مهجور من زمن قديم فربما انسد في بعض اجزائه أو تهدم في البعض الآخر ولذلك قلت لك ان هذا العمل يحتاج الى شجاعة واقدام »

فاطمأن بال عامر وتحقق وجود السرداب ولم يعبأ بما يحول دون المسير فيه ونهض فقبل يد الناسك وهو لا يرى وجهه . فقبل الناسك رأسه ودعا له بالتوفيق فاستبشر عامر بدعائه لاعتقاده بكرامته وأسرع الى دمشق وسار تواً الى الكنيسة وهو يعرف مدخلها ويسهل عليه التظاهر بالنصرانية لانها ما زالت قريبة العهد منه

الفصل الرابع والستون

الكنيسة

وصل عامر الى الكنيسة ساعة الغروب فاشتم رائحة البخور وسمع اصوات المنشدين وهو لا يزال في صحتها فعلم ان الناس في الصلاة . فدخل في جملة الداخلين ولم ينتبه له أحد لان امثاله كثيرون من نصارى البادية

وا كثرهم من عرب غسان فكانوا اذا نزلوا دمشق دخلوا كنائسها وسمعوا الصلاة فيها . وكان الغسانيون قد أسلم معظمهم على أثر الفتح اما فراراً من الجزية واما تزلفاً الى المسلمين . ولكن جماعة كبيرة منهم كانوا لا يزألون على النصرانية وقد اقاموا في البلقاء وحوران وكانوا يأتون دمشق للاستبضاع أو نحوه فيدخلون الكنائس ليتبركوا بالصلاة وهم لا يفهمون منها شيئاً الا من كان يعرف اليونانيــة منهم . وكان في دمشق كنائس اخرى غير هذه

فلما دخل عامر كنيسة ماري يوحنا المشار اليها لم يستغرب أحد دخوله فالتمس مجلساً منزوياً جلس فيه والصلاة قائمة والاناشيد تصدح والبخور يتصاعد وهو يفكر في حاله وما هو مقتحمه من الخطر الشديد —ولم يكن يبالي بالخطر لو انه واثق بنجاح مسعاه

ونحو العشاء انقضت الصلاة وتفرق الناس فتظاهر هو بالنعاس والضعف. فلما خلت الـكنيسة من المصلين وصعد القسيسون الى غرفهم دار الخادم (القندلفت) على الشموع وجعل يطفئها . فلما رآه عامر يفعل ذلك ورأى الظلام يتكاثف تذكر سردابه وما قد يكون فيه من الظلام الحالك فقال — لا بد لي من مصباح أو شمع استضيء به في طريقي . فعول على سرقة بعض الشموع مما على المذبح ولـكنه ما زال خائفاً من الخادم . وفيما هو يفكر في ذلك دنا الخادم منه وكلمه مستفهما عن غرضه . وكان الخادم من أهل دمشق وقد تعلم العربية . فقال له عامر « اني رجل مريض وقد نذرت أن ابيت الليلة تحت صورة القديس يوحنا لعلي ابرأ من دائي »

فاستحسن ايمانه ولـكنه استطال الاقامة معه طول الليل لانه مأمور باقفال الـكنيسة قبل انصرافه فقال له « ولـكنني اريد اقفال الـكنيسة »

فقال عامر « اذا كنت خائفاً مني فاقفل البــاب وخذ مفتاحه معك

ودعني انام هنا الى الصباح لاني قد بدأت اشعر بالراحة فعسى أن ينفعني ايماني »

فلم ير الخادم بأساً من بقائه طالما كانت البيعة مقفلة ومفتاحها معه فسايره ولكنه بالغ في مسايرته فجاءه بريت من زجاجة مقدسة كانت في حق أمام ايقونة العذراء ودهن به رأسه وقال له ان بركة العذراء تعجل شفاءك . فتظاهر عامر بالنوم فدعا له الخادم بالشفاء وتركه واقفل باب الكنيسة وخرج الى غرفته

وصبر عامر برهة وهو ينظر الى الكنيسة وعلو سقفها وما تعلق بها من المصابيح والشموع وكلها مطفأة الا مصابيح صغيرة معلقة أمام الايقونات الكبري وفي بعض الايقونات صور كبيرة بقطع الآدميين ظهرت له مجسمة وزادها فراغ المكان تجسماً ورهبة فاقشعر بدنه وخيل له ان تلك الصور اشباح حية ترقب حركاته وابصارها كلها مصوبة نحوه . ثم تذكر عبد الرحمن وما هو فيه من الخطر فهب من متكأه واصاخ بسمعه فلم يسمع صوتاً ولا حركة فتحقق نوم الناس وقد مضى هزيع من الليل

الفصل الخامس والستون

السرداب

وكان قد راقب البلاطة التي وصفها له الناسك فمشى الى جانب المذبح حتى وقف بقرب البلاطة فتأملها فاذا هي كبيرة وليس فيها مكان يمسك به ولا شق تسند الانامل اليه فاستل خنجره وعالج مكان اتصالها بما يجاورها وما زال يعالجها حتى تزحزحت فتوسم قرب اقتلاعها فاخذ يهتم بشمع يحمله معه ليستنير به في ذلك السرداب وكله من الشمع الاصفر . فحمل شيئاً منه في

جيبه واستبقى واحدة اشعلها من مصباح ورفع البلاطة بلباقة وخفة لئلا يسمع لها صوت ولم يكد ينقلها حتى أحس بنسيم بارد خرج من السرداب وفيه رائحة عفنة فاستبشر بسهولة الطريق لانه كان خائفاً من الاختناق . فنزل على درجات من الحجر والشمعة في يده حتى وصل قاع السرداب فغاصت قدماه في بقايا مياه وأوحال وحام البعوض حول الشمعة ولم يخط بضع خطوات حتى جاءته نسمة قوية اطفأت الشمعة فاظلم السرداب فرمى الشمعة ومشى وهو يتجسس ويتلمس ويساره على الحائط وقد أحس برطوبته وقلبه يخفق ولا يسمع غير طنين البعوض ولا يرى شيئاً لشدة الظلام تارة يغوص في الاوحال وطوراً يعثر بالاحجار حتى انتهى الى مكان جاف فاسرع فيه وهو يحملق بعينيه ويصيخ بسمعه لعله يرى بصيصاً او يسمع حفيفاً

وفيما هو في ذلك سمع صوتاً بعيداً لم يفهمه لبعده فاسرع في خطواته ويده اليسرى على الحائط والصوت يقرب منه حتى عثرت رجله بحجر فوقف وتفرس في المكان وتجسس الارض بانامله فاذا هو عند آخر السرداب وامامه درجات لا بد له من صعودها . وقبل أن يخطو عليها رأى نوراً ضعيفاً خارجاً من شقوق باب صغير في أعلى السلم وسمع قائلاً يقول « لا تهددني بالقتل فاني لا اخاف الموت »

فعلم عامر انه وصل الى السجن وعرف صوت عبد الرحمن فصعد الدرجات حتى دنا من الباب ووضع عينيه على شق فيه وحدق في ما هنالك فرأى رجلاً واقفاً كان بيده مصباح فوضعه على حجر بارز من احد الجدران ودنا من رجل آخر جالس والاغلال في يديه ورجليه . وتفرس عامر في الرجل الواقف فعرف من بياض برصه انه شمر ورأى في يده سيفاً مسلولاً وعرف ان الجالس عبد الرحمن . ولم يكد عامر يراهما حتى سمع شمر يقول « يا للعجب من وقاحتك ووقاحة ابنة عمك ! ! أنت تقول اقتلوني لا ابالي وهي تقول

كذلك وانما مقتولان لا محالة . . . قتلت سلمى في هذه الساعة وأتيت لاقتلك . . ولكنني قبل ان اخرج هذه الروح النجسة اطلب اليك بامر امير المؤمنين ان تلعن علياً فاذا فعلت علمت انك نادم على ما فرط منك من تعمد قتل الخليفة . . »

الفصل السادس والستون

التهديد

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال « أتخوفني يا شمر بقتل سلمى وهي بعيدة عنكم لا تنالها اسيافكم »

فضحك شمر وقال « أقول لك انك جاهل مغرور ولا تصدقني . انني قد سقت سلمى الى هذا القصر في هذا الصباح ليتزوجها الخليفة وقد ماتت منذ ساعة . .وان شئت ان اخبرك كيف ماتت فاقول لك انها تجرعت السم بالعسل. وأما انت فسأميتك بحد هذا السيف » قال ذلك وهز السيف بيده فاهتزت اعضاء عامر وتحفز لخلع الباب ولكنه رأى شمر وقف ولم يقترب من عبد الرحمن

اما عبد الرحمن فلما تحقق موت سلمى صاح صيحة قوية وتململ والاغلال تمنعه من الحركة . فسمع عامر صلصلة اغلاله ثم سمعه يقول « تباً لكم يا اهل الغدر . أتقتلون سلمى وتلتمسون بقائي ثم تكلفونني على هذا البقاء لعن خير الناس بعد الرسول . . . تكلفني يا شمر لعن علي . . . . آه . . ما العمل وقد قيدتم يديّ ورجليّ والموت اقرب اليّ من حبل الوريد . . ولكنني لا اخاف منه . . عجل بقتلي يا انذل الناس . . لألاقي حبيبتي في مكان لا غدر فيه

ولا خيانة ... ولكن .. يا ليتهم اختاروا جلاداً غيرك لأني اكره أن اموت بسيف نذل لئيم مثلك .. »

فقطع شمر كلامه وهز سيفه واجابه بفتور وصوت منخفض وهو يبتسم « لم يختاروا غيري لهذه المهمة وسأقتلك بهذا السيف الصقيل ... »

فصاح عبد الرحمن « اقتل قتلك الله ... ولو ابقيتم على سلمى لكنت آسف على الحياة من اجلها ولكنكم ارسلتموها الى النعيم قبلي فالحقوني بها .. آه يا سلمى يا ابنة حجر بن عدي .. قتلوك ولحقوك بابيك .. قتلوك آه ما أقسى قلوبهم .. اقتلني يا شمر .. ولكن تمهل قليلا . دعني اندب حبيبتي. دعني ابكي سلمى خطيبتي قبل ان افقد الشعور ولا استطيع ندبها .. اعوذ بالله من شروركم .. كيف تقتلون فتاة طاهرة ؟ . . أما تخافون الله . أما تخافون ذلك الموقف الرهيب . . هل بكيت يا سلمى على حبيبك قبل موتك ؟ هل تعلمين اني لاحق بك على عجل ؟ . . »

فابتدره شمر قائلا « قد علمت سلمى انك مت قبلها او انك مائت بعدها وقد كنت عازماً على استبقائك برهة لاتلذذ بعذابك ولكنني أراك تطلب البقاء لتندب حبيبتك فما أنا مبقٍ عليك . . وها انيقاتلك الساعة فاختر لك موتة » . قال ذلك ووخزه برأس السيف في كتفه وهو يقهقه . فصاح فيه عبد الرحمن « اضرب يا شمر اقتل اضرب عنقي .. » قال ذلك وحرق اسنانه ثم قال « آه لولا خوفي من أن تقول خاف عبد الرحمن من الموت لاستمهلتك لأندب سلمى »

وكان عامر ينظر ويسمع وهي اول مرة سمع فيها بقتل سلمى وكان يحسبها في أمان . فلما سمع بقتلها ورأى ما رآه من شمر خاف أن يسبقه شمر بالسيف فيقتل عبد الرحمن فتضاعف العصبية فاسند ظهره الى جانب الباب وتجمع بكليته وخنجره مسلول بيده ورفس الباب رفسة كسره بها ووثب حتى وقف

في وسط الحجرة . فاجفل شمر ووقع السيف من يده فهمَّ أن يلتقطه فابتدره عامر بالخنجر وطعنه في جنبه فوقع يختبط بدمه فظنه عامر قد مات وتحول الى عبد الرحمن وحل قيوده وكسرها وعبد الرحمن مبهوت وهو يحسب نفسه في منام ولا يدري ما يقول وعامر لم يزد على قوله « لا تخف يا عبد الرحمن جاءك الفرج » وسكت وهو يشتغل بحل القيود ولم يبق في الحجرة صوت غير انين شمر وهو ملقى على الارض

الفصل السابع والستون

خطر آخر

فلما فرغ عامر من حل القيود قال له « اتبعني » وعاد الى السرداب . فمشى عبد الرحمن في اثره فقال له عامر امسك بذيل ردائي . فامسك بذيله ومشيا وهما يلتمسان الحائط الى اليسار وعبد الرحمن لا يزال يحسب نفسه في منام . فقضيا في السرداب زمناً طويلا ولم يخرجا الى النور فظن عامر انه اخطأ الطريق ثم احس بانحباس الهواء عنهما وضاق تنفسهما فحدثته نفسه أن يعود ثم تذكر قول الناسك وما انذره به مما سيلاقيه من المشقة والخطر فعول على الاستمرار في طريقه حتى اشتد بهما الضيق وأوشكا أن يختنقا من كثرة العفونة وقلة الهواء . ولحظ عبد الرحمن تلبكه فقال له « لا تأسف على حياتنا يا عماه . . . لا بأس من موتنا معاً في هذا السرداب لا يعلم بنا احد فاني لا ارى الحياة عزيزة بعد موت سلمى واما انت . . . »

فابتدره عامر قائلاً « ولا انا احب البقاء بعدها ولكنني لا احب ان نموت قبل الانتقام من هؤلاء الاشرار .. وا أسفاه أرانا في خطر الموت اذا لم يدركنا منفذ نتنفس منه الهواء ... »

فقال عبد الرحمن « دعنا نموت يا عماه . يا ما احلى الموت فانه يقربنا من حجر وابنته ... لا تأسف على الحياة بعدهما .. ولكنني احب قبل الممات ان اعلم كيف قتلوها وما الذي اوصلها اليهم وكيف وقعت في الفخ » .

فقص عليه عامر كل ما وقع له مع سلمى من بعد ذهابه وعبد الرحمن يعجب بشهامتها ويتنهد ويحرق اسنانه حتى أتى على آخر الحديث .

وفيما هما في تلك الحال سمعا خبطاً على سطح السرداب فوقهما كانه نبش بالمعاول . فقال عامر « اني اسمع نبشاً فعسى ان يكون الله قد فتح علينا » فاصاخا بسمعيهما واذا بصوت النبش يتعاظم وبعد قليل رأيا التراب يتساقط عليهما فتقهقرا الى الوراء ثم انفتحت كوة في السقف دخل منها نور ضئيل كأنه نور الفجر وجرى النسيم فانتعشا . فقال عامر « لقد فتح الله علينا باباً للفرج » وهمّا بالمسير فسمعا جلبة وفيها صوت رجل يقول لرفيقه « انهم ابوا ان يدفنوها الا في هذا الفجر وما ضرهم لو صبروا الى الصباح »

فاجابه الآخر « يظهر انك لم تفهم السر يا أحمق ألا تعرف عادة الخليفة في مثل هذه الحال ؟ »

قال « وما هي عادته يا فصيح »

قال « ان هـذه المسكينة لم تمت موتاً اعتيادياً ولكنهم اماتوها بالسم واظهروا انها ماتت بالمرض وكم من مرة جئت بمثل هذه المهمة في ايام معاوية فقد كان اكثر ارتكاباً لهذا المنكر وكلما أراد قتل رجل سقاه قدحاً من العسل وامر بدفنه والناس يحسبونه مات بعلة ... ولكننا قلما رأينا ذلك في النساء كما فعل ابنه ... »

فقال ذاك « وماذا عسى ان يكون من امر هـذه الفتاة وهي عروس الخليفة ولم تأت قصره الا في صباح الامس .. »

فقطع الآخر كلامه وقال « ما لنا ولكثرة الكلام دعه يقتل من أراد

ونحن نحفر القبور والله يطالب بالذنوب ... »

وكانا يتكلمان ويشتغلان في النبش فما احسا الا والمعول وقع في السرداب فصاح احدهما « اني اراني فوق بئر وأخاف ان يصعد الينا منها عفريت او جان . . . »

الفصل الثامن والستون

النجاة

وكان عامر لما سمع الحديث ادرك انهما صارا تحت المقبرة خارج المدينة وعلم انهم يحتفرون قبر سلمى وعلم عبد الرحمن ذلك ايضاً فاحب ان يتكلم فامسكه عامر بيده وأشار اليه ان يسكت ريثما يخرجان من السرداب . فحبس عبد الرحمن نفسه ولكن الرطوبة والهواء غلبا عليه فعطس عطسة دوى لها السرداب فاجفل الرجلان وصاح احدهما « ألم اقل لك ان المكان مسكون..؟ هنا بنا قبل ان تدركنا العفاريت » قال ذلك وفر وتبعه رفيقه ولم يمض قليل حتى خلا الجو من الاصوات

فمشى عامر وعبد الرحمن حتى خرجا من السرداب وتلفتا فاذا هما في مقبرة خارج المدينة وقد لاح الفجر فاسرعا في الخروج من المقبرة وعبد الرحمن يود البقاء ليرى سلمى ولو ميتة وعامر يلح عليه بالخروج لئلا تدركهما الشرطة ويهون المصيبة عليه . حتى اذا بعدا عن المدينة واوغلا في الغوطة لجأا الى شجرة في مختبأ وقال عامر « ارجع يا بني الى رشدك واصبر ان الله مع الصابرين .. اننا شريكان في المصيبة يا بني . . . هيا بنا الى الشيخ الناسك فانه في انتظارنا قرب الدير فوق قبر حجر .... »

فقال عبد الرحمن « وسلمى ؟ .. أأتركها ؟ .. اتركها وحدها بين هذه

القبور ؟ ... » قال ذلك وغلب البكاء عليه فبكى وشاركه عامر في البكاء ولكنه تجلد وقال له « تعقل يا عبد الرحمن وتدبر الامر بالحكمة . ان بقاءنا هنا او ذهابنا الى المقبرة او رجوعنا الى الشام لا يفيدنا شيئاً . فقد كنت والحق يقال في شك من مقتل حبيبتنا سلمى وكنت عازماً على البحث عنها وقد تأكدنا وقوع المصيبة فلم يعد لنا فائدة من البحث ... فاذا كنا رجالاً صبرنا صبر الرجال وانتقمنا لقتيلنا بما يشفي غليلنا .. »

فقال عبد الرحمن « نعم ننتقم ولكن بماذا .... اني لا ارضى الانتقام لسلمى الا بقتل قاتلها الذي يسمي نفسه خليفة ... ان قتله والله عوض قليل عن حبيبة قلبي .. روحي .. ابنة عمي .. سلمى .. آه ... كيف اتركها تدفن وانا حيّ وهي انما استقبلت الموت من أجلي . ولولاي لم تدخل قصر يزيد ولا اصابها ما اصابها .. حتى انها لم تتركنا وهي ميتة ... ألم يكن قبرها وا لهفي عليها سبباً لنجاتنا من الموت ؟ .. لو لم يأت هؤلاء لحفر قبرها ألم نكن قبرنا قبلها ؟ .. نعم يا ليتني قبرت وكان قبري تحت قبرها .. فنكون متجاورين وبعد قليل تختلط عظامنا وتمتزج بقايانا كما امتزجت روحانا .. »

قال ذلك وخنقته العبرات فاطلق له عامر حريته ولم يلمه لما يعلمه من خصال سلمى وهو يرى انها اهل لاعظم من ذلك. وبعد قليل عاد الى التخفيف عنه فقال « ان سلمى تستحق اكثر من هذا ولو قتلنا انفسنا فداء عنها لما وفيناها حقها . ولكن ذلك القتل يسر اعداءنا . واما اذا تدبرنا الامر بالحكمة وسعينا للانتقام بتعقل ودراية وفزنا بثأرنا فان عظام حبيبتنا تنتعش من اعماق القبر . . » قال ذلك وتذكر ما اوصته به لما فارقها في الدير فالتفت الى عبد الرحمن وقال « ارعني سمعك لابلغك وصية سلمى لك يوم سارت الى يزيد »

فقال « قل .. حدثني عن سلمى ماذا قالت ... »

قال « لما ودعتها في ذلك اليوم قالت لي — اذا انا مت و بقي عبد الرحمن حياً فحيه عني وقل له ان سلمى فضلت الموت في سبيل حبك على البقاء بعدك و اذا بقيت انت حياً فان عظامها تتهلل في اعماق القبر »

فصاح عبـد الرحمن « اتموت هي في سبيل حبي واراهم يحفرون قبرها فاهرب ؟ »

الفصل التاسع والستون

الحسين وابن الزبير

فابتدره عامر قائلاً « ولـكنها قالت ان بقائك حياً بعدها يفرح قلبها وهي في القبر هيا بنا الى الشيخ الناسك نستشيره انه والله ذو فضل علينـا ولولاه لم اتوفق الى انقاذك واني لا أشك في ولاية الرجل وكرامتـه » قال ذلك وقام . فقام عبد الرحمن ومشيا في اطراف الغوطة بحيث لا يشعر بهما احد حتى اقتربا من الجميزة . فرأيا الناسك راقداً فوق قبر حجر . وقبـل وصولهما نبح الـكلاب فجاس النـاسك وتطلع فلما رآهما قادمين ارخى شعره على وجهه ونادى عبـد الرحمن فلباه وهو يبكي ويقول « ما بالك لم تسألنا عن سلمى »

فوقف الناسك على قدميه وصاح « ماذا فعلوا بها ... لا ... لم يقتلوها »

فقال عبد الرحمن « صدقت انهم لم يقتلوها بالسيف ولـكنهم قتلوها بالعسل .. قتلوها يا مولاي ... »

فاطرق الشيخ الناسك ويده على لحيته وهو ينتفض ويرتعد وقال « ومن اخبركم بذلك » فقص عليه عامر الواقعة كما حدثت

فقال « ان الله لا ينصر القوم الظالمين »

فقال عبد الرحمن « ارشدنا يا شيخنا ... اننا لا نرى سبيلا الى الحياة بغير الانتقام ... الانتقام ... آه ما احلى الانتقام »

فبهت الشيخ هنيهة ثم قعد وهو يقول « اخرجا من هذه البلاد لم يبق لكما فيها مأرب »

قال عبد الرحمن « كيف نخرج منها وقد دفنوا سلمى فيها »

قال « اخرجا الى شركائكما في الثأر . اخرجا الى مكة فان فيها ابن بنت الرسول وهو المطالب بالخلافة وهي حق له وحده . اذهبا اليه على عجل وانصراه فاذا فاز بها يتم لكما الانتقام ... ان البقاء هنا لا يجديكما نفعاً والامر اعظم مما تظنان ... »

فقال عامر « وكيف ذلك يا مولاي . ماذا حدث »

قال « لا ازيدكما علما ان يزيداً هذا لما مات ابوه وقام يدعو الناس الى بيعته كان الحسين معه في المدينة وغيره من ابناء الصحابة وفي جملتهم عبد الله بن الزبير بن العوام . وكان عامل يزيد على المدينة يومئذ الوليد بن عقبة بن ابي سفيان (ابن عمه) فكتب الى الوليد يخبره بموت معاوية ويطلب اليه أن يأخذ البيعة من الحسين وعبد الله بن الزبير . فوصله الكتاب وعنده مروان بن الحكم فاستشاره في الامر فقال مروان ارى ان تدعوهما الساعة وتأمرهما بالبيعة . فبعث اليهما وكانا في المسجد فلما وصل اليهما الرسول واخبرهما بطلب الوليد قالا انصرف الآن نأتيه . وقال ابن الزبير للحسين ما تراه بعث الينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها . فقال الحسين أظن طاغيتهم قد هلك فبعث الينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر . فقال وانا ما اظن غيره فما تريد ان تصنع . قال الحسين . اجمع فتياني الساعة ثم امشي اليه وأجلسهم على الباب وادخل عليه . قال عبد الله اني اخاف عليك اذا دخلت . قال الحسين لا آتيه الا وانا قادر على الامتناع .

ثم قام وجمع اليه اصحابه وأهل بيته حتى اقبل على باب الوليد وقال لاصحابه اني داخل فاذا دعوتكم او سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليَّ باجمعكم والا فلا تبرحوا حتى اخرج اليكم . ثم دخل الحسين على الوليد فسلم ومروان عنده . فقال الحسين الصلة خير من القطيعة والصلح خير من الفساد وقد آن لكما ان تجتمعا اصلح الله ذات بينكما . وجلس . فاقرأه الوليد الكتاب ونعى له معاوية ودعاه الى بيعة يزيد فاسترجع الحسين وترحم على معاوية وقال — أما البيعة فان مثلي لا يبايع سراً فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الامر واحداً . فقال له الوليد (وكان يحب المسالمة) انصرف . فقال مروان للوليد : اذا فارقك الساعة ولم يبايع ما قدرت منه على مثلها ابداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه أحبسه فان بايع والا ضربت عنقا . فوثب عند ذلك الحسين وقال يا ابن الزرقاء أأنت تقتلني ام هو كذبت والله ولو مت. ثم خرج حتى اتى منزله . فقال مروان للوليد .عصيتني لا والله لا يمكنك من نفسه بمثلها ابداً . فقال الوليد والله يا مروان ما احب ان لي ما طلعت عنه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وان قتلت حسيناً ان قال لا ابايع والله اني لا أظن امرءاً يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة . قال مروان قد أصبت — قال هذا وهو غير حامد له على رأيه

« وأما ابن الزبير فلما اتاه رسول الوليد قال الآن آتيكم . ثم اتى داره فتمكن فيها ثم بعث اليه الوليد فوجده قد جمع أصحابه واحترز فألح عليه الوليد وهو يقول امهلوني . فبعث اليه الوليد مواليه فشتموه وقالوا له يا ابن الكاهلية لتأتين الامير أو ليقتلنك . فقال لهم والله لقد استربت لكثرة الارسال فلا تعجلوني حتى ابعث الى الامير من يأتيني برأيه . فبعث اليه اخاه جعفر بن الزبير فقال جعفر للوليد رحمك الله كف عن عبد الله فانك قد افزعته وذعرته

وهو يأتيك غداً ان شاء الله تعالى فمر رسلك فلينصرفوا عنه . فبعث الوليد اليهم فانصرفوا وخرج ابن الزبير من ليلته فاخذ طريق الفرع هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث وسارا نحو مكة . فسرح الوليد الرجال في طلبه فلم يدركوه فرجعوا وتشاغلوا به عن الحسين ليلتهم . فقال لهم الحسين أصبحوا ثم ترون ونرى فكفوا عنه فسار من ليلته . وكان مخرج ابن الزبير قبله بليلة وأخذ معه بنية واخوته وبني أخيه وجل أهل بيته »

قال الشيخ « وقبل ان يخرج الحسين من المدينة اشار اليه اخوه محمد بن الحنفية ان يدعو الناس الى بيعته ويصبر على ذلك . فلما أتى مكة تقاطر اليه الناس ليبايعوه ولكن بعض الناس أشار عليه أن يقدم الكوفة ويستنصر أهلها . واشار عليه آخرون بالبقاء في مكة يستظل بالحرم لان أهل الكوفة لم يفلحوا في نصرة أبيه من قبله . وأظنه بعث ابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة ليرى رأيهم في قدومه اليهم . فاذا تمت له بيعتهم وجاء الكوفة فيبايعه العراق والحجاز فيتم له الامر ويفشل يزيد وفي فشله انتقام كاف لكما.فاذهبا الى مكة وانصرا الحسين انه أولى الناس بهذا الامر وحثا الناس على نصرته وعلى خلع يزيد والله ينصركم أجمعين »

فلما سمعا قوله استحسناه ونهضا للحال فودعاه فبكى لوداعهما وقبل رأسيهما وهما لم يريا وجهه فاوصاهما بسرعة الخروج من الشام لئلا يعلم بهما يزيد أو أحد رجاله

الفصل السعبون

تجرع السم

فلنتركهما في طريقهما الى مكة ولنعد الى دمشق لنرى ما تم لسلمى بعد أن امر يزيد بتجريعها العسل . وذلك ان الخليفة لما افترق عن عبيد الله والطبيب وسار يلتمس فراشه مر بالحجرة التي كانت سلمى فيها وكانت العجوز واقفة بالباب تنتظر أمره فاشار اليها ان تنقلها الى المقصورة وتحتفظ بها هناك

وكانت سلمى بعد خروج عبيدالله بن زياد من عندها قد ايقنت بفشلها وتحققت وقوعها في الشراك ولكنها أصبحت لا تبالي بالحياة بعد ما سمعته عن مقتل عبد الرحمن . على انها كانت تود ان تنتقم له قبل موتها . وراجعت ما مر بها من الاهوال في تلك الليلة فرأت انها لو استطاعت الكظم واطاعت يزيداً وسايرته في ما التمسه منها من لعن علي لتمكنت من الفتك به ولكنها رأت تلك المداهنة فوق طاقتها وعلى غير السجايا التي فطرت عليها فلم تندم على كلمة قالتها

وفيما هي تردد تلك التصورات في ذهنها دخلت عليها العجوز واستأذنتها في اصطحابها الى المقصورة فاطاعتها وهي لا تبالي بما هنالك من الموت أو الحياة . فمشت في اثرها حتى صعدتا الى المقصورة فدخلت سلمى وظلت العجوز بالباب

وقعدت سلمى على ذلك الفراش ونظرت الى ما بين يديها من آنية الخمر والشموع والفاكهة وتذكرت جلوس يزيد الى جانبها وما دار بينه وبينها من الحديث وكيف انها بعد ان كادت تصيب مرامها منه عادت العائدة اليها . ثم

تذكرت حبيبها وتصورته مقتولاً يختبط بدمه فاقشعر بدنها . واستغرقت في التأملات وهي لا تدري ما سيصير اليه أمرها

وفيما هي في ذلك سمعت وقع اقدام على السلم فخفق قلبها خفوقاً سريعاً وابثت تتوقع ما يكون واذا برجل دخل المقصورة وعليه العباءة والعمامة وفي يده قدح . فلما رأته اطرقت وظلت صامتة . فدنا الحكيم منها وقدم لها القدح وهو يقول « اشربي هذا العسل بامر أمير المؤمنين فانه قد ينعشك »

فادركت انه مسموم فتناولته و يدها ترتعش وقالت « سأشربه وانا اعلم انه سم قاتل فلا تطمئني بل قل لي اشربي هذا السم »

قال « وكيف عرفت انه سم وانا أقول لك انه عسل »

قالت « انا أعلم انه سم . . وارجو أن يكون كذلك . لانه اذا اماتني اراحني من هذه الحياة . . فقل انه سم ليطمئن بالي واعلم اني لاحقة بحبيبي على عجل » قالت ذلك وخنقتها العبرات

فتأثر الحكيم لكلامها ولكنه تعود ان لا يكون حساساً فتظاهر بالاستخفاف وقال « اشربيه مهما يكن من أمره اذ لا بد من شربه »

فرفعت يدها وهي قابضة على القدح وقالت « اني أشرب هذا السم باسم الله وارجو أن يلحقني بالامام علي وان يقربني من ابي وابن عمي » ثم نظرت الى القدح وقالت « بورك فيك من دواء قاتل وسم محيٍ .. اني اشربك باسم الحق والعدل وأطلب الى الله أن ينتقم لي ولابي ولابن عمي من هذا الرجل الظالم » وأدنت القدح من فمها ثم ارجعته وقد غلب عليها الضعف ونظرت الى ما حولها كأنها تودع الدنيا ومن عليها . ثم قالت « ألا تروني عبد الرحمن ولو مقتولاً ؟ . . بالله أروني اياه قبل موتي لابكيه واندبه . ايموت عبدالرحمن على قيد اذرع مني ولا أراه ؟ .. أهذا عهدي بك يا عبد الرحمن .. اين انت وكيف قتلوك . . هل قتلوك بالعسل أم بالسيف . بماذا ؟ . . تعال وانظر

خطيئتك وهي تتجرع السم بلذة وشوق لأنه سيجمعها بك .. هل علمت قبل موتك انك ستلاقيني عاجلاً ؟ هل انبأوك قبلما قتلوك بانهم سيقتلونني الآن؟.. يا ليتهم أخبروك بذلك فتتأسى بقرب لقائي. والا فانك تموت وأنت مشتاق للقائي .. »

ثم وقفت وقد هاجت عواطفها وتبدلت حالها وظهر الهياج في عينيها وقالت « هل قتلوك حقيقة ... لا .. لا .. لم يقتلوك .. اظنهم شفقوا على شبابك ! . ولكنهم قوم طغام لا يعرفون الشفقة ولولا ذلك ما استهانوا بالنبي وقتلوا نخبة الصالحين من أهل البيت فلا غرو اذا قتلونا .. نعم انهم قتلوك . قتلوك . اين انت يا عامر . ياعماه أين انت هل تعلم بمصيري وهل انت حافظ وصيتي ؟ .. ماذا يكون من أمرك اذا سمعت بقتلي ومقتل حبيبي ؟ . هل انت ذاكر وعدك ؟ امض الى تربة ابي وابكه عني واسكب عليه الدموع ومزق الضلوع بل ابك الاسلام واندب حال المسلمين لما اصابهم من الحيف بخروج الخلافة الى هؤلاء الظالمين .. »

وكانت تتكلم والحكيم واقف لا يبدي حراكاً وقد ظل صامتاً وهو يعذر الفتاة ويعجب بشهامتها وقوة عارضتها

اما هي فادنت القدح من فمها ثانية ونظرت الى ما فيه ثم التفتت الى الحكيم وقالت « اخشى أن يكون السم قليلا لا يكفي لقتلي فاتعذب . فاذا كان قليلا اضف اليه سماً آخر . »

فقال الحكيم بهدو « اشربي يا بنية ولا تطيلي الكلام فقد نفد الوقت وفات الاجل الذي ضربه الخليفة لي »

قالت وهي تهز رأسها وتحرق اسنانها « أتخاف هذا الرجل الظالم ولاتخاف الله .. أتركب العقاقير القتالة لقتل الابرياء ثم تخاف من لوم يزيد اذا تأخرت في قتلهم ؟ . ولكنكم تضافرتم على الظلم وتحالفتم على الخيانة . ويل لكم من

مشهد يوم عظيم . في مكان لا ينفعكم فيه سلطانكم ولا جنودكم . يوم تأتي الساعة وينفخ في الصور فتقفون بين يدي الديان العظيم ...

فقطع الحكيم كلامها وقال « لا تكثري الكلام واشربي القدح عاجلا »

فقالت « اني اشربها ولا أخاف منها . لانها ترياق لمصابي . ولكن اريد ان أرى عبد الرحمن . اين هو . آه . قتلتموه . نعم قتلتموه . ولكن ماذا فعلتم بذلك الجسد الطاهر هل مثلتم به . هل دفنتموه ام بقي مطروحاً . آه اني ارى اعضاءه تختلج ودمه يجري وكأني اسمع شخيره في اذني . هل ذكرتني يا عبد الرحمن قبل موتك . هل ذكرت سلمى . هل تمنيت أن تراها قبل موتك . يا ليتهم قتلونا معاً ودفنونا في قبر واحد فتمتزج دماؤنا وتختلط عظامنا . ويا ليتهم يدفنونا بجانب حجر بن عدي فنشكو له ما لقيناه وما يقاسيه المسلمون وما يتوقعه الاسلام من الفوضى ولكننا سنلتقي به عما قليل فى مكان لا وشاية فيه ولا ظلم ولا رياء ونبث له الشكوى لقد أزفت الساعة وآن لي ان الاقيكما . استودعك الله ايها العالم الفاني . استودعك الله ايتها الحياة الزائلة . انك مملوءة بالشرور ولاعدل فيك ولا حق ... » ثم ادنت القدح من فمها وهي تقول « اشرب هذه الكأس باسم الله » وشربتها جرعة واحدة ويدها ترتجف واستلقت على الفراش وهي تتلو الفاتحة وتردد اسم عبد الرحمن

الفصل الحادي والسبعون

لم تمت ولكنها نائمة

ولم تمض برهة حتى غابت عن الدنيا وشفتاها تتحركان كأنها تخاطب عالم الارواح وقد امتقع لونها وبردت أطرافها فخرج الحكيم وأغلق الباب ونزل . وكانت العجوز قد نزلت ساعة دخوله

أما هو فظل سائراً الى غرفة عبيد الله بن زياد وكان في انتظاره على مثل الجمر فدخل عليه وأغلق الباب وراءه فقال له ابن زياد « ماذا فعلت ايها الحكيم »

قال « لقد سقيتها العسل »

قال « وهل فعلت ما وعدتني به »

فضحك وقال « وما الذي وعدتك به »

قال « ألم اطلب اليك ان تبدل السم بالبنج وجعلت لك جعلا على هذا الجميل ؟ »

قال وهو يضع يده على كتف عبيدالله « نعم اني وعدتك بذلك وهكذا فعلت فالفتاة لم تمت ولكنها نائمة » ومد يده الى جيبه واستخرج قارورة وقال « واليك هذا العقار في هذه القارورة فاذا سقيتها اياه افاقت . ولكن احذر ان تبقيها بعد استفاقتها فيعلم أمير المؤمنين بها وتعود العائدة عليّ »

قال « لا تخف من ذلك لأني سأخبر الخليفة بموتها وابعث من يحفر قبرها ثم ابعثها الى مكان خارج المدينة وهي نائمة كأنها محمولة الى القبر ومتى استفاقت ابقيها خارج دمشق حتى أسافر فاحملها معي ولا يعلم بها أحد سواي. وانا لم أرد استبقاءها الا لاملي بارجاعها عن عزمها فاذا فعلت ذلك رضي امير

المؤمنين عني وعنك وشكرنا على هذا الصنيع لانه قد أعجب بجمالها ولولا غضبه الليلة لم يأمر بقتلها . ولا شك انه اذا أصبح ندم على ما فعله اما أنت فابق على كتمان ذلك ولك مني فوق ما أعطيك »

فشكره الحكيم وانصرف

وكان عبيد الله بعد ان أمر يزيد بقتل سلمى قد خلا بالحكيم واسترضاه بالمال الكثير على أن يبدل السم بالبنج حتى اذا احتال في اخراجها من القصر الى التربة ذهب بها الى مكان منفرد اقامها فيه واسترضاها لعلها تقبل به زوجاً لها . وكان لا يزال عالقاً بها وامله كبير في استرضائها . فلما أخبره الحكيم بما فعله سار تواً الى يزيد وانبأه بموتها فقال له « ابعث من يدفنها قبل طلوع النهار » فامر اثنين من رجاله أن يكفناها و بعث اثنين آخرين لحفر القبر . واوصى الاولين ان يحملاها الى مكان منفرد خارج المدينة حالاً وتظاهر انه أرسلها الى المقبرة

وعاد اللذان حفرا القبر قبل الفجر مذعورين لما رأياه من خروج عامر وعبد الرحمن وهما يحسبانهما عفريتين فقصا الخبر على عبيد الله فامرهما أن يقصاه على الخليفة لعله يستطيع الاستعانة بذلك اذا علم الخليفة ببقائها حية فيما بعد . ففعلا

الفصل الثاني والسبعون

المسلمون في الكوفة

وفي صباح اليوم التالي أبطأ يزيد في الخروج الى المجلس لانه قضى ليله الماضي ساهراً فنام في الصباح ولم يستفق الى الظهر فجاء الى المجلس وعبيد الله غائب ولم يكد يستتب به الجلوس حتى دخل عليه الحاجب وهو يقول « ان

بالباب رسولاً من الكوفة »

قال « فليدخل »

فدخل رجل عليه علامات السفر وبيده كتاب فسلم ودفع الكتاب الى يزيد فتناوله وفضه فاذا هو من عبد الله بن مسلم أحد اشياع بني امية في الكوفة فقرأه واذا فيه بعد البسملة :

« الى امير المؤمنين يزيد بن معاوية من عبد الله بن مسلم اما بعد : اعلم يا امير المؤمنين ان الناس في الكوفة والبصرة قد ضعف امرهم بضعف اميرهم النعمان بن بشير فقد وليته الكوفة وهو رجل ضعيف أو هو يتضعف حتى كاد الامر أن يفضي الى أعدائنا فاذا كان لك حاجة في الكوفة فارسل اليها رجلا قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك . وتفصيل الخبر ان اهل الكوفة لما بلغتهم وفاة معاوية رحمه الله وامتناع الحسين وعبد الله بن الزبير عن البيعة ارجفوا بامير المؤمنين واجتمعت شيعة علي في منزل أحد كبارهم فذكروا مسير الحسين الى مكة وكتبوا اليه كتاباً قالوا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذي لا اله الا هو . أما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي ابتزى على هذه الامة فابتزها أمرها وغصبها فيأها وتأمر عليها بغير رضا منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وانه ليس علينا امام فاقبل لعل الله ان يجمعنا بك على الحق . والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا عيد ولو بلغنا اقبالك الينا اخرجناه حتى نلحقه بالشام ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » وسيروا هذا الكتاب الى الحسين في مكة وبعثوا اليه كتباً اخرى في مثل ذلك . وكان جملة ما أرسل من هذه الكتب نحواً من مئة وخمسين صحيفة . وأرسلوا اليه رسلا عديدة فجاءهم من الحسين كتاب قال فيه « أما بعد فقد فهمت كل الذي اقتصصتم وقد بعثت اليكم باخي وابن عمي وثقتي

من أهل بيتي مسلم بن عقيل وامرته ان يكتب اليّ بحالكم وامركم ورأيكم فان كتب اليّ انه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم اقدم اليكم وشيكاً ان شاء الله . فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام » وقد حدث مثل ذلك يا امير المؤمنين في البصرة ايضاً . اما الحسين فانه ارسل الى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل وأمره اذا رأى الناس مجتمعين على بيعته ان يعجل اليه ويخبره بذلك . وقد جاء مسلم الى الكوفة بعد ان قاسى في طريقه عذاباً عظيماً من العطش ونحوه ونزل في دار من دور اشياع الحسين وصارت الناس تختلف اليه وهو يقرأ عليهم كتب الحسين فيبكون ويعدونه بالقتال والنصرة . فلما بلغ ذلك النعمان بن بشير صعد المنبر وقال « اما بعد فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال واني لا اقاتل من لم يقاتلني ولا اثب على من لا يثب عليّ ولا انبه نائمكم ولا اتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم ان ابديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم امامكم فوالله الذي لا اله غيره لاضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ولا يكن لي منكم ناصر ولا معين اما اني أرجو ان يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يريد به الباطل » فلما رأينا كلامه لا يفيد القطع ولا يدل على الحزم قام اليه واحد منا وقال له « ان هذا لا يصلح الا الغشم وانه رأي المستضعفين » فلم يكن جوابه الا قوله « اكون من المستضعفين في طاعة الله أحب اليّ من ان اكون من الاعزين في معصيته » فزادنا قوله خوفاً منه فكتبت هذا ليكون امير المؤمنين على بصيرة ويعلم ان ابن بشير لا يصلح لهذا الامر فارسل الينا من يعمل مثل عملك [1] والسلام »

---

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل الثالث والسبعون

عبيد الله على الكوفة

فلما قرأ يزيد الكتاب تغيرت حاله وتشاءم بما ارتكبه بالامس وخيل له انه أذنب بقتل سلمى وهي فتاة وندم على فعله وأراد صرف مجلسه ليخلو ببعض خاصته فقال « على بركة الله » فعلم ارباب المجلس انه يريد صرفهم وتلك كانت عادته كلما أراد ذلك [١] فانصرفوا . ثم بعث الى سرجون وهو رجل رومي ذو دهاء وحكمة كان معاوية يعتمد عليه في شؤونه ويستشيره في أموره حتى جعله كاتبه [٢] فلما مات معاوية ظل يزيد على ثقته في سرجون فلما اشكل عليه امر هذا الكتاب استقدمه اليه وخلا به وأطلعه على الكتاب فاطرق هنيهة ثم قال « أرأيت اذا نشر معاوية هل كنت تأخذ برأيه ؟ »

قال « نعم »

فمد سرجون يده الى جيبه واخرج كتاباً وقال « خذ هذا »

فاخذه يزيد وقرأه فاذا هو عهد لعبيد الله بن زياد يوليه به الكوفة

فقال يزيد « وما هذا »

قال « هذا رأي معاوية فانه مات وقد امر بهذا الكتاب »

فاستحسن يزيد الرأي وعول على ان يولي ابن زياد الكوفة والبصرة فنادى الحاجب فسأله عن عبيد الله فافتقده في القصر فلم يجده فصبر حتى جاء ودخل وسلم [٣] فدفع يزيد كتاب عبد الله بن مسلم اليه ولم يقل شيئاً

---

(١) العقد الفريد ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٤ (٣) وفي التاريخ ان هذا الخبر لما جاء الى يزيد كان ابن زياد في الكوفة وكان يزيد متغيراً عليه

فتناول ابن زياد الكتاب وقرأه حتى أتى على آخره وسكت وهو مطرق ثم دفع يزيد اليه كتاب العهد له على الكوفة والبصرة فلما قرأه قبله ووضعه على رأسه وقال « اني صنيعة امير المؤمنين ويده التي يحارب بهـا وسهمه الذي يرمي به اعداءه »

فقال له « سر الى الكوفة واصلح امورها وامنع اولئك الناس منها وكن لي كما كان ابوك لابي »

فقال « سمعاً وطاعة » وقد سره ذلك بنوع خاص لخروجه من دمشق سريعاً فيخلو له الجو ولا رقيب له على سلمى

وكان قد بعث سلمى سراً قبل الفجر الى بيت منفرد في اطراف الغوطة كما تقدم ثم سار هو في الصباح اليها وسقاها العقار الذي اعطاه اياه الحكيم وانزوى في بعض اطراف الغوطة . فلما افاقت ورأت النور وهي لا تزال في طور السكر ظلت برهة مبهوتة لا تدري ما تقول وعبيد الله لا يخاطبها وفي اعتقاده انها اذا افاقت ورأت نفسها حية تعترف له بذلك الجميل . فلما افاقت تبادر الى ذهنها لاول وهلة انها بعثت من الموت وانها في العالم الثاني فصاحت « اين عبـد الرحمن ... اين هو . اروني اياه ... هل انا في النعيم ؟ .. عبد الرحمن ! عبد الرحمن ! .. »

فضحك عبيد الله

فلما سمعت ضحكته التفتت اليه وهي تفرك عينيها باناملها وحالمـا رأته صاحت « أنت هنا يا لئيم ! ! . اني اذاً في الجحيم . . . . اذهب من أمام عيني . . »

فدنا عبيد الله منها وأمسك بيدها وقال « أنت في هذه الدنيا يا حبيبتي وقد استبقيتك شفقة عليك »

فجذبت يدها من يده وصاحت « اخسأ يا نذل . . اني لا أريد الحياة

الا اذا كان عبد الرحمن فيها . . اقتلني .. اقتلني .. قتلك الله . . اشفق عليَّ واقتلني ... »

فعذرها لتهيجها وقال لها « اني أعاملك بما تستحقينه لانك جاهلة وسأصبر عليك ريثما تملكين روعك وأنت أسيرة بين يدي لا ينجيك من غضبي غير الرضا والاذعان . فامكثي هنا حتى ترجعي الى رشدك أو تموتي » قال ذلك وتركها وحدها وأمر الرجلين أن يخفراها ريثما يعود

فلما رجع الى دمشق ولقي يزيداً وقد ولاه الكوفة والبصرة كما قدمنا استبشر بنيل مرامه على مهل وعلل نفسه باسترضائها في أثناء الطريق الى الكوفة

الفصل الرابع والسبعون

خرائب تدمر

قضى عبيد الله بضعة ايام وهو يتأهب للمسير وأعوانه يهيئون الاحمال خارج دمشق وفي جملتها هودج حمل سلمى فيه على جملين واقام عليها خادميه خفيرين يقدمان لها الطعام والماء . وكانت في بادىء الرأي لا تقبل طعاماً ولا شراباً التماساً للموت جوعاً وعطشاً حتى نحل جسمها وامتقع لونها وضعفت عزائمها . ولكن الحياة عزيزة لا يتعمد المرء خسرانها عن روية وصبر وانما هو اذا أصيب بضنك شديد فضل الموت على الحياة في حال حدته وغضبه فاذا طال اصطباره حنَّ الى البقاء والتمس لحنينه عذراً يحبب الحياة اليه . فلما مضى على سلمى يومان بلا أكل ولا شرب ورأت الموت لا يأتيها في هذا السبيل الا بعد العذاب الطويل عادت الى الفطرة البشرية فالتمست البقاء وعذرها في التماسه أن تعمل على الانتقام في سبيل آخر لا خطر فيه على

حياتها . علمت من قرائن الاحوال انهم سائرون بها الى الكوفة وان الحسين سائر اليها أيضاً وان الناس في الكوفة على دعوته . فتوسمت في البقاء خيراً وأملت ان تحيا حتى تنتقم لوالدها وخطيبها فجعلت تتناول من الطعام والشراب ما تسد به رمقها

وكان عبيد الله في أثناء مسير الركب يتردد الى سلمى . تارة يستعطفها وطوراً يهددها وآونة يؤملها وأخرى يخوفها وهي ترفضه رفضاً باتاً . وكثيراً ما كانت تسمعه كلاماً مؤلماً وهي تعلم أن الجفاء لا يجديها نفعاً وانها لو عاملته بالحسنى واستخدمت اللين والدهاء نالت بغيتها . ولكنها لم تكن تستطيع التغلب على انفتها . وكانت من الجهة الاخرى تخاف اذا سايرته في الكلام أن تطمعه في ما تخافه وتنفر منه

قضت في مثل ذلك خمسة ايام والركب سائرون في الصحراء نحو الشرق والشمال في ارض لا عمارة فيها ولا مياه الا بعض الآبار . وسلمى تشغل نفسها في اثناء الطريق بالاشراف من الهودج على ما يحيط به من السهول القاحلة والرمال الحمراء التي تنتهي بالافق وحوله هالة من لامع الآل . على انها كثيراً ما كانت تتحاشى شق الستور فراراً من الرياح الحارة وما تحمله من الرمال . وأشرفوا في صباح اليوم الخامس على بقعة منبسطة ادهشها منظرها حتى نسيت ما هي فيه من الامور العظام . رأت بقعة من الارض مساحتها بضعة أميال قد غطتها ابنية خربة وفيها الجدران العالية والاساطين الشامخة والاسوار الغليظة بين متهدم ومتداع وقد استولى عليها السكوت وتمكن منها الخراب كأنها جثث بالية أو عظام أكلها الدود — على أن حجارتها كانت تنطق باجلى بيان عما كان هنالك من العظمة وشدة البطش في قديم الزمان

تلك هي خرائب تدمر الطائرة الصيت . تدمر العظيمة التي زهت في

أوائل النصرانية وسارت بذكرها الركبان وقد كانت واسطة عقد التجارة بين العراق والشام حتى اذا تداعت الى الخراب جعلوها موقفاً للقوافل في أثناء الطريق بين هذين البلدين

عمرت تدمر في اوائل القرن الثاني للميلاد على أثر سقوط دولة الانباط في شمالي جزيرة العرب وغربيها فاستولى عليها الرومان سنة ١٣٠ م فازهرت واتسعت تجارتها وكانت مع ذلك مستقلة بشرائعها وأحكامها يتولى النظر في شؤونها مشيخة من أهلها . ومد الرومان بينها وبين دمشق طريقاً تسير فيه المركبات وعليها اصناف التجارة من الانسجة والآنية والمؤونة . وبنى التدمريون في مدينتهم ابنية على طرز يعرف بالطرز التدمري اقاموها على الاساطين المنحوتة وفوقها التماثيل من الحجر الابيض المحمر . ويقطع المدينة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي طريق واسع في اوله قوس نصر بجانب هيكل هائل يعرف بهيكل الشمس أشبه شيء بهيكل بعلبك — وطول الطريق الف وثلثمائة متر تحف به الاعمدة من الجانبين في رواقين عدد اساطينها الف وخمسمائة اسطوانة لونها ابيض مائل الى الحمرة . وفي الاروقة دكاك أو مساطب مستطيلة كانوا يسندون اليها الاحمال الواردة الى تدمر من اقاصي المعمورة وفيها طرود (بالات) الحرير والديباج الدمشقية وصناديق الآنية اليونانية وجلود الماشية المحمولة من جزيرة العرب على جمال يسوقها بدو من أهل الحجاز . واحمال من جرار الزيت من فلسطين — يوم كانت أسواق تدمر تعج بالمارة عجيجاً وهم اخلاط من الامم المتمدنة في ذلك العهد وفيهم النخاسون من مصر وآسيا الصغرى والتجار من الفرس والشام والارمن . والمرابون والصيارف من اليهود . ناهيك بباعة السلع الضعيفة يحملون سلعهم على اكتافهم ينادون عليها في الدروب والحارات فتختلط اصواتهم بنداء الدلالين على الملح . لان الملح كان من أعظم تجارات هذه المدينة

الفصل الخامس والسبعون

العبرة والموعظة

ولو اتيح للقارىء أن يزور تلك المدينة في أيام مجدها على عهد الملكة زينوبا في القرن الثالث للميلاد لبهره ما كان فيها من دلائل الترف والبذخ وعلم من الفرق البعيد بين قصورها وا كواخها ان الثروة كانت منحصرة في فئة من أهلها وان تمدنها كان شرقياً لا رومانياً. ولا يونانياً . وكأن التدمريين تشبهوا بقدماء المصريين في استبقاء مجدهم بعد موتهم فبنوا لانفسهم قبوراً كالقصور شادوها بالاحجار الهائلة في اكناف المدينة فكانت قبورهم مدينة أخرى سكانها من الاموات . ولو بعث التدمريون بعد ذلك ببضعة قرون لرأوا قصورهم أشد وحشة من قبورهم

اشتهرت تدمر فى اواسط القرن الثالث للميلاد بالملكة زينوبا فطمع بها الرومان في الغرب والفرس في الشرق وقامت الحرب بينهما سجالاً حتى تغلب الرومان فملكوها ولكنها لم تدم لهم ولا لغيرهم فلم يمر بها أجيال حتى أصبحت في زوايا الاهمال وتحولت قصورها الى خرائب وصارت هياكلها حجوراً للضب والحية وأوكار للطير . ونعق على منابرها البوم بدل خطابة الخطباء ووعظ الوعاظ

ولو عقل ابن زياد يوم أشرف على تلك الخرائب وعرف تاريخ تلك الآثار لعلم مصير الانسان وانه لا يبقى له من مجده الا ما كسبت يداه من خير أو احسان وقال مع الامام علي « ان الدنيا دار أولها عناء وآخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن » وخجل لما ارتكبه هو وولي أمره من ضروب الاعتساف وهان

عليه أن يطلق سراح اسيرته شفقة على صباها ورحمة بما في قلبها من لوعة الحزن على حبيبها عبد الرحمن

ولكنه جهل ذلك أو تجاهله واندفع بتيار الشهوات ولم يزدد في تلك الخلوة الا قسوة ولم يعد يصبر عن نيل بغيته حتى يصل الكوفة فامر بحط الرحال ونصب الخيام فنصبوها على مرتفع يشرف على تلك الخرائب الناطقة وفيها بقايا الاسواق والهياكل والقصور والقبور . وأمر أن يقيموا هناك يوما كاملا يستريحون فيه ثم يرحلون . وأناخ هودج سلمى في مكان منفرد عن معسكره بقرب هيكل الشمس وشغل أعوانه بانزال الاحمال ومشى الى سلمى وكانت جالسة كئيبة تتأمل في حالها وتصبر نفسها الى بلوغ الكوفة ولم يخطر ببالها ما نواه ابن زياد . فلما وصل خيمتها أمر الخفر أن يبتعدوا ففعلوا فدخل واذا هي جالسة على بساط وقد أثر السفر والتعب والحزن في جسمها فهزلت وامتقع لونها ورقت وجنتاها وذبلت عيناها وأصبحت العبوسة طبيعية فيها

الفصل السادس والسبعون

الفتك

فلما رأته داخلا قرأت الشر في وجهه فاستعاذت بالله . وكأنه أدرك خوفها فتلطف في سؤالها عن حالها فلم تجب . فقال لها « قومي يا سلمى واتركي الخيمة وادخلي هذا القصر وتأملي في صنعه »

فادركت انها اذا امتنعت ساقها بالعنف فسايرته ومشت حتى دخلت الهيكل فاعجبت بما رأته من سعته وارتفاع جدرانه وكثرة اساطينه . فان مساحته كانت نحو مئتي متر مربع وجدرانه من حجارة هائلة علوها سبعون قدماً لا يزال معظمها قائما . وفي صحن الهيكل أساطين ضخمة متشامخة

متراصة في صفوف متداخلة يزيد عدد الاساطين على مئة وخمسين اسطوانة ما عدا المتساقط والمتهدم

فلما رأت نفسها في تلك الخربة المائلة مع ابن زياد وليس معهما ثالث ارتعدت فرائصها وتحققت وقوع المحظور . وكان الضعف قد تمكن منها ولم تعد تقوى على الدفاع فاصطكت ركبتاها وعجزت عن المشي فاسندت نفسها الى اسطوانة بجانبها حجر كبير جلست عليه وهي ترتعش . فادرك عبيد الله حالها فعمد الى الرفق بها فجلس الى جانبها وهو يحاذر أن يلمسها لئلا تجفل وقال لها « أتعلمين يا سلمى أنك وحيدة في هذا المكان وان حياتك بيدي ... ؟ وأني نائل منك ما أريد ولو بلغ صراخك عنان السماء اذ ليس هنا من يسمع صوتك غير هذه الاحجار . وقد طالما نصحتك وأنت تدافعينني وأنا أعاملك باللين واللطف حتى طفحت الكأس وآن لك ان ترعوي . فما ضرك لو اقلعت عن جهالتك وأصغيت لنصيحتي وأطعتني فتكونين زوجتي وأنت تعلمين اني يد أمير المؤمنين وسيفه الذي يناضل به وقد ولاني الكوفة والبصرة فاذا عقلت وأطعتني كنت سيدة نساء الكوفة واذا شق عليك لعن ابي تراب فلا اكلفك لعنه .وانما أطلب اليك تصرحي بقبولك بي فاعطيك ما تريدين وتعيشي معي في نعيم يتمناه كثيرات من امثالك »

فظلت سلمى ساكتة

فقال لها « أراك ساكتة فهل سكوتك هذه المرة مثل سكوتك بالامس في دار الخليفة أم هو دليل على رجوعك الى الصواب . ويكفيني برهانا على ذلك أن تعطيني يدك فاقبلها » قال ذلك ومد يده اليها

فلما سمعت كلامه ورأته يمد يده وقفت وتباعدت ولكنها شعرت بانصعد وتحققت أنها اذا حاولته فعل بها ما يشاء ولا تقوى على دفعه . على

ان نفسها لم تضعف مثلما ضعف جسمها فلم تتمالك عن المجافاة فلما دنت يده منها دفعته وصاحت باعلى صوتها « أتغتنم ضعفي يا عبيد الله وتستبد بي .. وتزعم أننا في خلوة لا يرانا فيها أحد .. ؟ ألا تعلم ان الله يراك وهو قادر على اذلالك كما اذل بناة هذه القصور وكانوا ملوكاً فاصبحوا تراباً ؟ .. خف من الله يا ابن زياد واشفق على ضعفي »

فقال لها « لقد أطلت بالي عليك كثيراً وأكثرت من الرفق بك حتى لم يبق مكان للصبر عندي . فاعلمي أنك واقفة بين الحياة والموت . فاذا رجعت عن غيك واطعتني حييت سعيدة مكرمة معززة والا فاني اصلبك الى هذه الاسطوانة ثم اطعنك بهذا الخنجر واتركك طعاماً لطيور السماء » قال ذلك وأشار الى خنجره

فعظم الامر على سلمى وغلب عليها اليأس وايقنت بدنو اجلها فبسطت كفيها الى السماء وصاحت باعلى صوتها « اني أستجير بك يا رب العالمين يا نصير المظلومين استجير بك من هذا الباغي الاثيم . فابعث اليَّ من لدنك من يأخذ بناصري وينقذني ... اشفق اللهم على فتاة لا ذنب لها الا الانتصار لنبيك والغيرة على أهل بيتك الطاهرين ... »

الفصل السابع والسبعون

كلب الناسك

وكانت سلمى تتكلم والصدى يدوي في تلك الخرائب وهمَّ ابن زياد ان ينتهرها فاذا بكلب ينبح بين الاساطين ونبيحه يقترب نحوهما . ولم تمض برهة حتى دنا الكلب واذا هو اسود كبير فلما رأته سلمى علمت انه شيبوب كلب الناسك فاستغربت وجوده في تلك الخرائب ولم يكن عبيد الله اقل

استغراباً منها . أما الكلب فوثب على عبيد الله وهو ينبح نباحاً شديداً دوى له المكان دويا عظيما . فاستأنست به وخيل لها انه جاءها بالفرج القريب

أما عبيد الله فلما رأى الكلب واثباً عليه استلّ خنجره وطعنه في ظهره طعنة غاص بها النصل الى نصفه فعوى الكلب عواء شديداً من شدة الالم وانثنى مسرعاً حتى خرج من الهيكل

والتفت عبيد الله الى سلمى وقال « كأني بك قد استأنست بهذا الكلب وحسبته فرجاً جاءك من ربك فها قد قتلناه واذا بقيت على غيك ألحقناك به ومزجنا دمه بدمك » قال ذلك والخنجر بيده والدم يقطر منه

فقالت « اغمد خنجرك في صدري وارحني من رؤيتك »

قال « سأفعل ذلك بعد أن اتركك ساعة وحدك تستخيرين اجلك »

قال ذلك وحل عمامته وربط بها اكتافها من الوراء وشدها الى الاسطوانة وتناول نقابها وقيد به رجليها وتركها مصلوبة مكشوفة الوجه وخرج وهو يقول « استخيري الله في نفسك وسأعود اليك بعد ساعة فاذا بقيت على وقاحتك اغمدت خنجري هذا في صدرك وتركتك بين هذه الخرائب طعاما للغربان . واذا رجعتِ عن غيك سرت بك مكرمة الى الكوفة »

خرج عبيد الله وغادرها مصلوبة تئن من ضغط الوثاق فصغرت نفسها وعلمت ان العفة لاتصان الا اذا فديت بالروح ورضيت بالموت على خيانة ضميرها . ولكنها استثقلت ان يطول عذابها على غير طائل وودت لو انه اسرع في قتلها لتنجو من ذلك العذاب . ثم تذكرت شيبوبا وشق عليها موته في سبيلها على غير فائدة لها وعادت الى الافتكار في سبب مجيئه الى تلك الديار فلم تجد سبباً سوى أنه رأى الركب مارًّا بالغوطة فلحق به التماساً للطعام

وظلت سلمى مصلوبة على تلك الاسطوانة وأفكارها تائهة في عالم

الخيال لا يحلو لها غير الافتكار بعبد الرحمن . فلما تصورت موته هان عليها اللحاق به ولكنها استبطأت أجلها واستنكفت أن تموت على تلك الصورة وهي لم تنتقم له

الفصل الثامن والسبعون

الفرج القريب

وفيما هي غارقة في لجج الهواجس سمعت خربشة وانيناً ثم رأت شيبوباً مسرعاً اليها وقد جمد الدم على جرحه وانسكب على كتفيه الى قوائمه . وقد فتح فاه واندلع لسانه وهو يلهث من التعب . فنادته سلمى فدنا منها وذيله لاصق بساقيه ثم القى نفسه بين رجليها وقد أخذ منه التعب مأخذاً عظيماً واغمض عينيه ومدد رجليه وهو يئن انين النزع

ولم تكد سلمى تتأمله وتأسف لحاله حتى رأت الشيخ الناسك بين يديها وهو يحل وثاقها باسرع ما يستطيعه الشاب في عنفوان شبابه . فبغتت لرؤيته ولم تفه بكلمة . وكانت حركاته واشاراته تشير اليها أن تسكت . فلما حل الوثاق اومأ اليها ان تسرع امامه فاسرعت ثم حمل كلبه على ذراعيه وسار حتى سبقها فسارت في أثره لا تنطق ببنت شفة . ولكنها استغربت ذلك الاتفاق وعدّته من قبيل المعجزات وكان الشيخ وهو سائر ينثر التراب على آثار الدم في الطريق حتى لا يستدل بها أحد الى مكانه

وبعد مسير نصف ساعة بين الاحجار والعمدان وصلا الى باب ضيق انحدرا فيه على درجات غير منتظمة والكلب على ذراعي الشيخ . وقبل الدخول عمد الشيخ الى حجر سد به الباب حتى لا يشك الذي يراه انه خال مهجور . ثم دخلا حتى اختفيا عن العيون ووصلا الى مصطبة تحت الارض

لا ينفذ اليها النور الا من خلال الباب . فجلس الناسك وأجلسها ووضع الكلب بين يديه على المصطبة وأخذ في البكاء والنحيب وهو يخاطبه وسلمى ساكتة تنظر الى ما يبدو منه فاذاهو يقول « أسفي عليك يا رفيقي وصديقي .. وا حسرتاه عليك ايها الخادم الامين .. لقد ختمت حياتك بشهامة يعجز البشر عن مثلها .. انك حيوان أعجم ولكنك خير من الناطقين لانهم ينطقون بالباطل ويستخدمون تلك الهبة السامية لارتكاب المنكرات واتيان المعاصي وأنت لا تعرف غير الخير .. صحبتك منذ بضعة عشر عاماً وانت رفيقي وأنيسي .. صحبتك بعد أن مللت صحبة الادميين وعرفت شرور بني الانسان .. ما ابلغ عجمتك وما اقبح نطقهم ! .. نعم انك حيوان أعجم ولكنك انقذت نفساً ناطقة .. انقذت هذه النفس الطاهرة من منكر أوشك أن يرتكبه فيها انسان يزعم انه ارقى منك خلقة واسمى عاطفة وهو لا يفضلك الا باقتداره على بث الدسائس ونصب المكائد .. قوتل الانسان ما اكبر دعواه واقل خيره ! .. وهو يفتخر مع ذلك انه سيد المخلوقات .. ما صحبتك الا وانا عارف فضلك وناظر خيرك .. ولكنني لم احزر مصيرك . وما حسبت أنك صائر الى الموت قبلي. . . . » قال ذلك وهو ينظر الى كلبه والكلب يتمطى ويختلج ويجيل عينيه ويعاني عذاب النزاع. وسلمى تنظر اليهما ولا تتمالك عن البكاء. وكان اكثر بكائها على ما اصابها من فقد حبيبها وقالت في نفسها « اذا كان هـذا الشيخ يبكي كلبه لامانته وصدق مودته فكيف لا ابكي حبيبي وابن عمي وقد ذهب ضحية امانته في خدمة الحق »

الفصل التاسع والسبعون

فلسفة

وكان الشيخ يبكي ودموعه تنحدر على لحيته وتتدحرج حتى تنسكب على الكلب وتختلط بدمائه . ثم رفع الشيخ بصره الى سلمى وقال لها « لا تعجبي يا بنية لما ترينه من بكائي على حيوان أعجم فانه خير عندي من اولئك الادميين .. ألا ترينه ذكر صحبتك ومات في سبيل انقاذك ؟ . ولكنه لم يمت رخيصاً .. انه ذكر صحبة يوم أو يومين فلما اشتم رائحتك بين هذه الخرائب وكان نائماً الى جانبي نهض كالليث الكاسر واسرع اليك ثم عاد ودمه يفور من جرحه لشدة الطعنة وكانه أشار اليَّ أن الحقه فتبعته . وفيما انا مار بين هذه الاساطين بصرت بذلك الرجل اللئيم خارجاً من الهيكل ولا عمامة على رأسه والخنجر بيده وهو يهم باغماده . فلما اتيت اليك ورأيتك مصلوبة ادركت انه صلبك تهديداً فانقذتك والفضل لهذا الحيوان الذي ترينه يقاسي غمرات الموت بين ايدينا .. فمن يفعل ذلك من الآدميين .. كم من رجل تربينه في حجرك وتطعمينه من طعامك ثم يكون وبالاً عليك ؟ .. »

فتصورت سلمى احوال البشر ومظالم بني الانسان ومطامع أهل الشرور وكيف انهم يقربون الفضيلة على مذابح الاغراض فقالت « صدقت يا مولاي ان صحبة هذا الكلب خير من صحبة كثيرين ولكن القضاء نفذ فيه . ولا عجب فتلك عاقبة أهل الفضل من المخلوقات الناطقة ايضاً .. »

فتنهد الشيخ وتغيرت سحنته وكأنه افاق من غفلته والتفت الى الفتاة وعيناه تقدحان شرراً وقال « ويدلك ذلك على صدق ما وعد به ربك من العقاب والثواب .. والا فان الحياة ضرب من العبث لان العدل في

هـذه الدنيا غريب تائه لا يعرف مأوى .. ولا نرى في اعمال الناس غير المظالم الفادحة . نرى الاشرار في رغـد وهناء وسعادة والابرار يقاسون مر العذاب . وما كان ربك ليثيب الظالمين .. ستأتي ساعة تلقى فيها كل نفس ما كسبت ان خيراً وان شراً .. وويل للذين ظلموا من مشهد يوم عظيم ! .. »

فشعرت سلمى والشيخ يتكلم كانه ينطق بلسان اهل السماء ولم تمالك ان قالت « نعم ولا بد من ذلك .. كيف لا وقـد رأينا خير الصالحين يقتلون باسياف الظلام وهؤلاء يعيشون في سعة وسلطان .. والله عادل .. فلا بد من يوم ينال فيه كل امرئ ما كسبت يداه .. »

ثم سكت كلاهما والشيخ يمسح دموعه ثم قال « هلم بنا ندفن هذا الصديق الامين فقد بكيناه وسنبكيه كلما لقينا شروراً » قال ذلك ونهض فحفر حفرة وكان الكلب قد مات فدفناه فيها وسلمى تتوقع أن تسمع من الشيخ خبراً . وتذكرت ما شاهدته من كراماته في دير خالد فقالت لعله ينبئني بشيء ينفعني . فلما عاد الى المصطبة همت بخطابه فاذا هو يفرك انامله باناملة وقد اطرق كانه يفكر في أمر هام .. فامسكت هي عن الكلام تهيباً واجلالا . اما هو فقال لها « وما الذي جاء بك يا سلمى الى هذه الديار وقد كنت سمعت بمقتلك .. »

فلما سمعت قوله استغربت اطلاعه على سر قتلها ثم تذكرت ما تعلمه من كرامته فزال استغرابها وقالت « قتلوني يا سيدي ثم أحيوني .. ويا ليتهم ابقوني ميتة لالتقي حبيبي .. » قالت ذلك وخنقتها العبرات

ففهم الشيخ انها تحسب عبد الرحمن مقتولا وهو يعلم انه حي . فاراد أن يستطلع فكرها فقال « وهل قتلوا عبد الرحمن ؟ . »

قالت « أتسألني عن قتله وأنت اعلم مني بذلك وقد اوتيت الكرامة وعلم الغيب ؟ .. »

الفصل الثمانون

الكوفة

فصمت الشيخ واطرق وقد أدرك أن سلمى تظن عبد الرحمن قد قتل . وحدثته نفسه أن يخبرها ببقائه حياً ولكنه رأى بقاءها على اعتقادها اقرب لنيل ما يتمناه وما قد عقد النية عليه مثل نذر النسك فظل صامتاً وهو يتردد بين أن يطلعها على بقاء حبيبها حياً او ان يسكت عن ذلك

أما هي فمسحت دموعها وقالت « ولكنني لا أعلم ما جرى لعامر . . هل علم يا ترى بما أصاب عبد الرحمن وما أصابني .. واين هو الآن ؟ ... »

فتجاهل الشيخ برهة ثم قال « لا شك انه علم بقتله وهو يعتقد انك قتلت أيضاً ولا ادري اين هو فلعله سار الى المدينة أو الى الكوفة ولا يبعد انه فتك بنفسه يأساً واسفاً »

فلطمت وجهها وقالت « وا أسفاه عليك يا عماه وا حسرتاه على آمالك ويا لخسارة ما قضيته من سني الشقاء في خدمتنا . . اني لا ألومه اذا قتل نفسه . . »

فاراد الشيخ أن يشغلها عن البحث في مسألة عبد الرحمن فسألها عن كيفية نجاتها فقصت عليه الحديث من أوله الى آخره ثم قالت « وها اني نجوت من الموت وانا اشتهيه الا اذا كان في بقائي خدمة للمسلمين . فالآن اما ان تقتلني وتدفني في هذه الخرائب أو ترشدني الى سبيل الانتقام . . الانتقام الانتقام . . »

فقال لها « أتريدين الانتقام ؟ ... »

قالت « كيف لا أريد وهو وحده يحبب اليّ البقاء والا فاللحاق بحبيبي عاجلاً اشهى لديّ »

قال « اذا كنت تطلبين الانتقام فانك تلقينه في الكوفة »

قالت « لا ابالي اين هو ولا كيف هو وانما انا أريد الحياة من أجله فاذا قتلت يزيد وابن زياد أو رأيتهما مقتولين ثم مت فان في ذلك الموت حياة لي »

قال « اعلمي يا بنية ان الحسين أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة ليدعو الناس الى بيعته هناك فبايعه منهم ثمانية عشر الفاً [1] فاذا جاء الحسين الى الكوفة تمت البيعة له فيفشل ابن زياد فيقتلونه ثم يسيرون الى الشام فيحاربون يزيد ويقتلونه أيضاً »

ولم يتم الشيخ كلامه حتى أشرق وجه سلمى من الفرح وقالت « آه .. يا حبذا ذلك .. هل أراه ولو في المنام ؟ .. هل أقتل يزيد ؟ .. هل أقتل ابن زياد ؟ .. اني اريد ان اقتلهما بيدي .. ولكن قل لي يا عماه هل عرفت ذلك يقيناً ؟ .. »

قال « اني أقول الصحيح الذي لا ريب فيه فامكثي معي هنا بضعة ايام ريثما ينصرف هؤلاء القوم الى الكوفة ثم نلحق بهم ومتى وصلنا الكوفة انبئك بما سيكون »

أما ابن زياد فانه ترك سلمى مصلوبة وهو لا يشك انها لا تلبث أن تذعن له وتخاف بطشه . ولما عاد الى الهيكل ورأى بقايا الوثاق ولم يرها غاب رشده واخذ يبحث عنها بين الاساطين في الهيكل وخارجه وأرسل رجاله يفتشون في كل مكان فلم يقفوا لها على اثر . وما زال في البحث يومين حتى ملّ ولامه

(١) ابن الاثير ج ٤

رفاقه على التأخير والحالة تقضي بسرعة المسير لتدارك ما ألم باهل الكوفة من الخوف على البيعة هناك • فحمل احماله وسار يلتمس الكوفة وهو يلتفت وراءه ولا يصدق ان سلمى خرجت من يده على تلك الصورة • ولو اطاعه رفاقه لما خرج من تدمر قبل الوقوف على مكان سلمى ولو ادى به ذلك الى نقد احجار تلك الخرائب حجراً حجراً

وكان أهل الكوفة قبل وصوله قد لقوا مسلم بن عقيل وبايعه منهم جمع غفير وضعف أمر الامويين . وكان عبيد الله بن زياد أولاً في البصرة فحرض أهلها على الطاعة ثم جاء الكوفة وأهلها قد تشيع معظمهم الى الحسين واصبحوا ينتظرون قدومه ليبايعوه ويولوه أمرهم فلما سمعوا بان يزيد ولى عبيد الله رجوا ان يصل الحسين قبله لتكون الولاية له . أما عبيد الله فبالقدر المحتوم وصل الكوفة قبل الحسين فدخلها وحده وعليه لباس الامراء . فكان لا يمر بمجلس أو جماعة الا ظنوه الحسين فيقولون « مرحباً بك يا ابن رسول الله » وهو لا يكلمهم . وخرج اليه الناس من دورهم فساءه ما رآه من ترحابهم بالحسين. حتى وصل دار الامارة (القصر) وفيه النعمان بن بشير أميرها السابق والنعمان يحسبه الحسين فاغلق الباب في وجهه وقال له « انشدك الله ألا تنحيت عني.. فوالله ما انا بمسلم اليك أمانتي . وما لي في قتالك حاجة » فدنا منه وقال له « افتح لا فتحت » فلما سمع النعمان صوته عرفه وفتح له وصعد عبيد الله المنبر وخطب في الناس فقال « أما بعد فان أمير المؤمنين ولاّني ثغركم ومصركم وفيئكم وامرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم . وانا متبع فيكم امره ومنفذ فيكم عهده . فانا لمحسنكم كالوالد ولمطيعكم كالاخ الشقيق . وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فليبق على نفسه »[1] ثم نزل وجعل يهتم في

(١) ابن الاثير ج ٤

ارهاب اهل الكوفة وردهم الى الطاعة بما عرف به من الدهاء . . واهل الكوفة ضعفاء سريعو الانقلاب [١]

الفصل الحادي والثمانون

كربلاء

اما ما كان من سلمى والشيخ فانهما بعد ان تحققا مسير ابن زياد من تدمر خرجا وسارا يلتمسان الكوفة من طريق غير الذي سار هو فيه وكان سيرهما بطيئاً لانهما ماشيان والطريق وعر وفيه خطر

وبعد ايام اشرفا على الكوفة من تل وقد تعبا تعباً عظيما . فاستراحا يوماً وسلمى لا تصبر عن النزول الى الكوفة فلما عزما على ذلك قال الشيخ « اعلمي يا بنية اني عاهدت الله ان لا اقيم في المدن ولا اسكن العمارة فانزلي الكوفة وحدك »

فبغتت سلمى وقالت « وكيف العمل يا مولاي واين اقيم ؟ »

قال أما أنت فاذهبي الى ذلك البيت في طرف الكوفة . هل ترينه ؟ »

قالت « نعم »

قال « انه بيت كندية مثلك اسمها طوعة وكانت جارية للاشعث واعتقها ثم تزوجها رجل آخر وولدت منه أولاداً اسم احدهم بلال .. هل تعرفينها ؟ » [٢]

قالت « نعم اذ كر اني رأيتها في أثناء اقامتي بالكوفة وأظنها تعرفني »

قال « اذهبي واقيمي عندها وأنا اتردد اليك في منزلها ونرى ما سيكون من الامر ... »

---

(١) نهج البلاغة (٢) ابن الاثير ج ٤

فقالت « وانت أين تقيم ؟ ... »

قال « أما انا فاني ذاهب الى سهل صغير في طرف البرية و راء الكوفة من جانب الفرات اسمه كربلاء [١] فاذا احتجت الي فانك تجديني هناك »

قالت « لا تنسني من دعائك واني داخلة الكوفة وقلبي منتعش بالآمال وعسى ان يفتح الله علينا ونفرج كربنا ونرى الحق سائداً »

قال « وانا ارجو ذلك » ثم ودعها ومضى وفي خاطره ان يزيدها اطمئناناً فيطلعها على حقيقة حال عبد الرحمن . لكنه أجّل ذلك الى فرصة أخرى مخافة أن نشتغل به فتسير الى عبدالرحمن بمكة وهو يرى الكوفة اوسع مجالاً للانتقام

فمشت سلمى حتى دخلت الكوفة كأنها فتاة من فتياتها عائدة من الاحتطاب أو الاستقاء . ومرت في الازقة فرأت الناس في هرج وسمعت بعضهم ينادون « يا منصوراً مت » وآخرون يلعنون ابن زياد [٢] فاستبشرت بنقمة الناس عليه ولكنها أحبت استطلاع الواقع فعوات على الاستفهام من طوعة

وبعد قليل وصلت الى دار طوعة فرأت المرأة جالسة في الباب وحدها فحيتها فلما عرفتها رحبت بها واستقبلتها . وكانت قد عرفتها قبل سفرها الى دمشق فسألتها عن عامر وعبد الرحمن فأجابتها جواباً مبهماً وكظمت ما في نفسها وأدخلتها طوعة الى البيت وقدمت لها الطعام فاكلت منه شيئاً واستراحت ولم يبق لها صبر عن استطلاع الخبر فقالت « ما بالي أرى أهل الكوفة في هرج ومرج ؟ ما الذي أصابهم ؟ وما معنى ما سمعته من أقوالهم يا منصوراً مت »

(١) مراصد الاطلاع ج ٤ (٢) ابن الاثير ج ٤

فاشارت طوعة اليها ان تخفض صوتها ثم قالت « ألعلك كنت غائبة عن الكوفة »

قالت « كنت في البصرة ولم أعد الا في هذا النهار »

قالت « واهل البصرة لا يجهلون ما أصابنا لانهم شركاؤنا في الامر .. »

قالت « سمعت بانتقاض أهل الكوفة على الخليفة الجديد ومبايعتهم الحسين ابن علي على يد ابن عمه مسلم بن عقيل . ولكنني سمعت الناس يلعنون ابن زياد لانه تولى الامارة على أن يقاوم المبايعين ولم أفهم شيئاً غير ذلك .. »

الفصل الثاني والثمانون

هانىء بن عروة

قالت « اعلمي يا بنية ان مسلم بن عقيل لما جاء الكوفة نزل في دار المختار ابن ابي عبيد وأمير الكوفة يومئذ النعمان بن بشير وهو رجل ضعيف . فجعل مسلم يدعو الناس الى بيعة الحسين فبايعه جمع كبير حتى خاف الامويون ان يخرج الامر من ايديهم . وأنت تعلمين ان الحسين لو جاء الكوفة لا يبقى أحد لا يبايعه . فلما رأى الامويون ذلك بعثوا الى يزيد في دمشق فولى عليهم عبيد الله بن زياد وهو داهية مثل أبيه كما لا يخفى عليك .. »

فتنهدت سلمى وقالت « كيف لا أعرفه وهو الذي قتل والدي رحمه الله .. »

قالت طوعة « فلما جاء ابن زياد الكوفة دخلها وحده فلم يشك الناس أنه الحسين . ثم ما لبثوا ان عرفوه فدخل دار الامارة وخطب في الناس وحرضهم على مقاومة شيعة الحسين ولكي يتم له ذلك مع قلة أشياعه بعث الى

العرفاء (مشايخ الحارات) فجمعهم وأمرهم ان يكتبوا اليه اسماء من فى ارباعهم من شيعة الحسين وشدد فى ذلك حتى هددهم بالصلب والقتل . فلما سمع مسلم بما نواه ابن زياد خرج من دار المختار ونزل في بيت هانیء بن عروة المرادي وهو رجل ذو وجاهة . . »

فقطعت سلمى كلامها وقالت « اني أعرفه »

فقالت طوعة « فلما جاء مسلم الى هانیء خاف هذا ان يقبله في داره لما سمعه من تشديد ابن زياد في طلبه . فقال له مسلم اتيتك لتجيرني وتضيفني . فلم يعد هانیء يستطيع رده فقبله بالرغم عنه . فصارت الشيعة تختلف اليه في دار هانیء . فبلغ ذلك ابن زياد من بعض الجواسيس فاراد أن يحتال في الدخول على هانیء ليتحقق الامر . ثم مرض هانیء بن عروة فبعث ابن زياد اليه انه قادم لعيادته . فقال بعض الحضور من الشيعة ها ان هذا الطاغية قادم بين ايديكم فاقتلوه وانقذوا المسلمين من شره .. »

فبهتت سلمى عند ذلك وصارت تتوقع ان يقتلوه لأنها فرصة ثمينة لو اغتنموها . ولكنهم اضاعوها فضاعت بضياعها كل مساعيهم ٠٠ وكم من غلطة صغيرة يتوقف عليها خراب كبير ٠٠ »

فاستطردت طوعة كلامها وقالت « فلما اقترح ذلك الرجل قتل ابن زيد اعترض هانیء به بأنه لا يريد ان يقتل أمير الكوفة في داره . فجاء ابن زياد فعاده وخرج سالماً »

فصاحت سلمى « يا للخسارة ويا للضعف .. آه ما اضعفهم .. »

فقالت طوعة « انهم ضعفاء يا بنية ولكن ذلك امر الله .. فاصبح همّ ابن زياد أن يقبض على هانیء ويستنطقه . فبعث اليه ان يأتيه في قصره فاعتذر هانیء بالمرض فالح عليه وبعث اليه رجلاً استقدمه بالحيلة . فلما وصل هانیء الى دار الامارة أحس بالشر . ولكنه دخل ووقف بين يدي ابن

زياد فقال له هذا « يا هانيء . ما هــذه الامور التي تربص في دارك لامير المؤمنين ؟ .. جئت بمسلم بن عقيل فادخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت ان ذلك يخفى علينا ؟ . . » فانكر هانيء في باديء الرأي وهو لا يظن أمره معلوماً عند ابن زياد . فاراه ابن زياد الرجل الذي كان جعله عيناً عليه . فتحقق هانيء انه مطلع على جلية الامر فقال « اسمع مني وصدقني فو الله لا اكذبك . والله ما دعوت ابن عقيل ولا علمت بشيء من أمره حتى رأيته جالساً على بابي يسألني النزول عليّ فاستحييت من رده ولزمني من ذلك ذمام فادخلته داري وضفته وقد كان من امره الذي بلغك . فان شئت اعطيتك الان موثقاً نطمئن به ورهينة تكون في يدك حتى انطلق واخرجه من داري وأعود اليك » فلم يقنع ابن زياد باخراج مسلم من دار هانيء بل طلب اليه ان يأتيه به الى القصر . فقال هانيء « لا آتيك بضيفي لتقتله أبداً وله عليّ حق الضيافة وهو في ذمامي » فتوسط بعض الحضور في اقناع هانيء ان يأتيه بمسلم ولا خوف عليــه فلم يقنع حتى قال « لا ادفع ضيفي وانا صحيح شديد الساعد كثير الاعوان . والله لو كنت واحداً ليس لي ناصر لم ادفعه حتى اموت دونه »

فصاحت سلمى عند سماعها ذلك « لا فض فوك يا ابن عروة هذه هي رعاية الذمام

فقطعت طوعة كلام سلمى وقالت « اسمعي يا حبيبتي ما كان من عاقبة تلك الرعاية فان ابن زياد لما سمع كلام هانيء قال ادنوه مني . فادنوه . فاعاد التهديد عليه . فلما لم يطعه تناول عبيد الله عكازاً كان في يد بعض رجاله وأمر واحداً فامسك هانئاً بضفيرتيه وهوى عبيد الله عليه بالقضيب . ولم يزل يضرب انفه وجبينه وخده حتى كسر انفه وسيل الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى انكسر القضيب . واراد هانيء أن يدافع

عن نفسه فمد يده الى قائم سيف شرطي كان واقفاً بجانبه فمنعه منه . وأمر عبيد الله به فالقى هانىء في حجرة وأغلق عليه .. »

فلطمت سلمى كفاً بكف وقالت « وماذا فعل رجاله واهل عشيرته ؟ »

قالت طوعة « بلغ عشيرته انه قتل فجاؤا وأحاطوا بالقصر وفيه ابن زياد ورجاله فخاف ابن زياد منهم وسألهم عما يريدونه فقالوا انك قتلت هانئاً . فهان عليه التخلص لان هانئاً لا يزال حياً فاستشهد شريحاً القاضي وكانوا يعتقدون بصدقه . فقال له عبيد الله ادخل على رجال هانىء وأخبرهم انه حي . فدخل وعاد فاخبرهم انه حي فانصرفوا »

فصاحت سلمى « يا للفشل ماذا أصاب الناس .. »

فقالت « تمهلي يا سلمى انك ستسمعين ما يسرك وفيه الفوز والنجاة ان شاء الله وذلك انك سألتني عن معنى قولهم « يا منصوراً مت » فاعلمي يا بنية ان هذه العبارة هي شعار انصار الحسين ينادون بها بعضهم بعضاً [١] واما سبب الهرج الذي رأيته فان مسلماً لما علم بما أصاب هانئاً نهض ونادى رجاله بذلك الشعار حتى اجتمع حوله ثمانية عشر الفاً من كندة ومذحج وأسد وتميم وهمذان وأهل المدينة ولكل عشيرة من هؤلاء ربع . فعقد على كل ربع لقائد وساروا في هذا الصباح وأحاطوا بالقصر . وليس مع ابن زياد في القصر الا ثلاثون رجلاً وهو الآن في ضنك شديد ولا أظن مسلماً الا فائزاً »

فتهلل وجه سلمى وابرقت اسرتها وبان الاهتمام على وجهها وقالت « يا رب يا كريم .. انصر قومك .. » قالت ذلك ونهضت تريد الخروج

فامسكتها طوعة وقالت « الى اين تذهبين »

قالت « دعيني امضي وارى ما سيكون من أمرهم »

قالت « تمهلي واقعدي فانك فتاة ولا آمن عليك الصوضاء »

---

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل الثالث والثمانون

الفشل الجديد

وبينما كانت سلمى تحاول الخروج سمعتا وقع اقدام بباب الدار . فتغير وجه المرأة وخفق قلبها وليس في بيتها رجال فاشارت الى سلمى أن تمكث وخرجت هي الى الباب فرأت رجلاً واقفاً والبغتة والكآبة ظاهرتان على وجهه. فسألته عما يريده

فقال « اسقني الماء »

فقدمت له كوبة شربها وجلس . فقالت له « يا عبد الله ألم تشرب؟ »

قال « بلى »

قالت « فاذهب الى أهلك »

فسكت

فقالت له ثلاثاً ان يذهب . فلم يبرح المكان

فقالت « يا سبحان الله ؟ .. اني لا أحل لك الجلوس على بابي »

فقال لها « اني غريب وليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة فهل لك الى أجر معروف ولعلي اكافئك به بعد هذا اليوم »

قالت « وماذاك ومن أنت »

قال « انا مسلم بن عقيل كذبني هؤلاء الاقوام وغروني »

وكانت سلمى واقفة تتنصت فلما سمعت قوله اختلج قلبها في صدرها وأسرعت الى الباب . فلما وقع بصرها عليه عرفته وكانت قد رأته قبل ذلك

الحين في المدينة فارادت أن تستعطف طوعة في قبوله فاذا هي قد دعته من تلقاء نفسها أن يدخل

فدخل مسلم وسيفه تحت عباءته والبغتة والتعب قد اثرا في سحنته . فعرضت عليه العشاء فلم يتعش

فوقفت سلمى بين يديه وقد ارسلت نقابها على رأسها وترقرقت الدموع في عينيها وقالت « ما الذي اصاب قومك يا مولاي ؟ .. »

فتنهد مسلم وكادت العبرات تسبق كلامه وقال « دعيني يا اخية ولا تسألي عن قومي فقد قلت لكما ان لا قوم لي ولا عشيرة في هذه المدينة »

فقالت طوعة « ولكنني سمعت في هذا الصباح انك جمعت ثمانية عشر الفاً واحطتم بقصر ابن زياد وهو ليس عنده الا ثلاثون رجلاً فما الذي جرى بقومك ؟ »

قال وهو يحرق أسنانه « لقد تفرقوا عني »

قالت سلمى « وكيف تفرقوا وما الذي حملهم على هذا التفرق وهم كثار »

قال « لا تسألي عن القضاء اذا وقع . ولكن أهل الكوفة قوم لا يركن اليهم وقد اخطأنا بالاعتماد عليهم بعد ان سمعنا عمي الامام علياً كرم الله وجهه يخاطب أهل العراق بقوله « اخلاقكم دقاق وعهدكم شقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق . المقيم بين اظهركم مرتهن بذنبه والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه » [1] فقد غرني من هؤلاء الاقوام ما رأيت من اقبالهم على بيعة الحسين حتى تكاثر عددهم . فلما دعوتهم في هذا الصباح اجتمعوا وتجندوا حتى قلت « توليتها يا ابن بنت الرسول » ولكن ابن مرجانة (ابن زياد) داهية مثل

---

(١) نهج البلاغه ج ١

أبيه فلما رأى رجالنا محيطين بقصره وقد امتلأ المسجد والسوق بالناس وسمع جماعة يسبونه و يسبون أباه دعا بعض رجاله وفيهم من أشراف القبائل وأمرهم ان يخرجوا الى الاسواق ويخذلوا الناس بالتهديد والوعيد أو بالوعد والتمني . وأطمعهم بالمال ونحوه . فخرجوا يخذلون الناس . وأمر آخرين أن يشرفوا من نوافذ قصره علينا و يؤملوا أهل الطاعة ويخوفوا أهل المعصية فاشرفوا علينا وجعلوا ينادون بالامان لمن أطاع وبالشر لمن عصا . فما شعرت الا والناس يتفرقون عني ولم يبق معي منهم الا ثلاثون رجلاً فدخلنا المسجد . ثم رأيت في البقاء هناك خطراً على حياتي فخرجت متوجهاً لاأدري الى اين أصير حتى وصلت هذه الدار . وانا لا أبالي الان اموت او احيا ولكني اخاف على ابن عمي الحسين لاني كتبت اليه بالحضور واظنه قادماً وهو يحسب أهل الكوفة جميعهم على دعوته وهم على ما رأيناهم فيه من الضعف » ثم تنهد وقال « والله ان عبد الله بن مطيع قد نصح لنا أن لا نقرب الكوفة وقد قال للحسين لما خرج من المدينة « جعلت فداءك اين تريد » قال « أما الآن فمكة واما بعد فاني استخير الله » قال « خار الله لك وجعلنا فداءك فاذا أتيت مكة فاياك أن تقرب الكوفه فانها بلدة مشؤمة بها قتل ابوك وخذل اخوك واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه . الزم الحرم فانك سيد العرب لا تعدل بك أهل الحجاز أحداً ويتداعى اليك الناس من كل جنب . لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي فوالله لئن هلكت لنفترقن بعدك » فما كان اجدرنا ان نصغي لقوله ولكن قد نفذ السهم ولا خبرة في الواقع »

وفيما هو يتكلم دخل شاب في مقتبل العمر لم تعرفه سلمى ولا مسلم أما طوعة فاسرعت الى استقباله وهي تريد أن تخفي امر مسلم عنه وكان ذلك الشاب ابنها بلالا فلم يسكت عنها حتى اخبرته بخبر مسلم وطلبت اليه أن يكتم أمره وأخذت عليه الايمان بذلك فسكت ولكنه اضمر السوء . وبات تلك الليلة ومسلم هناك . اما سلمى فانها باتت منقبضة النفس وقد اسقط في يدها

وتحققت الفشل ففكرت في ما ينبغي ان تفعله فعولت على ان تسعى اولاً في سلامة الحسين بان تسير لملاقاته في الطريق وتقص عليه الخبر وترجعه عن الكوفة حتى يقضي الله بما يشاء

الفصل الرابع والثمانون

الدفاع

ولما اصبح الصباح افاقت طوعة ولم تجد ابنها فظنته خرج لعمله. وافاق مسلم فجاءته سلمى وعرضت عليه ان تسير هي بنفسها لابلاغ الحسين الخبر . فاعجب بحميتها وغيرتها وقال لها « والله لو ان في رجالنا عشرة مثلك ما اصابنا ما اصابنا بورك فيك يا بنية اننا اذا احتجنا الى ارسالك ارسلناك .ولكنني لا أرى فائدة من بقائي هنا فاذهب بنفسي »

فتنهدت سلمى وتذكرت مصائبها وما ألمّ بحبيبها في سبيل ذلك الامر فغلب عليها الحزن ولكنها تجلدت وعادت الى تشجيع مسلم وهو يعجب بشهامتها وغيرتها على الاسلام

ولم تمض برهة حتى سمعوا وقع حوافر حول الدار وعلت الضوضاء فاجفل مسلم وامتقع لونه فلما رأت سلمى ذلك فيه خرجت تنظر ما الخبر . فرأت فرسانا ورجالة يزيد عددهم على السبعين وفي مقدمتهم فارس تماكي السلاح وعليه الدرع فعلمت انه زعيم القوم فلما استقبلتهم صاح فيها الفارس قائلا « اين مسلم فليخرج الينا الساعة »

فقالت « وماذا تريدون منه »

قالوا « ما لك ولهذا التطفل ·· اين مسلم بن عقيل »

فلما سمع مسلم صوت الرجل الذي ينادبه جرد حسامه وهجم عليه وقال « ما بالكم ماذا تريدون ؟ »

فصاح فيه الفارس « تعال معنا الى الامير »

فقال « خسئتم انتم واميركم » وهجم عليهم بسيفه حتى اخرجهم من الدار وقتل واحداً منهم . فتناولت سلمى سيف الرجل المقتول وشدت وسطها وهجمت وهي تفضل الموت بعد ذلك الفشل لكي تلحق بحبيبها وكان ابن عقيل ينظر اليها ويعجب بحميتها ويقول لها « ارجعي يا سلمى ما لك ولهذا الخطر »

اما هي فلم تصغ له فضربت ضربتين ثم سمعت ابن عقيل يصيح « قتلوني قتلهم الله » فالتفتت واذا بسيف أصاب فمه فقطع شفته العليا وسقطت ثنيتاه لكنه لم يقتل . فهجم على الضارب فضربه على رأسه وثنى بأخرى على العاتق كادت تطلع على جوفه وسلمى تناضل معه . فلما رأى القوم ذلك اشرفوا على سطح البيت وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونها عليه . فلما رأى مسلم ذلك خرج من الدار بسيفه وهو يقول

اقسمت لا أُقتل الا حرا وان رأيت الموت شيئاً نكرا

او يخلط البارد سخنا مرا رد شعاع الشمس فاستقرا

كل امرىء يوماً يلاقي شرا اخاف ان اكذب او اغرا [١]

وخرجت سلمى وقاتلاهم في السكة فصاح رئيس القوم بابن عقيل «لا تكذب ولا تخدع ان القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك» وكان مسلم قد اثخن بالحجارة وعجز عن القتال فاسند ظهره الى حائط تلك الدار وقد ضعف ولم يعد يستطيع قتالا فجاءه سيد القوم وهو محمد بن الاشعث فحمله على بغلة وأمنه على حياته فالتفت مسلم الى سلمى فاذا هي لا تزال

(١) ابن الاثير ج ٤

تكافح والنار قد لعبت في نقابها فاراد أن يخاطبها فحملوه وساروا به وهو يفكر في تلك الفتاة لانه لم ير مثلها في حياته

الفصل الخامس والثمانون

مقتل عقيل

وما زالوا سائرين به حتى جاؤا القصر واوقفوه عند بابه فرأى هناك جرة ماء باردة فقال « اسقوني من هذا الماء »

فقال له واحد منهم « أتراها ما ابردها والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار الجحيم »

فقال له « ومن أنت »

قال « انا من عرف الحق اذا تركته ونصح الأمة والامام اذا غششته وسمع وأطاع اذا عصيته انا مسلم بن عمرو »

فقال له مسلم بن عقيل « لأمك الثكل ما أجفاك وأفظعك وأقسى قلبك وأغلظك انت يا ابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني »

ثم جاء رجل فصب ماء واعطى مسلم فشرب ثم نظر في القدح فاذا هو قد امتلأ بالدم

وأمر ابن زياد بمسلم فاصعدوه الى أعلى القصر فضربت عنقه ثم أخرجوا هانئاً وقتلوه ولم يبال ابن زياد بعهده الذي أعطاه لهانىء ولمسلم باستبقائهما

لا شك في أن عمله هذا يدل على قسوة وغدر ولكنه باعتبار الغرض المراد منه يعد حزماً ودهاء لان الدول في أول نشأتها لا يتأيد استقلالها وتنحو من الدعاة والمطالبين الا اذا صم أصحابها آذانهم عن نداء الضمير وحصروا

نظرهم في مصالحهم الخصوصية . وفي التاريخ حوادث كثيرة تشهد بصحة ذلك :

فلو لم يغدر ابو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين بابي مسلم الخراساني ويقتله غيلة لم تثبت الدولة العباسية وابو مسلم هو الذي اقام دعائم تلك الدولة وسلمها الى العباسيين . ويقال نحو ذلك بنكبة البرامكة فان الفتك بهم يقتضي قسوة وغدراً ولكنه نجى الدولة العباسية من خطر عظيم . والسلطان سليم الفاتح العثماني لو لم يقتل طومان باي آخر سلاطين المماليك لم يخلص له الملك وكان قبل أن قتله قد اكرمه وقربه حتى اذا استطلع كل ما يحتاج الى معرفته من أحوال البلاد وخراجها وادارتها أمر به فشنقوه على باب زويله

ولو لم يفتك محمد علي باشا بالمماليك في قلعة القاهرة كما هو مشهور لم يأمن غائلتهم مع انهم كانوا قد سلموا له واخلدوا الى السكينة. ولكن بقاءهم في اعتبارهم كان يدعو الى الخطر على استقلاله فقتلهم بالمكيدة . ولا خلاف في انه غدر بهم وقد لامه كثيرون وأما عذره عند نفسه فهو انه أمن الفتنة وأيد استقلاله. وقد روى بعض معاصريه انه لما أمر بقتلهم كان جالساً في شرفة قصره بالقلعة فلما بدأت المذبحة تحول الى الداخل وقد امتقع لونه كانه شعر بعظم الامر ولكنه مضطر الى ارتكابه بحكم الضرورة والا فانه يعرض دولته للسقوط

على أن مثل هذه الاعمال لا يستطيعها الا رجال يسمونهم بلغة السياسة « عظماء » وفي الواقع أن الصبر على قتل الابرياء لا يقوى عليه الا ذوو الارادة القوية والمطامع الكبيرة وهؤلاء هم مؤسسو الدول في الغالب

لا يزال المؤرخون يؤاخذون بونابرت لما ارتكبه في قتل حامية يافا وهم أربعة آلاف رجل أشداء سلموا أنفسهم الى أحد قواده على أن يستبقيهم . فلم ير بونابرت راحة في استبقائهم . فامر بقتلهم رمياً بالرصاص مخافة أن يكونوا عثرة في سبيل فتوحه . وعلى هذا المبدأ كان سلاطين آل عثمان يقتلون

اخوتهم فراراً من الفتنة . وعندنا أن اسماعيل باشا الخديوي الاسبق كان من أولئك العظماء . وكذلك كان معاوية بن أبي سفيان وكان عنده « جند من عسل » . ولم يحبط مسعى الامام علي في أمر الخلافة الا لمراعاته واجبات التقوى وسلامة الضمير

وأخيراً لو تمثل هانيء بن عروة باولئك الرجال العظام وخرق حرمة الجوار واذن بقتل ابن زياد يوم عاده في منزله لتبدل وجه المسألة وتحولت مجاري التاريخ حتى آلت الخلافة الى أهل البيت . ولكن لله حكمة لا تدركها العقول

فلنرجع الى سياق الرواية — فان سلمى لما تحققت فشل مسلم ورأت الدم في وجهه تذكرت مقتل حبيبها فهاجت عواطفها واستهلكت وصارت تحارب بسيفها وتناضل مناضلة الابطال كما تقدم ولولا النار التي اتصلت بها ولحقت بشعرها لم تكف عن الضرب

فلما انصرفوا أسرعت طوعة الى سلمى فاطفأت شعرها ونقابها وحملتها الى الفراش وهي غائبة عن الدنيا . فرشتها بالماء حتى أفاقت ولم تصب بسوء

فلما أفاقت صاحت « أين مسلم . أين ابن عم الحسين »

فقالت طوعة « قد حملوه الى القصر »

قالت « وماذا يفعلون به هناك . . . أظنهم قاتليه لا محالة قبحهم الله ما أقسى قلوبهم »

فجعلت طوعة تخفف عنها ولم يمض النهار حتى سمعت بمقتل مسلم فانصدع قلبها عليه وفكرت في أمرها فرأت البقاء لايجديها نفعاً وتذكرت الشيخ فهمت بالمسير اليه

الفصل السادس والثمانون

سلمى والناسك

واصبحت سلمى في اليوم التالي وخرجت من بيت طوعة وسارت تلتمس كربلاء . فجعلت طريقها من خارج الكوفة لئلا ترى ما تكرهه من فوز الامويين فيممت شاطىء الفرات حتى أطلت على سهل مقفر لا شجر فيه ولا عشب ولا ماء فعلمت انه سهل كربلاء . ورأت في بعض اطرافه شجرة قد تقادم عهدها وتحتها شبح نائم فعلمت انه الشيخ الناسك ولم تصل اليه حتى جلس وقد شعر بقدومها عن بعد كانه اشتم رائحتها . اما هي فلما رأته لم تمالك عن البكاء لفرط ما هاج في خاطرها من مصير مسلم وحزبه

فلما رآها الشيخ صاح فيها وناداها اليه قائلاً « اراك باكية كأني بهم فتكوا بابن عقيل ؟ ... »

فاجابته وقد خنقتها العبرات « نعم انهم قتلوه يا مولاي شر قتلة ... قتلوه ومثلوا به وقد فازوا بالامر من دونه وخابت مساعينا . كأن الله قد كتب الشقاء لنا ... »

فابتدرها قائلاً « قتلوا ابن عم الحسين ؟ .. وكيف قتلوه ولم يخافوا غضب الله وملائكته .. أعوذ بالله من ظلم الانسان ... »

قالت « نعم قتلوه يا سيدي بعد ان ساموه مر العذاب .. وكنت احسب الملائكة تدفع عنه لانه انما جاء للدفاع عن الحق !! ... أهذا جزاء نصراء الحق عند الله ؟ .. »

فقطع الشيخ كلامها وقال لا تكفري يا سلمى ولا تعترضي احكام الله.. فاننا لا ندرك مقاصده سبحانه وتعالى .. وما نحن الا تراب صنعنا بيده وهو

يفعل بنا ما يشاء لحكمة لا ندركها .. فاخبرني كيف قتلوه »

فجلست على حجر بالقرب منه وقصت الحديث وهي تقطع الكلام وتتأوه حتى اذا أتت على آخر كلامها اوغلت في البكاء وجعلت تندب حال المسلمين . وجرها ذلك الى ندب حبيبها عبد الرحمن فقالت « لا اعترض على حكم الله . ولكنني لا ادري كيف اؤول الحكمة في ذلك .. ان الحسين قام يدعو الناس الى الحق وارسل ابن عمه لنصرته أفيقتل هذا ويفشل ابن بنت الرسول ويظلم كل من قام بنصرته ؟ ألم يقتلوا ابن عمي عبد الرحمن لانه طالب بدم والدي وانتصر لاهل البيت ؟ . . ألم يقتلوه شر قتلة ... آه منهم كيف يقتلونه ؟ .. » قالت ذلك وعادت الى البكاء . ثم قالت وقد خنقتها العبرات « كيف ينصر الله قوماً يحاربون ابن الرسول ويقتلون كل من قام بنصرته — وخليفتهم يشتغل عن امور الخلافة بشرب الخمور وضرب الطنابير ومجالسة النساء ؟ .. انه لامر غريب ! .. »

فلما سمعها تندب ابن عمها وهو يعلم ببقائه حياً أشفق على عواطفها وعلم من سياق حديثها انها راغبة في الذهاب الى الحسين لاطلاعه على جلية الخبر لعلها ترجعه عن عزمه . والشيخ يرجح ان عبد الرحمن وعامراً مع الحسين فاراد ان يطمئنها . فعول ان يطلعها على الواقع فمسح لحيته بيده ثم مسح عينيه بانامله من آثار دموع كادت تبللهما في أثناء سماعه مقتل ابن عقيل ثم قال « وما الذي انت عازمة عليه يا سلمى ؟ »

قالت وقد رجع اليها رشدها وبان الاهتمام في وجهها « اتسألني عما عزمت عليه وانت لا تجهله ؟ .. أتجهل يا سيدي اني فقدت كل شيء في سبيل نصرة بنت الرسول ولم يبق لي ما ابذله الا نفسي — وما هي بالامر العظيم عندي فانا باذلة روحي في هذا السبيل ... اريد ان اذهب لألاقي الحسين قبل وصوله الكوفة واخبره بما وقع وانصح له ان يتربص حيث هو ريثما

يتم له التأهب للمطالبة بحقه وامكث في خدمته حتى يتأتى له ذلك فاحارب معه حتي أموت بين قدميه فاذهب حيث الاقي عبد الرحمن ووالدي وأرجو ان يكون ذلك في النعيم . لاني اعتقد صدق الدعوة التي نحن قائمون بها واذا قدر الله لنا النصر وفزنا على اولئك الطغاة وقتلناهم فاعيش سعيدة لاني انتقمت لابي ولابن عمي وللامام علي ... »

الفصل السابع والثمانون

البغتة

فضحك الشيخ حتى اغرب في الضحك وسلمى تنظر اليه وتعجب من ضحكه بعد ان قصت عليه خبر الفشل الذي اصابها . فلبثت صامتة وهي تسمع قهقهته وترى اهتزاز لحيته حتى خيل لها انه اصيب بجنون ولكن اعتقادها بكرامته غلب عليها فحملت ضحكته على شيء يضمره وفيه خير لها . فلما فرغ من الضحك تفرست في وجهه فاذا هو قد عاد الى الانقباض بغتة ولمعت عيناه بما غشاهما من الدمع . ورأت سلمى ذلك من خلال حاجبيه المسترسلين على عينيه فقالت له « ايأذن لي مولاي بسؤال »

قال وقد عاد الى الابتسام « انك ستسأليني عن سبب ضحكي وانا أقول لك السبب وأرجو ان يضحكك أيضاً »

فقطعت كلامه وقالت « لا أظن شيئاً في العالم يضحكني وما انا ضاحكة الا ضحكة الظفر أو ضحكة الموت »

قال « وما قولك اذا اضحكتك الساعة »

قالت وهي تستخف بقوله « قل ما شئت واضحك ما شئت وسترى أني لا ابتسم لشيء قط . كيف اضحك او ابتسم وانا اليتيمة وقد قتل ابي وابن عمي ظلماً ولم اقتل معهما »

قال « واذا أخبرتك خبراً مليحاً ؟ »

فقالت « اذا كان خبرك من قبيل الاطلاع على الغيب فللأولياء كرامات ... وقد تتنبأ بخبر ترجوه لي في المستقبل . ولكنني رأيت من الفشل في الايام الاخيرة ما سود في عيني كل خبر . فلا أضحك الا لخير أراه أو لخير أتوقعه . وأي خير أرجوه بعد هذه المصائب ؟ »

قال « واذا اطلعتك على خبر عبد الرحمن ؟ »

فلما سمعت اسم حبيبها اختلج قلبها واصطكت ركبتاها و بغتت وقالت « وما هو خبره يا مولاي ... ألعلي لم أسمعه بعد ..دعني... » واختنق صوتها و بكت

قال « وما سمعت عنه »

قالت « ألم اندبه بين يديك مراراً ؟ . . آه يا مولاي دعني من هذه الذكرى ولا تهيج أشجاني ... دعني أشتغل عن الحزن بالانتقام . . ودعني امضي لسبيلي فألاقي الحسين وأهل بيته وانبئهم بالخطر الذي ينتظرهم هنا »

قال « سيري يا بنية سيري بحراسة الله ولكنني ارجو ان تلاقي عبد الرحمن هناك »

فصاحت « ألاقي عبد الرحمن !! وكيف ألاقيه وانا حية ؟ .. الا اذا بعث في هذه الحياة الدنيا . . . ولم نسمع بالبعث الا في الآخرة . . . لا اراك يا مولاي الا ضاحكا مني هازئاً بعواطفي . أو انك تتنبأ بقرب اجلي لالقى حبيبي في الآخرة . فاذا كان ذلك فمرحباً بالموت انه حلو شهي » قالت ذلك وهي لا يخطر في حلمها أن يكون عبد الرحمن حياً . ولكن قلب المحب سريع الاطمئنان قريب التصديق فحدثها حبها ان الله قادر على احيائه بعد موته و ان الشيخ الناسك لا يقول عبثاً .. على ان عقلها ما زال يقول باستحالة ذلك . فلبثت تتردد بين الامرين وهي تتوقع ان تتحقق ذلك بوجه الشيخ

اما هو فلما شاهــد اضطرابها نظر اليها بعين تتجلى فيها الحدة وقال « اني لا اقول جزافاً يا سلمى .. ان عبد الرحمن حي باق لم ينله سيف أولئك الاشرار »

فوثبت سلمى من مجلسها بغتــة على غير انتباه وأحست كان شعر رأسها انتصب واقشعر بدنها وكاد الدم يجمــد في عروقها. وصاحت في الشيخ وامسكته بيده وهي تقول « بالله أصدقني الخبر يا مولاي ولا تهزأ بي فاني أكاد اقتل نفسي .. قل لي .. هل عبــد الرحمن حيّ .. عبد الرحمن ! .. هل هو حي ؟ حيّ مثلي ومثلك ؟.. » قالت ذلك والدمع ملء عينيها لا تدري أتضحك ام تبكي

فخاف الشيخ ان تضر عواطفها بها فتظاهر بالسكينة وقال بصوت خافت « نعم يا سلمى انه حي باذن الله »

قالت « قل لي... كيف عاش ...كيف هو حي وقد تحققت مقتله من قبل ! .. يا ربي ماذا اسمع هل أنا في حلم .. هل عبد الرحمن حي يمشي ويتكلم .. هل اكلمه فيسمعني وألاقيه فيراني .. عبد الرحمن ؟.. حبيبي .. انت حي وانا اندبك.. ولــكن لا .. لا اظنني الا في حلم .. » ثم التفتت الى ما يحدق بها من السهل القاحل كلها تتحقق وجدانها ثم ترامت على يدي الشيخ وجعلت تقبلهما والدمع يتساقط عليهما وهي تشهق من شدة البكاء وتقول « بالله يا سيدي قل لي الصدق ... هل عبد الرحمن حي حقيقة ؟ وهل اراه بعد واين هو .. قل لي يا مولاي .. قل لي .. واشفق على حياتي .. عبد الرحمن .. حبيبي .. اين هو ؟ »

فامسكها الشيخ ويده ترتعش واوقفها وهو يتأمل حركاتها ويقرأ عواطفها ودمعت عيناه وقال « احمدي الله يا سلمى ان عبد الرحمن وعامراً في قيد الحياة وهما مع الحسين واظنهما آتيين معه في طريقه هذه

فبهتت سلمى واستجمعت رشدها ولبثت مطرقة تنظر الى الارض وهي تراجع في ذا كرتها ما سمعته عن مقتله في دمشق فلم تجد دليلاً على انه قتل غير ما سمعته من ابن زياد والحكيم فهان عليها التصديق ببقائه حياً . فاحست للحال ان غمامة انقشعت عن عينيها وكأن جبلاً نزل عن قلبها فانبسط وجهها وابتسمت . فابتدرها الشيخ قائلاً « اراك تضحكين .. وأنت تقولين انه لا شيء يضحكك .... »

قالت « لم يدر في خلدي ان اسمع هذا الخبر .. ايكون عبد الرحمن حياً ولا اضحك ... » ثم انقبضت نفسها بغتة وقالت « ولكن ما الفائدة ؟ اين هو . . . ما الذي يجمعني به فقد أصبحت بعد ما لاقيته من الفشل المتواتر لا أصدق شيئاً حتى يقع . . وقد يقع ولا أصدقه »

قال الناسك « لا تيأسي من نعم الله فان معسكر الحسين يجمعك بعبد الرحمن فقد سار اليه وأنت في دمشق مع عامر وهو يحسبك ميتة كما كنت تحسبينه ميتاً » وقص عليها الخبر من اوله الى آخره فاطمأن بالها وسكن روعها واستوثقت من بقائه في قيد الحياة

الفصل الثامن والثمانون

الحسين وابن الزبير

اما الحسين فكان قد انتقل من المدينة الى مكة وأرسل ابن عمه مسلماً الى الكوفة كما تقدم . وجاءته كتبه ان معظم اهل الكوفة على بيعته . فعزم على الخروج الى الكوفة وهو يحسب انه اذا جاءها استتب الامر له . وكان يستشير اصحابه فمنهم من يخوفه من الذهاب ومنهم من يحرضه عليه . وكان

في جملة المحرضين عبد الله بن الزبير . وكان هذا طامعاً بالخلافة لنفسه لانه من كبار ابناء الصحابة وكان ابوه الزبير بن العوام طامعاً فيها قبله على عهد الامام علي (والد الحسين) وقد حاربه عليها في واقعة الجمل بجوار البصرة . ولكنه قتل هناك هو وطلحة وفاز علياً بالامر . فلما قتل علي وتولى الخلافة معاوية ابن ابي سفيان لم يجسر ابن الزبير على مناجزته . فلما مات معاوية كان ابن الزبير والحسين في الكوفة فطلبوا منهما البيعة ليزيد كما تقدم فابيا ثم خرجا الى مكة وفي نفس كل منهما أن يطلب البيعة لنفسه . فرأى ابن الزبير انه لا يستطيع ذلك والحسين معه في مكة لان الناس يفضلون الحسين عليه . فرغبه في طلب بيعة أهل الكوفة وحبب اليه المسير اليها وكان الحسين مخلص الطوية صادق اللهجة مثل أبيه والمخلص سليم النية سريع التصديق وما اضاع الخلافة علي الا لطيب عنصره وحلمه ورغبته عن الدهاء والمكر

وكان ابن الزبير لا يظهر للحسين عزمه وربما أظهر رغبته في بقائه بمكة وهو يريد خروجه منها . وفي جملة ما دار بينهما من الحديث في هذا الشأن ان الزبير قال له مرة « ما ادري ما ترك لنا هؤلاء وقد كففنا عنهم ونحن ابناء المهاجرين وولاة هذا الامر دونهم . خبرني ما تريد أن تصنع ؟ »

فقال الحسين « لقد حدثت نفسي باتياني الكوفة ولقد كتبت الى شيعتي فيها واشراف الناس واستخير الله »

فقال ابن الزبير « اما والله لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها » ثم خشي ان يتهمه فقال له « أما أنك لو أقمت في الحجاز وأردت هذا الامر هنا لما خالفنا عليك بل ساعدناك وبايعناك ونصحنا لك . فاقم ان شئت وتوليني الامر فتطاع ولا تعصى »

فلما خرج الزبير قال الحسين لمن عنده « ان هذا الرجل ليس شيء في الدنيا أحب اليه من ان أخرج من الحجاز . وقد علم أن الناس لا يعدلونه

بي فود اني خرجت حتى يخلو له الجو » ويظهر من ذلك أن الحسين لم يكن يجهل طمع ابن الزبير ولكنه ظل راغباً في الخروج . ولعله خاف مناوأته اذا بقي هناك

وممن نصح للحسين أن لا يخرج من مكة ابن عم أبيه عبد الله بن عباس وكان قد أدرك غرض ابن الزبير فنصح للحسين مراراً أن يبقى فلم يطعه . فجاءه في مساء اليوم الذي خاطب فيه ابن الزبير فقال له « يا ابن عم اني أتصبر ولا أصبر . اني أتخوف عليك من الذهاب الى أهل العراق فلو أنهم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ثم دعوك فسر اليهم . وان كانوا قد دعوك وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فانما دعوك الى الحرب. فاكتب اليهم فلينفوا عاملهم ثم أقدم عليهم . أما اذا ابيت الا أن تخرج من مكة فسر الى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ولابيك شيعة وأنت عن الناس في عزلة . فتكتب الى الناس وتثبت دعاتك حتى يقوى شأنك وتنظر ما يكون »

فقال الحسين « يا ابن عم اني والله لاعلم أنك ناصح مشفق . ولكنني قد ازمعت على المسير الى الكوفة »

فقال ابن عباس « فان كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيانك فاني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه » ثم قال « لقد اقررت عين ابن الزبير بخروجك . والله الذي لا اله الا هو لو اعلم اني اذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علينا الناس وانك تطيعني وتقيم لفعلت » ثم خرج [1]

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل التاسع والثمانون

الخروج الى الكوفة

فخرج الحسين من مكة ومعه نساؤه وأولاده وأبناء عمه . وما زال ينتقل من مكان الى آخر والناس ينضمون اليه حتى أتى مكاناً اسمه الثعلبية كان قرية ثم خرب [١] وهناك جاءه الخبر بمقتل مسلم بن عقيل وبما حل بشيعته وخوفوه من المسير الى الكوفة . وكانه خاف الذهاب اليها فقام بنو عقيل اخوة مسلم فحرضوه على المسير وقالوا « والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا ونذوق كما ذاق مسلم »

فتحمس الحسين وقال « صدقتم لا خير في العيش بعد هؤلاء »

وما زال سائراً حتى دنا من ضواحي الكوفة والناس يأتونه في الطريق ويخوفونه فاصر على المسير ولكنه أطلق الحرية للذين معه فقال لهم « قد خذلتنا شيعتنا فمن أحب ان ينصرف فلينصرف ليس عليه منا ذمام »

فتفرقوا عنه يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤا معه من مكة [٢] وفي جملتهم عبد الرحمن وعامر . وكانا من جملة من حرضه على المسير التماساً للانتقام . وكان عبد الرحمن لا يستصعب شيئاً في ذلك السبيل بعد ما كان يعتقده من مقتل سلمى

أما سلمى فانها كانت قد صممت على النهوض لملاقاة الحسين لكي تطلعه على جلية الخبر وهي تحسبه لم يعلمه . وباتت ليلتها تحت تلك الشجرة على أن تصبح في الغد وتسير . ولما أصبحت ودعت الشيخ وخرجت . ولم تمش قليلاً حتى رأت الغبار يتصاعد من جهة الكوفة ثم ظهر من تحته خيول فعلمت

---

(١) مراصد الاطلاع ج ١ (٢) ابن الاثير ج ٢

ان ابن زياد أرسلهم لملاقاة الحسين . فتظاهرت بالاستسقاء من بعضهم واستنبأت عنهم . فعلمت أن قائدهم عمر بن سعد وقد بعثه ابن زياد في بضعة آلاف لملاقاة الحسين وجنده. فنزل هذا الجند في القادسية ونظم الخيول بين القادسيه الى ضفان ومن القادسية الى القطقطانة والى جبل لعلع . فخفق قلب سلمى خوفاً على الحسين ورجاله ولكنها ظلت سائرة وقلبها طائر أمامها التماساً لملاقاة حبيبها . حتى وصلت جبلاً اسمه ذو جشم فوقفت لتطل منه على الطريق واذا بغبار يتعالى عن نحو ثلاثين فارساً وأربعين راجلاً [1] ماعدا النساء والاطفال فعلمت أن القادمين هم الحسين ورجاله ولكنها استقلت عددهم واستغربت مجيئهم بهذه القلة بعد أن رأت جند الكوفة وكثرتهم . ثم تبادر الى ذهنها انها ترى طليعة الجيش وان البقية آتية . فوقفت جانباً وقلبها يخفق وعيناها شائعتان الى الرجال تتفرس في وجوههم لعلها ترى عامراً أو عبد الرحمن . فلم تر أحداً . فترجح عندها ان الذين تراهم ليسوا كل الجند فسألت عبداً كان منفرداً عن الركب . فقال لها انهم الحسين ورجاله جميعاً . فاستغربت ذلك وانقبضت نفسها لما علمته من كثرة جند الامويين في القادسية . واشتغل خاطرها على عبد الرحمن وعامر ثم رأت جماعة أسرعوا فنصبوا فسطاطاً كبيراً في سفح الجبل . وبعد قليل أقبل فارس حسن اللباس والقيافة جليل القدر يحيط به الرجالة وعليه جبة من خز وعلى رأسه عمامة وقد اختضب بالوسمة [2] (وهي ورق النيل أو نبات يخطب بورقه) [3] وهو في نحو السابعة والخمسين من عمره ولا يزال الجمال ظاهراً في وجهه مع مافيه من آثار الانقباض. فعلمت أنه الحسين فاشتغلت لحظة في التطلع اليه فاذا هو قد ترجل ودخل الفسطاط وهو صامت كأنه يفكر في أمر ذي بال وأشار الى رجاله أن يرشفوا الخيل ترشيفا وسلمى بالباب في جملة الواقفين وعيناها تتنقل في الناس ثم تحولت الى سائر

(١) ابو الفداء ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٤ (٣) القاموس

المعسكر وتفحصت الرجال يبصرها فلم تجد عامراً ولا عبد الرحمن فاضطرب قلبها وارتابت في كلام الناسك . ثم عادت الى الخيمة لعلهـا تجد احداً منهما فيها . فرأت فارساً قادماً من جهة الصحراء وعليه لباس الامراء ففتح له الناس طريقاً حتى أقبل على الخيمة وترجل ودخل على الحسين . فـلم تعرفه سلمى ولـكنها سمعت بعض الناس يتحدثون عنه و يتذمرون من قدومه ثم علمت أنه الحر بن يزيد التميمي قدم من القادسية في الف فارس لرد الحسين عن الـكوفة . فالتفتت سلمى الى الناحية الثانية من الجبل فرأت الخيل قد ملأت السهل

ثم دخل الحر على الحسين وقال له « ما الذي جاء بك الى هذه البلاد »

فقال الحسين « اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ان اقدم اليكم »

فقال الحر « اننا والله ما ندري ما هذه الـكتب »

فقال الحسين « اتـكتبون ثم تنكرون »

قال « اننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك وانما نحن امرنا اذا لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الـكوفة على عبيد الله بن زياد »

فقال الحسين « للموت أدنى اليكم من ذلك » ثم صاح في أصحابه « قوموا فاركبوا وانصرفوا »

فاعترضه الحر قائلاً « انهم لا ينصرفون »

فصاح الحسين فيه « ثـكلتك امك . ماذا تريد .. ؟ »

قال له الحر « أما لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركت ذكر أمه بالثـكل كائناً من كان . ولـكن والله مالي الى ذكر أمك من سبيل الا باحسن ما نقدر عليه »

فقال الحسين « فما تريد »

قال « أريد ان انطلق بك الى الامير عبيد الله »

قال « اذاً والله لا اتبعك »

فنظر الحر اليه وعيناه تعتذران عن جسارته وقال « اني لم أؤمر بقتالك وانما أمرت ان لا افارقك حتى أقدمك الكوفة فاذا ابيت فخذ طريقاً لا يدخلك الكوفة ولا يردك المدينة ريثما أكتب الى عبيد الله فاستشيره في أمرك

الفصل التسعون

زينب بنت علي

فرضي الحسين بذلك وأمر الناس بالركوب . فلما سمعت سلمى ما دار بينهما تحققت عجز الحسين عن قتال هؤلاء واستعاذت بالله من عاقبة ما تراه . ثم عادت الى شأنها وآن لها ان تبحث عن عبد الرحمن وعامر بحثاً دقيقاً فلم تر خيراً من أن تدخل خباء النساء وكانت تعرف اكثرهن وهن يعرفنها معرفة سطحية لانها لم تقم بينهن طويلاً . فتحولت الى فسطاط آخر دخلت فيه فرأت امرأة لم يقع نظرها عليها حتى عرفت انها زينب اخت الحسين وكانت شديدة الشبه به لانهما من ام واحدة (فاطمة بنت الرسول) ولكنها رأتها في انهماك وبغتة وقد علت جبينها دلائل الاهتمام وعيناها تتوقدان ذكاء وتعقلاً وكانت زينب مشتغلة بطفل بين ذراعيها لا يزيد عمره على سنة وبعض السنة تربّته وتشدوله وعيناه ذابلتان للرقاد وقد أشرق وجهه كانه يتدفق نوراً وحياة . والطفل في غفلة عما حاق باهله من الامر العظيم . فعلمت سلمى انه علي الاصغر بن الحسين وهو أصغر اولاده وكان للحسين ثلاثة ابناء اسم كل واحد منهم علي . وانما يفرقون بعضهم من بعض بلقب السن فالاكبر اسمه علي الاكبر والثاني علي الاوسط (زين

العابدين) والثالث علي الاصغر وهو هذا

اما زينب فحالما وقع نظرها على سلمى عرفتها واستغربت حضورها في تلك اللحظة بغتة . ولكنها لعظم ما عاينته من الاهوال لم تعد تستبعد شيئاً. فابتسمت ابتسامة الترحاب بالرغم من شواغلها واستأنست بها واجلت الاستفهام عن حالها الى فرصة أخرى . فاسرعت سلمى اليها وهي تشاركها بعواطفها وتعرض عليها مساعدتها . فاشارت اليها زينب ان « خذي هذا الغلام على ذراعك ريثما ينام » فتناولته وحنت اليه حنو الوالدة على ولدها . فلما خلت يدا زينب تحولت الى فراش في بعض جوانب الخباء عليه غلام مضطجع فتبعتها سلمى ببصرها وتفرست في الراقد فاذا هو علي الاوسط وقد توردت وجنتاه وتصبب العرق من جبينه وذبلت عيناه وهما مفتوحتان حمراوان كالدم ودلائل الحمى بادية فيهما . ورأت صبية جميلة الخلقة نجلاء العينين جاثية بجانب المريض وهي مرتبكة والدموع في عينيها مع ما يتجلى في وجهها من البشاشة الغريزية . فعلمت سلمى أنها سكينة بنت الحسين أخت ذلك الراقد . وكانت سكينة من أجمل النساء واظرفهن واحسنهن اخلاقا مع خفة الروح والميل الى المجون

فوقفت سلمى وهي تتشاغل بتربيت الطفل وتنظر الى زينب فاذا هي قد دنت من فراش المريض وجست يده ومسحت العرق عن وجهه . ثم التفتت الى سكينة وقالت « لا بأس عليه يا حبيبتي باذن الله ولا تلبث الحمى ان تفارقه عما قليل بما يسكب عنه من العرق »

فلم تجبها سكينة الا بالبكاء ثم رفعت صوتها وقالت « صبراً على حكم العناية . . . اما كفانا ما احدق بنا من الاخطار حتى اصيب اخي هذا المرض . . فماذا عسى ان تكون عاقبة هذه النوازل ؟ » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فاومأت زينب وهي تتجلد « ان لا تقولي ذلك على مسمع من المريض لئلا يشتد مرضه » ثم امسكتها بيـدها وانهضتها وقالت لها « قومي يا بنت اخي هلمي بنا نتأهب للرحيل فان والدك قد امر بالركوب »

فنهضت الفتاة وأخـذت تهتم بنفسها . فوقع نظرها على سلمى فعرفتها واستأنست بها وهشت لها وابتسمت حالا لانها لم تكن تطيق الانقباض لانطباعها على السرور وحب المزاح (١)

الفصل الحادي والتسعون

حديث الهودج

وكان الطفل قد نام على ذراعي سلمى وهي تضمه الى صدرها وتتيمن بقربه لانه ابن الحسين وفيه من دم الرسول . فلما ارادت زينب ان تأخـذه منها قالت لها « دعيه نائماً على ذراعي فان ذلك اريح له من الانتقال »

قالت بورك فيك يا بنيـة ولـكنني أرى ان اضجعه في الهودج ونحن على أهبة الرحيل »

قالت « اني ذاهبة في خدمته الى حيث يسير . دعي أمر العناية به اليَّ واشتغلي بشؤونك »

فاثنت عليها وتحولت الى فراش علي فانهضته وأمرت من معها من النساء والجواري ان يهتممن بشد الرحال

وكان الرجال قد أخـذوا في تقويض الخيام وتحميل الاحمال . وركب كل منهم في مركبه وركبت سلمى في هودج مع زينب والطفل وهي تشتاق

(١) الاغاني

الى الاستفهام عن عبد الرحمن ولـكنها استحيت ان تسألها وهي في تلك الحال

واقلع الركب وساروا في طريق وسط بحيث تكون الـكوفة الى يمينهم . والحرّ ورجاله سائرون بالقرب منهم ليمنعوهم من الرجوع اذا أرادوه

وكانت زينب وهي في الهودج تشرف من خلال الستور على اخيها ومن معه هنيهة بعد هنيهة وتعود الى مقعدها وهي تتأوه . فعلمت سلمى انها انما تفعل ذلك لعظم قلقها واضطرابها . فارادت أن تسليها وتخفف عنها وهي تتوقع ان تستطرق الى حديث حبيبها فقالت « مالي اراك في هذا الاضطراب يا مولاتي »

فتنهدت زينب ونظرت الى سلمى نظر المتـأمل وقالت « تسألينني عن سبب اضطرابي وأنت ترين ما نحن فيه ... ألا تعلمين اننا ذاهبون الى القتل ؟ »

قالت « ولماذا تقولين ذلك ان الله ينصر نصراءه ويرفع كلمتهم »

قالت « صدقت يا بنية ولـكنك لو عرفت ما ينتظرنا في الـكوفة وفي ضواحيها من الاهوال وما هنالك من الاعـداء وفيهم الفرسان والرجالة لعجبت لمسيرنا . ولـكن اخي أبى الا المسير وقد نصحوا له ان يرجع فابى . وها نحن سائرون ومعنـا الاطفال والغلمان والنساء وفيهم المرضى والضعفاء والرضع . وليس معنـا من الرجال الا اخوتي لابي وهم ستة العباس وجعفر وعبد الله وعثمان وعبيد الله وابو بكر . وما من اولاد اخي الحسين من يستطيع القتال الا علي الاكبر . وهذا علي الاوسط غلام وهو مريض . ومعنا من ابناء اخي الحسن رحمه الله اثنان صغيران ابو بكر والقاسم وبضعة آخرون من ابناء عمي عقيل الذين قتل اخوهم مسلم في الـكوفة [1] ... » ثم تنهدت وقالت « آه لو تعلمين كيف قتلوه !! »

فتذكرت سلمى مقتل مسلم وحان لهـا أن تظهر نفسها وتستطرق الى

(١) ابن الاثير ج ٤

حديث حبيبها فقالت « اني اعلم بمقتل ذلك الشهيد يا مولاتي »

فانتبهت زينب لنفسها وأدركت انها كان يجب أن تسألها عن حالها فقالت « اظنك من أهل الكوفة ... فهل جئت منها قريباً ؟ »

فقالت « نعم كنت في الكوفة ورأيت مسلماً يناضل بسيفه في بيت طوعة الكندية ثم رأيتهم يسوقونه والدم يسيل من شفتيه . وعلمت انهم لما بلغوا به الى دار ابن زياد قتلوه قتلة لم نسمع بمثلها من قبل .. اصعدوه الى أعلى القصر فضربوا عنقه وقذفوا بجثته الى أسفل »

فصاحت زينب « قتلهم الله ما اقسى قلوبهم ... اني كلما فكرت في ذلك يقشعر بدني »

فقالت سلمى « من انبأكم بمقتل مسلم ؟ »

قالت « لم نسمعه الا بالامس وكان أخي قد ارسل نفراً من اصحابه للبحث عن حقيقة الحال وفيهم اثنان كنديان لم ارَ أشد غيرة منهما على الاسلام حبا آنا من أمد غير بعيد وقد قص أخي عليّ من أخبار غيرتهما ما يفرح قلب كل مسلم »

فلما سمعت سلمى ذكر الكنديين خفق قلبها عساهما أن يكونا عامراً وعبد الرحمن ولكنها تجلدت وسألتها « ومن هما ذانك الرجلان يا سيدتي »

قالت « لم أرهما يا بنية ولكنني سمعت أخي يذكر أن احدهما ابن اخ حجر بن عدي صاحب الغيرة المشهورة في نصرة الحق وهو الذي قتله معاوية ابن أبي سفيان ظلماً .. »

ولم تكد زينب تتم قولها حتى ارتعدت سلمى وكان الطفل لا يزال على حجرها فاجفل من اجفالها وصعد الدم الى وجهها بغتة وأخذت الدموع تتجلى في آماقها

الفصل الثاني والتسعون

كشف السر

فاستغربت زينب ذلك منها وكانت تعرفها معرفة بسيطة ولا تدري علاقتها بعبد الرحمن فقالت « ما الذي غيرك يا بنية »

فلم تتمالك سلمى عن أرسال الدمع وهي تقول « وهل سمعتم شيئاً عن ذلك الوفد يا مولاتي ... ؟ »

فتنهدت زينب وقالت « والهفي عليهم لقد بلغني أن ابن زياد اللعين قبض عليهم وفعل بهم مثل فعلته بابن عمي مسلم ... »

فصاحت سلمى « قتلوهم يا سيدتي ؟ . . قتلوهم جميعاً . . » قالت ذلك وهمت باضجاع الطفل في الهودج الى جانبها لئلا يعيقها عن الحركة أو اذا تحركت توقظه .

فادركت زينب أن في الامر سراً فقالت « لا . . لم يقتلوهم جميعاً . . لا أدري سوى أنهم قتلوا بعضهم .. »

فقالت « هل قتلوا عبد الرحمن . . أواه .. قتلوه .. » قالت ذلك وهي تلطم وجهها

فامسكتها زينب وقد نسيت مصيبتها واشتغلت بما رأته من لهفة الفتاة وبكائها وقالت لها « ومن هو عبد الرحمن يا بنية وهل من قرابة بينك و بينه »

قالت « انه ابن عمي ... و ... هل قتلوه والحقوه بابي ؟ .. »

فلما سمعت قولها تفرست في وجهها فرأت فيها شبهاً بحجر بن عدي فقالت « لعلك ابنة حجر بن عدي »

قالت « نعم يا مولاتي اني ابنة ذلك المقتول ظلماً انا ابنة حجر الذي ذهب شهيد الحق .. ذهب في سبيل نصرة أبيك صهر النبي وابن عمه ووصيه وحبيبه . بالله أخبريني افرجي كربي .. أخبريني هل قتلوا عبد الرحمن ؟ »

فصمتت زينب لحظة وقد تفتقت جروحها وتذكرت مقتل ابيها وما يقاسونه من العذاب والبلاء بسبب ذلك . ولكن خاطرها اشتغل بسلمى لما رأته من غريب أمرها اذ تذكرت احاديث سمعتها عن عبد الرحمن وخطبته وموت خطيبته فقالت « ألعلك خطيبة عبد الرحمن »

قالت وهي مطرقة « نعم ياسيدتي انا هي تلك التعسة .. انا سلمى الشقية .. كتب عليّ ان احيا بعد موت والدي وابن عمي .. آه يا رباه ماهذه المصائب ... ولكن .. هل مات أبن عمي حقيقة ؟ .. »

فارادت زينب أن تخفف عنها فقالت « تجلدي ياسلمى ... تجلدي يا ابنتي .. اني أرى في الامر سراً عظيما وأمراً غريباً لاني سمعت عبد الرحمن فقد خطيبته في دار يزيد بن معاوية في دمشق. وانه جاء الانتقام لها ولوالدها ووالدي رحمها الله . وهو انما أراد الذهاب الى الكوفة سعياً في هذا السبيل... كيف يقولون انك قتلت وأنت حية ؟ »

فقالت « انهم قتلوني ثم أحيوني كما قتلوا عبد الرحمن واحياه الله . وقد خرجنا من دمشق وانا أحسبه مات وهو يحسبني مت ولكنني عرفت ببقائه حياً بالامس وقيل لي انه معكم فجئت لألاقيه وألاقي عامراً وصينا فاذا انا أسمع ما سمعته منك... اشفقي عليّ يا بنت بنت الرسول وارثي لحالي وابكي معي .. بل ابكي عليّ ... اعذريني يا مولاتي على ما فرط من عواطفي بالرغم عني . وما أنتم في حال تساعدكم على الاهتمام بمثلي »

فاستغربت زينب كل كلمة تسمعها ولم تفهم السر في موتهما وحياتهما

فقالت « لا تيأسي من رحمة الله . . نعم ان عبد الرحمن وعامراً خرجا الى الكوفة مع الوفد ولكننا لم نسمع بمقتل واحد منهما . سمعنا بمقتل سواهما ولا أظن هذين الا في قيد الحياة فاخبريني عما كان من موتك وموته في دار ابن معاوية »

فاخذت سلمى تقص حديثها وزينب تنظر اليها وتشاركها بكل حركة وقد انصرف ذهنها عن مصيبتها برهة

الفصل الثالث والتسعون

جمجع بالحسين

فلما فرغت من حديثها كانت زينب قد آنست فيما سمعته من سلمى عبرة وموعظة وأعجبت بغيرتها على الاسلام وخصوصاً على بيت ابيها الامام علي فقالت لها « ان حديثك اثر في خاطري تأثيراً كبيراً وهوّن عليّ ما كنت اتخوفه من الموت . وما الموت بالامر الذي يجب ان نخافه طالما كنا نعتقد الحق في جانبنا فاتخذي حالنا موعظة لك » ثم فتحت ستار الهودج وقالت « انظري الى هؤلاء وهم خيرة بيت الرسول — أنهم ملقون بانفسهم الى القتل لانهم يعتقدون الحق في جانبهم ويرون خيراً لهم ان يموتوا محقين من ان يعيشوا ضالين ... »

فشعرت سلمى انها بالغت في شكواها وبيان مصيبتها بالنظر لما تراه من المصيبة التي يتوقعونها عما قليل وهي ضربة شديدة على الاسلام والمسلمين . فابتدرتها قائلة « أني لا اجهل ما نحن فيه يا مولاتي .. ومن هو عبد الرحمن ومن انا او كل المسلمين في جانب ابناء بنت الرسول وأولادهم ... ولكن يسوءني ان يغلب الباطل على الحق . وان أرى الطغاة ينتصرون والكرام

يغلبون ... ويفعل الله ما يشاء »

وبينما هما في الحديث شعرتا بالهودج قدوقف بغتة وسمعتا لغطاً . فاطلت سلمى من خلال الستور فرأت الركب قد وقف ووقف الحر ورجاله بازاء الحسين ورجاله . واذا برجل على ناقة قادم من نحو الكوفة وقد نكب قوسه وترجل وتقدم الى الحر ودفع اليه كتاباً

فقالت زينب « ماذا عسى ان يكون خبر هذا الساعي وما في كتابه ؟ »

قالت ذلك وترجلت فترجلت سلمى واسرعتا الى الحسين ووقفتا تنتظران ما يكون من أمر ذلك القادم . فاذا بالحر قد تناول الكتاب وقرأه ثم تحول الى الحسين وهو يقول « هذا كتاب من الامير عبيد الله بن زياد هل اتلوه عليك ؟ »

قال الحسين « اتله »

فقرأه فاذا فيه « اما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي . ولا تنزله الا بالعراء في غير خضرة وفي غير ماء . وقد امرت رسولي ان يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك امري والسلام »

فلما فرغ الحر من تلاوة الكتاب نظر الى الحسين كانه يعتذر له بذلك الامر وقال له « لا اقدر أن انزلك الا في هذا المكان » وأشار الى سهل كربلاء على مقربة منهم والفرات من ورائه والجند يحول بينه و بين الما

فتقدم الحسين اليه أن ينزله في مكان آخر فيه ماء . فابى وسافهم الى كربلاء

واما سلمى فنسيت قلقها على عبد الرحمن وعامر وانشغلت بامر الحسين وأهله ولازمت زينب والطفل . اما زينب فانها عهدت بالطفل الى سلمى واشتغلت بتدبير من بقي وخصوصاً الغلام المريض فان الحمى عاودته

واشرفوا في الصباح على كربلاء وسلمى في الهودج فرأت جند الكوفة

قد ملأوا السهل وحالوا بينهم و بين الماء . فتطاولت بعنقها لعلها ترى الشيخ الناسك قادماً لكي تستطلع منه حال عبد الرحمن بعد ما سمعته من مسيره الى الكوفة . أو تستفيد منه شيئاً يهم الحسين في تلك الحال . فلم تر أحداً

أما الحسين وأهله فلما وصلوا كربلاء ضربوا خيامهم وجعلوا أخبية النساء الى الوراء وخيام الرجال الى الامام

و أما زينب فلم تشأ ان تترك اخاها وحده فسارت الى فسطاطه وتبعتها سلمى وهي لا تقل قلقاً عنها . فاذا بالحسين جاث بباب خيمته يصلي فصبرتا حتى فرغ من صلاته فرأتا رجلاً من جند الكوفة قادماً عليه فلما وصل الى الحسين حياه . فقال له الحسين « من الرجل »

قال « جئت برسالة من رئيس هذا الجند عمر بن سعد »

قال « وما هي رسالتك »

قال « هو يسألك ما الذي جاء بك وماذا تريد ؟ »

ففال له الحسين « قل له ان أهل مصركم هذا كتبوا اليّ ان اقدم فقدمت. فاما اذا اكرهتموني فانا انصرف عنكم . أو آتي يزيد بن معاوية فاضع يدي في يده »

فلما سمعت سلمى قوله تناثر الدمع من عينيها لما توسمت في جوابه من دلائل الخوف والضعف

الفصل الرابع والتسعون

علي الاصغر

ولما عاد الرسول بالجواب التفت الحسين الى اخته زينب وقال لها « ما الذي جاء بك يا اخية ؟ »

قالت « اتسألني عما جاء بي ؟ ومن لي في هذه الارض بعدك ؟ »

فدمعت عينـا الحسين وهو يتجلد ويتظاهر بالصبر . وأدركت سلمى ذلك فيه فتحولت حياء منـه الى خباء زينب . وكانت قد تركت الطفل مضطجعاً فيه ولم تدخل الخباء حتى رأت الطفل يدرج اليها وخلاخيله ترن في رجليـه وهو يضحك وذؤابتاه مرسلتان على عنقه وقميصه مشقوق من اعلى الصدر وحول العنق عقد من الجزع الثمين وفي يده عود يلعب به وامارات البشر بادية على وجهه . فلم تمالك سلمى عند ذلك عن البكاء وقالت في نفسها « هنيئاً لهـذا الطفل لانه في غفلة عما يهدد والده من الخطر العظيم ... هنيئاً له من نفس زكيـة طاهرة ساذجة لا تعرف متاعب الحياة . له قلب لا يعرف الانتقام ولا الحقد . وهو اذا لقي الرجل لا يبالي ما اذا كان صديقاً أو عـدوًّا واذا سقي السم تجرعه وهو يحسبه ماء زلالا . يلقي نفسه على كل من يهش له ويحب كل من يلاعبه »

ثم دنت منه و بسطت له ذراعيها فهرع اليها وأخـذ يلاعبها — يعبث تارة بشعرها وطوراً يجـذب نقابها وهي تضحك له وقلبها يكاد يقطر دماً لما تتوقعه من الامر الـكبير . وما عتم ان ضمته حتى سمعته يذكر اباه بلسان الاطفال

فقالت له « ان اباك لا يلبث ان يأتيك على عجل » فصمم الا أن يراه . ولما ألحت في منعه عمد الى البكاء . فانفطر قلبها عليه وحملته حتى اتت به والده وهو لا يزال جالساً بباب خيمته وحده . فلما وقع نظر الحسين على ابنه ابتسم له بالرغم عنه وبسط له ذراعيه فالتقى الغلام نفسه عليه واطمأن في حجر والده فجعل الحسين يقبله ويبكي والغلام يضحك ويقهقه وسلمى ترى ذلك وتكظم ما في نفسها . والحسين لم يكن يعرف سلمى الا انها من بعض توابع نسائه . فجعل يلاعب الطفل وهو تارة يدعو له وطوراً يحن اليه ويشفع الحنين بالبكاء . وآونة يربته والطفل يضحك ويلعب ويضع يده على لحية ابيه أو على عارضيه او عنقه والحسين يتنهد وزفيره يكاد يذيب الحديد . حتى لم يبق له صبر على ذلك . فاشار الى سلمى فمدت يدها وتناولت الغلام وعادت به وهو يود البقاء في حجر والده

الفصل الخامس والتسعون

الشيخ الناسك

وهي عائدة لاحت منها التفاتة الى بعض جوانب البر فرأت شبحاً مسرعاً من ناحية الكوفة . ولم يقع نظرها عليه حتى عرفت انه الشيخ الناسك فخفق قلبها وهرولت الى الخباء فدفعت الطفل الى سكينة اخته وخرجت لملاقاة الشيخ الناسك . ولما دنت منه سمعته يدمدم ويتمتم فاقبلت عليه حتى التقيا بقرب فسطاط الحسين فارسل الناسك شعره على وجهه وأشار اليها انه يريد ان يكلم الحسين فاستبشرت باشارته . ومشت معه الى باب الخيمة فلما رآه الحسين استغرب منظره ولكنه رحب به وتوسم فيه الخير فقال « اهلاً بالشيخ الجليل »

فقال الشيخ « ارجع يا حسين ! .. ارجع الى المدينة انها خير لك وابقى ... ان الناس هنا يريدون بك شراً ولا تقوى على قتالهم »

فقال الحسين « اني اراك ذا كرامة فقل ما يبدو لك »

قال « انظر يا مولاي الى هـذا الجند انهم اربعة آلاف رجل بقيادة عمر بن سعد وقـد أمروا أن يقاتلوكم وانتم فئة قليلة لا تقوون عليهم » قال ذلك وانحدرت عبراته على لحيته

فتأثر الحسين من منظره ولكنه تجاهل ما يراه وقال « أني أرى رأيك فهل من رجوع ... »

قال « اطلب الرجوع فان قبلوا كان به والا فانك .. » وبكى بصوت عال فبكت سلمى . وأما الحسين فقال « لقد علمت مصيري لاني رأيت جدي (صلعم) الليلة يدعوني اليه وما عنده خير مما في هذه الدنيا الفانية »

فكفكف الشيخ دمعه وقال « أما وقد رأيت رغبتك في الآخرة فاعلم أن ابن زياد لم يجب طلبك وقد كان أوشك ان يجيبه لولا ذلك الخائن ... »

قال « ومن هو »

قال « لما عرضت رسالتك على ابن زياد قبلها ولـكن رجل السوء كان حاضراً وهو شمر بن ذي الجوشن فقام اليه وقال له (أتقبل هذا منه وقد نزل بارضك الى جنبك . والله لان رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة ولتكونن أولى بالضعف والعجز . فلا تعطه هذه المنزلة فانها من الوهن . ولـكن لينزل على حكمك هو وأصحابه فان عاقبته فانت أولى بالعقوبة وان عفوت كان ذلك لك) فاستحسن ابن زياد الرأي وبعثه مع كتاب الى عمر بن سعد رئيس هذا الجند يأمره فيه ان يعرض عليكم النزول على أمره فان فعلتم بعث بكم اليه سلماً وان أبيتم قاتلكم . وقال ابن زياد لشمر (فان

فعل عمر بن سعد فاسمع له وأطع وان أبى ان يقاتلهم فانت أمير الجيش واضرب عنقه وابعث اليّ برأسه) وهاك فحوى كتاب ابن زياد الى عمر بن سعد : اني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتعتذر عنه ولا لتكون له عندي شافعاً . انظر فان نزل الحسين واصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم اليّ سلماً وان ابوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون وان قتل الحسين فاوطأ الخيل صدره وظهره... فان أنت مضيت لامرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع وان ابيت فاعتزل عملنا وجندنا وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن والعسكر فانا قد أمرناه بامرنا والسلام — وقد جاء يا مولاي شمر اللعين بذلك الكتاب الى عمر . فعنفه عمر وقال له (اني لا أظنك الا نهيته أن يقبل بما كتبت به وأفسدت علينا أمراً كنا قد رجونا أن يصلح . والله ان الحسين لنفس ابيه بين جنبيه) فلم يصغ شمر لقوله وخاف عمر ان يخالفه فيقتل فاتفقا ان يعملا معاً وتولى شمر امارة الرجالة واظنه قادماً اليك في الغد

الفصل السادس والتسعون

التردد

فلم يتم الشيخ كلامه حتى بلت سلمى شعرها بالدمع وقد زاد شجونها اسم شمر بن ذي الجوشن وقد كانت تحسبه قتل في دمشق على ما قصه عليها الناسك من حديث عامر عند انقاذه عبد الرحمن من السجن . وأما الحسين فلما سمع كلام الناسك اعتبره ولم يكن بالامر الجديد عنده ولكنه تجلد وقال « انا صابرون لحكم الله والله مع الصابرين »

ثم تحول الناسك فتبعته سلمى وهي ترجو ان تستفهمه عن عبد الرحمن .

فاذا هو قد توغل في الصحراء ولم يلتفت اليها فوقفت حائرة وقد استغربت أطوار ذلك الرجل . ثم حدثتها نفسها أن تلحق به وهي اذا فعلت ذلك تنجو من خطر القتل . ولكنها قالت في نفسها « ألعلي خير من كل هؤلاء فاذا قتلوا هم فما الفائدة من بقائي . وأما عبد الرحمن فاذا كان لا يزال حياً الى الآن وقتل الحسين فانهم يقتلونه . . . ولكن . . اذهب لعلي أراه ثم أعود الى هذا الركب ... لا . لا .. من أين اعود وكيف أعود . . . يا ويلاه . . ماذا اعمل أأترك عبدالرحمن وانا لا أعرف مقره ولا ابحث عنه . ولكن كيف أخرج من هنا ومن ينبئني بمكانه.. لا بل ابقى هنا أناضل مع الحسين واحارب معه فاذا انتصرنا كان الحظ كاملاً وهي السعادة في الدارين . واذا قتلنا فلا اسف على الحياة ولا أشرف من موتة اموتها مع الحسين وأهل بيته .. هل انا خير من زينب أم سكينة أم الحسين ؟ أم .. ام . . ولكن هب اني أردت الخروج ألا يحمل الحسين خروجي محمل الخوف . . » وبعد التردد مدة عولت على أن تبقى مع الحسين . فاما أن تموت معه او تحيا معه . فعادت وقد صغرت نفسها وايقنت بالهلاك الا ان يأتيهم الله بفرج من عنده

وتحولت الى خباء زينب وتحول خاطرها الى الطفل فقالت في نفسها « اذا قدر الله فشل الحسين أو قتله ماذا يكون من أمر هذا الطفل ؟ ..وشعرت بانعطاف اليه فاقبلت الى الخباء فاذا بالطفل يبكي فاسرعت اليه وضمته وقبلته وسألته عما يريد فاذا هو يشكو الظمأ وما في المعسكر قطرة ماء فبحثت عن زينب حتى رأتها بجانب فراش ابن أخيها المريض وقد تعاظمت الحمى عليه وهو يهذي ويخلط بكلامه . فلم تتجاسر أن تخاطبها ولا هي قادرة على اسكات الطفل . فلما سمعت زينب صراخ الطفل نهضت اليه وتناولته وجعلت تقبله والدموع تتساقط على خديه وهي تقول اشرب من هذا الدمع لعله يرويك . . اسرب انهم منعوا الماء عنا والكلاب تشربه »

فقالت « أو ليس عندنا شربة ماء اني أري الفرات امامي ؟ »

فصاحت زينب « انهم منعونا الماء » ألا تسمعي أصوات هؤلاء الظالمين الساعة يقولون لاخي « ياحسين ألا تنظر الى الماء كانه كبد السماء والله لا تذوقون منه قطرة واحدة حتى تموتوا عطشاً ؟ » (١)

فقالت سلمى « قبحهم الله ما اقسى قلوبهم وما أغلظ طباعهم أيمنعون الماء عن المرضى والاطفال » وأخذت تعلل الطفل بخرقة وضعتها في فمه وما زال يمضغها ويمصها وهو انما يمص ريقه حتى غلب عليه النعاس فنام

وفي عصر ذلك اليوم (الخميس ٩ محرم سنة ٦١ هـ) كانت سلمى وزينب وسكينة جالسات في الخباء وهن يتحادثن في مايخفنه على الحسين ورجاله فسمعن قرقعة اللجم وصهيل الخيل وأصوات الرجال فخرجت زينب ثم عادت وهي تقول « لقد اتوا قتلهم الله »

فلما سمعت سلمى ذلك تحمست وثارت الحمية في رأسها وقالت في نفسها « لقد حان الاستشهاد في سبيل الحق .. وهل أرى سبيلاً الى الجنة خيراً من هذا ؟ » وتلثمت بخمارها واسرعت الى قوس معلقة في دعامة الخباء فتناولتها وجعلت تبحث عن السيف . وفيما هي في ذلك رأتها زينب فقالت لها « وماذا تفعلين يا سلمى ؟ »

قالت « لا أفعل شيئاً وانما انا طالبة وجه ربي اليوم »

قالت « ألعلك تريدين النزول الى ساحة الحرب »

قالت « نعم »

قالت « واني انا ذلك .. يا حبذا لو اننا ننزل جميعاً فنقاتل حتى نقتل مع هؤلاء . ولكن اخي الحسين منعنا واستحلفنا ان نأوي الى الخباء .. ألم تري اني خرجت الآن اليه فرأيته جالساً بباب خيمته ومعه سيفه وكأنه لم

---

(١) كتاب الارشاد

يسمع صهيلاً ولا صليلاً . فدنوت منه فرأيته نائماً ورأسه الى ركبته فناديته فافاق فقلت (اما تسمع الاصوات قد اقتربت ؟) فرفع رأسه وقال (رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله الساعة في المنام فقال لي انك تروح الينا) فلما سمعت قول اخي لطمت وجهي وناديت بالويل فقال لي ليس لك الويل يا أخية اسكتي رحمك الله واستحلفني ان لا أرفع صوتي وكلامه لا يرد فهل تريدين غضبه ؟ امكثي معنا يا سلمى ويكفيك من التعب أن تلاحظي هذا الغلام وانا اعالج المريض حتى يقضي الله بما يشاء »

فشق ذلك على سلمى واسقط في يدها وقد كانت تود ان تستقتل حتى تقتل ولو انها تلقى شمر فتطعنه بالحربة أو ترميه بالسهم . لانها تصورت كل هذا البلاء منه فضلاً عما لاقته بسببه في دمشق . وكانت تحسبه مات فلما تحققت بقاءه حيًّا تضاعف بلاؤها . ولكنها لم تكن لتعصى اشارة الحسين فوقفت مبهوتة لا تدري ماذا تعمل . على انها تظاهرت بالقبول ثم خرجت ملثمة حتى وقفت بازاء خيمة الحسين فرأت اخاه العباس قادماً على راحلته من معسكر العدو فعلمت انه سار اليهم بمهمة فاستقبله الحسين وسأله عما كان من أمر هؤلاء

فقال العباس « قد استمهلتهم الى الغد فامهلونا على ان نستسلم فيسرحونا الى اميرهم عبيد الله بن زياد والا فليس عندهم غير الحرب »

الفصل السابع والتسعون

شهامة الرجال

فلما سمع الحسين ذلك قال « خسئوا » ووقف وصاح في أهله فاجتمع حوله كل اخوته وابناء عمه وكل من معه من الرجال ووقفوا ينتظرون ما

يقوله وكلهم طوع اشارته . فلما تكامل جمعهم وقف فيهم موقف الخطيب وقال « أثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء . اللهم اني أحمدك على ان اكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا اسماعاً وابصاراً وافئدة فاجعلنا من الشاكرين . اما بعد فاني لا أعلم اصحاباً أوفى ولا خيراً من اصحابي ولا أهل بيت ابر ولا اوصل من اهل بيتي . فجزاكم الله عني خيراً . ألا واني لا أظن يوماً لنا من هؤلاء الا واني قد اذنت لكم فانطلقوا جميعاً فانكم في حل ليس عليكم مني ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً »

فصاحوا جميعاً بصوت واحد « لم نفعل ذلك انبقى بعدك لا ارانا الله ذلك ابداً » ولما سمعت سلمى كلامهم لم تمالك ان قالت مثل قولهم والدمع ملء عينيها . فانتبه لها بعض الوقوف فالتفتوا اليها فاستحيت وبالغت في اخفاء وجهها

اما الحسين فعاد الى الكلام وخاطب أبناء عمه فقال « يا بني عقيل حسبكم من القتل بمسلم فاذهبوا انتم فقد أذنت لكم »

فاجابوه « سبحان الله ماذا يقول الناس ؟ يقولون انا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الاعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندري ما صنعوا ؟ لا والله ما نفعل — ولكن نفديك بانفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك »

فارادت سلمى ان تقول قولاً فاذا برجل رفع صوته بين الناس وقال « نحن نخلي عنك . . ؟ وبماذا نعتذر الى الله في اداء حقك . . ؟» اما والله حتى اطعن في صدورهم برمحي واضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي . ولو لم يكن معي سلاح اقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة . والله لا نخليك حتى

يعلم الله انا قد حفظنا غيبة رسوله فيك · اما والله لو قد علمت أني اقتل ام احيا ثم اذرى — يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى القى حمامي دونك. وكيف لا افعل ذلك . وانما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها ابداً »

فسألت سلمى عن القائل فقيل لها انه مسلم بن عوسجة · ثم سمعت غيره قال مثل قوله فانتعشت آمالها واعجبها ما رأته من الاتحاد والاستهلاك في سبيل الحق

فاثنى الحسين عليهم وتحول الى خبائه وتحول الباقون وسارت سلمى الى خباء زينب لتفتقد الطفل · وكان الليل قد اقبل فاذا هو لا يزال نائماً فسرت بنومه . ورأت زينب بجانب فراش المريض تمرضه فجلست الى جانبها وقد انتعشت بما سمعته في ذلك المساء وذهب كل الى فراشه وزينب وسلمى ساهرتان تمرضان علياً وتتحدثان بما يتوقعونه

وفيما هما تتكلمان همساً والليل هادىء وعلي قد نام وهو يئن من شدة المرض سمعتا قائلاً يقول :

يا دهر اف لك من خليل	كم لك بالاشراق والاصيل
من صاحب او طالب قتيل	والدهر لا يقنع بالبديل
وانما الامر الى الجليل	وكل حي سالك سبيلي

وكان الصوت خارجاً من فسطاط الحسين فعلمت زينب انه صوته فلم تملك نفسها ان وثبت تجر ثوبها وهي حاسرة الرأس فتبعتها سلمى حتى انتهتا الى الحسين فرأته جالساً والى جانبه خادمه يعالج سيفه ويصلحه فصاحت زينب « واثكلاه ليت الموت اعدمني الحياة اليوم . ماتت امي فاطمة وابي علي واخي الحسن . يا خليفة الماضي وثمال الباقي ! . . »

فنظر الحسين اليها وقال « يا اخية لا يذهبن حلمك الشيطان » ثم ترقرقت الدموع في عينيه وقال « لو ترك القطا لنام »

فقالت زينب « يا ويلتاه افتغتصب نفسك اغتصاباً فذاك افرح لقلبي واشد على نفسي » ثم لطمت وجهها وهوت الى جيبها فشقته وخرت مغشياً عليها . فهمت سلمى بها واجلستها وقام الحسين لها وقال « يا اختاه اتقي الله وتعزي بعزاء الله واعلمي ان اهل الارض يموتون وأهل السماء لا يبقون وان كل شيء هالك الا وجه الله . . جدي خير مني وابي خير مني وامي خير مني واخي خير مني ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة » ثم قال لها « يا اخية اني اقسمت عليك فابري قسمي ولا تشقي عليَّ جيباً ولا تخمشي عليَّ وجهاً ولا تدعي علي بالويل والثبور اذا انا هلكت »

الفصل الثامن والتسعون

صباح القتال

فاطاعته وخرجت وسلمى تتبعها وهي صامتة وقد احبت الموت مع الحسين . أما الحسين فقضى ليله يصلي ويستغفر ويدعو ويتضرع واصحابه كذلك وقضت سلمى ليلتها مثلهم وقد اخذ العطش منهم مأخذاً عظيماً

واصبحوا في اليوم التالي وهو العاشر من المحرم فاشتغل الحسين في ترتيب رجاله فامرهم أن يدخلوا اطناب الاخبية بعضها في بعض حتى تصير كأنها خباء واحد . وان يستقبلوا القوم من وجه واحد والبيوت من ورائهم . ولم يكادوا يفعلون ذلك حتى رأوا الخيل اقبلت عليهم وفي مقدمتهم شمر بن ذي الجوشن . وكانت سلمى واقفة في باب الخباء فلما رأت شمر ارتعشت اعضاؤها ورفعت نظرها الى السماء وطلبت الى الله أن ينتقم منه

ثم حدثتها نفسها ان ترميه بسهم ولكنها تذكرت ان الحسين لا يريد ذلك فصبرت واكتفت بالدعاء وملاطفة الطفل

أما الحسين فركب راحلته وعليه جبته وقلنسوته وتقدم وهو ينادي باعلى صوته « يا اهل العراق » فسمعه اكثرهم واصغوا لما سيقوله فقال « ايها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى اعظكم بما يحق عليّ وحتى اعذر اليكم فان اعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد وان لم تعطوني النصف من انفسكم فاجمعوا رأيكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة (ثم اقضوا اليّ ولا تنظرون ان ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . . . أما بعد فانسبوني وانظروا من انا ثم ارجعوا الى انفسكم وعاتبوها . فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي — ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه واول المؤمنين المصدق لرسول الله صلى الله عليه وآله بما جاء من عند ربه . او ليس حمزة سيد الشهداء عمي . أو ليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي . أولم يبلغكم ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولاخي هذان سيدا شباب أهل الجنة . فان صدقتموني بما اقول فهو الحق والله ما تعودت كذباً منذ علمت أن الله يمقت عليه اهله . وان كذبتموني فان فيكم من ان سألتموه عن ذلك اخبركم » ثم قال « فان كنتم في شك من هذا فتشكون اني ابن بنت نبيكم — فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم . ويحكم اتطلبونني بقتيل منكم قتله ؟ .. أو مال لكم استهلكته أو بقصاص جراحة ؟ »

فاجابوه « اننا لا نفهم ما تقول » [1] وحملوا وحمل رجاله

فلما علت الضوضاء صحا الطفل من نومه فاسرعت سلمى اليه وقلبها يتقطع حزناً عليه واشتغلت في اسكاته وهو يصيح من العطش كأنه ذعر لاصوات الناس فازداد بكاء وعويلاً وزينب مشتغلة بنفسها لا ندري ماذا

---

(١) كتاب الارشاد

تعمل وقد اشتد المرض بابن اخيها وظهرت فيه اعراض الذرب فشغلها الاعتناء به عن كل شاغل

وهم في ذلك وقد علت الضوضاء رأت سلمى فارساً مقبلاً من معسكر أهل الكوفة يستحث فرسه نحو الحسين . وكان الحسين واقفاً ينتظر ما يبدو وهو لا يصدق انهم يحاربونه فلما رأى الفارس مقبلاً لبث يتوقع وصوله . ولم يكد يقترب حتى عرف انه الحر بن يزيد الذي كان قد لقيهم قبل وصولهم كربلاء ورأته سلمى ايضاً من خلال الخيام فعرفته وتعجبت لقدومه فلما وصل الى الحسين رمى قوسه بين يديه وهو يقول « جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق جعجعت بك في هذا المكان . وما ظننت ان القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ولا يبلغون منك هذه المنزلة . والله لو علمت انهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت . فاني تائب الى الله مما صنعت فهل لي من ذلك توبة » [1]

فقال له الحسين « نعم يتوب الله عليك فانزل »

قال فانا لك فارساً خير مني راجلاً — اقاتلهم على فرسي ساعة « والى النزول آخر ما يصير امري »

فقال له الحسين « فاصنع ما بدا لك »

فلما سمعت سلمى كلام الحر دمعت عيناها وقالت في نفسها « هل يشعر مثل هذا الشعور ابن زياد أو يزيد ؟ » ثم رأت الحر يسوق فرسه امام الحسين نحو الكوفة فتبعته ببصرها واذنيها لترى ما يكون منه فاذا هو ينادي أهل الكوفة قائلاً « يا أهل الكوفة لامكم الهبل والعبر دعوتم هذا العبد الصالح حتى اذا جاءكم اسلمتموه وزعمتم انكم قاتلو أنفسكم دونه ؟ ثم عدوتم عليه لتقتلوه وامسكتم بنفسه واخذتم بكظمه واحطتم به من كل جانب لتمنعوه التوجه في

---

(١) حكاية عاشوراء

بلاد الله العريضة فصار كالاسير في أيديكم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ومنعتموه ونساؤه وصبيته وأهله من ماء الفرات الجاري يشرب به اليهود والنصارى والمجوس وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ؟ فها هم قد صرعهم العطش — بئس ما خلفتم محمداً في ذريته لا سقاكم الله يوم الظمأ »[1]

الفصل التاسع والتسعون

صلاة الخوف

ولم يتم كلامه حتى حمل أهل الكوفة وفي مقدمتهم عمر بن سعد وكان عمر هذا أول من رمى سهماً في هذه الواقعة • وتصاول الفريقان وتراموا بالسهام حتى وقع بعضها في الخيام

وكان النهار قد اضحى وسلمى تشاغل الطفل وتسكته وقلبها يميل الى النزال لعلها تلقى أجراً في الدفاع عن الحق . وشاعت عيناها وهي تنظر الى القوم عن بعد لعلها ترى ابن ذي الجوشن فلم تره بين الرجال . فطلعت على مرتفع والطفل بين ذراعيها تقيه بكفيها وزنديها وقلبها يختلج . فارسلت بصرها في ذلك السهل فرأته مملوءاً بالرجالة والفرسان من أهل الكوفة بما يزيد عددهم على أربعة آلاف وليس مع الحسين الا ٣٢ فارساً وبعض الرجالة . ولكنها رأت رجال الحسين لا يحملون على جانب من جوانب العدو الا كشفوه • ثم ما لبثت ان رأت الحر بن يزيد وقع قتيلاً ووقع غيره • فحولت بصرها الى الحسين فرأته لم يحمل بعد فما زالت ترجو ان يستبقوه اذ ضعف امره او قتل رجاله

ولم تستطع سلمى البقاء هناك خوفاً على الطفل من نبل يصيبه فعادت الى الفسطاط فرأت زينب وسكينة وفاطمة بنتي الحسين يبكين ويلطمن بجانب فراش علي المريض وهو يخفف عنهما ويهون عليهما كأنه شبح محنك وما به

(١) كتاب الارشاد

مرض . فلما رأى سلمى مقبلة واخوه بين ذراعيها يبكي قال لعمته واخته « قمن فاستسقين له واتركينني فلا بأس عليّ » فصاحت زينب « ومن اين نستسقي له ومن يسقينا ياليته يشرب الدمع فنرويه من آماقنا » قالت ذلك ونهضت الى الطفل فتناولته وجعلت تقبله وهي تبكي وتضمه الى صدرها فبكت سلمى مثل بكائها . ولكنها رأت من الحكمة ان تتجلد وتصبرها فاسترجعت الطفل الى حجرها وقالت « تصبري يا سيدتي وسكني روعك لعل الله يأتينا بفرج من عنده »

وكانت الشمس قد مالت عن خط الهاجرة فسمعت سلمى في المعسكر أصواتاً متداخلة فهرعت للحال وخرجت من الفسطاط وخرجت زينب في أثرها . فرأتا الحسين يصيح في رجاله يدعوهم الى صلاة الخوف . فتجمع الرجال ووقفوا والنبال تتساقط عليهم وصلى فيهم الحسين صلاة حارة يخشع لها قلب الجماد . فلما فرغوا من الصلاة تجددت آمالهم واطمأنت قلوبهم — والصلاة أحسن معز للانسان في ضيقه . فتقدم أحد رجال الحسين حتى أقبل على أهل الكوفة وفيهم حملة النبال وحملة السيوف بين فارس وراجل وقال لهم « يا قوم اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب . يا قوم اني أخاف عليكم يوم التناد . يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحقكم الله بعذاب وقد خاب من افترى » قال ذلك وهجم وهو يقاتل حتى قتل . وهجم غيره في أثره وما زال رجال الحسين يقتلون حتى لم يبق منهم الا أهل بيته خاصة (١)

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل المائة

الاستسقاء للطفل

كل ذلك وسلمى لا تدري ماذا تعمل والطفل بين يديها وقد شغل خاطرها بالغلام المريض فلما رأت رجال الحسين يقتلون طار خوفها ونسيت مصيبتها وغلب عليها اليأس وأحبت أن تخالف الحسين وتقاتل معه . ولكنها لم تجد سبيلاً الى ذلك والطفل يتوجع وقد تقطع قلبها لبكائه . وهي في تلك الحيرة بباب الخباء رأت علياً الا كبر ابن الحسين وهو شاب أصبح الوجه جميل الصورة في التاسعة عشرة من عمره تنبعث الهيبة من عينيه — رأته هاجماً وسيفه مشرعاً بيده وهو ينشد قولاً حماسياً . فخيل لها انه فرج مرسل من السماء . ولكنها ما لبثت أن رأته اصيب بطعنة في صدره فخر صريعاً يختبط بدمه . وكان ابوه الحسين بالقرب منه فصاح « قتل الله قوماً قتلوك يا بني ما اجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول » قال ذلك وانهملت الدموع من عينيه . فلم تمالك سلمى أن صاحت « قتلوه قتلهم الله »

وما اتمت كلامها حتى رأت زينب تسرع وهي تنادي « يا اخياه وابن اخياه » وجاءت حتى أكبت عليه . فأخذ الحسين برأسها فردها الى الفسطاط ونادى فتيانه فقال « احملوا أخاكم » فحملوه حتى وضعوه في الفسطاط . فتكاثرت النبال المتساقطه هناك فاصيب غيره وكلما اصيب واحد حملوه الى ذلك المكان

وخافت سلمى على الطفل فارادت أن تلجأ به الى الخباء فرآها الحسين والطفل بين يديها فاشار اليها أن تأتي. فاتت اليه والطفل يبكي من العطش وقد بح صوته وتعب صدره وهي تحنو عليه لتقيه من النبال. فتناوله الحسين من ذراعه

واسرع نحو المعركة فاسرعت معه وشخصت ببصرها اليه وقلبها يختلج خوفاً عليه ولم تفهم معنى ذلك ولا تعي ما تعمل . فاذا هي بالحسين يخاطب أهل الكوفة والطفل مرفوعاً بين يديه كانه يشير اليهم و يقول « يا أهل الكوفة خافوا من الله واسقوا هذا الطفل . اذا كنت أنا في اعتباركم كافراً استوجب الموت فما ذنب هذا الطفل الصغير ؟ . . يا قوم خافوا من الله واذكروا عذاب يوم أليم »(١)

فتأثرت سلمى من ذلك الكلام وظنته يثمر فيحن أولئك القوم على الطفل فيسقوه لكنها لم تكد تفكر في ذلك حتى رأت رجلاً من نبالة الكوفة أوتر قوسه ورمى الطفل وهو يقول « خذ اسقه » فاصاب السهم احشاءه فصاح الطفل صيحة الالم ثم تحول صياحه الى انين فاحست سلمى كان السهم أصاب قلبها وركضت الى الحسين والطفل يختلج بين يديه وقد تدلى رأسه على صدره والدم يقطر من جنبه . فصاحت « ويلاه ماأظلمهم . ويلاه ماأقسى قلوبهم . . قتلوا الطفل . . » قالت ذلك وهمت بتناوله فمنعها الحسين من ذلك وقال لها « لا تبكي يا بنية ان له اسوة بجده وعمه وسائر اهله الصالحين ثم رفع يديه والغلام بينهما وشخص ببصره الى السماء وقال « ان يكن حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير منه وانتقم لنا من القوم الظالمين» ثم حمله حتى وضعه مع قتلى أهل بيته وفيهم اخوة الحسين وأولاده وأبناء عمه وأبناء اخيه . ثم التفت الى سلمى وقال لها « ارجعي يا فتاة الى الخباء » فتراجعت وقلبها يقطر دماً وعيناها تسكبان الدمع ولم تجد سبيلا الى مخالفة الحسين

---

(١) حكاية عاشوراء

الفصل الحادي والمائة

خاطف

وبينما هي راجعة وكفاها على عينيها تستلقي الدمع وتندب القتلى أحست يد قبضت على يدها وجرتها بعنف شديد. فارادت أن تجذب يدها ونظرت فاذا بالشيخ الناسك وهو كالاسد الكاسر قد اعتنقها من خصرها وحملها بين ذراعيه كأنه من مردة الجان وخرج بها من بين الخيام حتى أتى مضيقاً فوق الخندق مرفوقه وهي تظن نفسها في حلم. حتى اذا وصل بها الى كهف وراء الخيام القاها الى الارض وهو يلهث من شدة التعب فصاحت فيه « الى أين تذهب بي يا عماه؟ دعني أموت مع الحسين فانها أحسن موتة يرجوها المؤمن في دنياه »

فلم يستطع الشيخ أن يجيبها لتسارع تنفسه من التعب. ولكنه أشار اليها أن تصبر فحاولت الافلات منه والرجوع الى المعركة فامسكها وأقعدها وهو يقول بصوت متقطع « وما الموت ... مما يسرع ... اليه ... كيف تموتين ... وتتركين ... عبد الرحمن ... »

فلما سمعت اسم عبد لرحمن تجددت احزانها وزادت شجونها فبكت بصوت عال وقالت « أين هو عبد الرحمن ألم يسبقني الى العالم الآخر ... ؟ دعني أموت وألحق به »

قال « ومن أنبأك بموته ؟ .. »

قالت « نعم انه مات وسبقني .. دعني ألحق به ... دعني أموت مع الحسين وأهل بيته .. »

قال « ان عبد الرحمن لم يمت يا بنية .. هدئي روعك واعلمي ان الحسين مائت ولا فائدة من الدفاع عنه »

قالت « أتعلم انه مائت وتطلب بقائي . . ؟ وما الفائدة من بقائي و بقاء عبد الرحمن اذا مات سيد شباب المسلمين ؟ . . دعني اموت معه . . »

قالت ذلك ونهضت وهي تقول « لا لا . . لا يموت . . من يجسر على قتله ومن يمد يده اليه ولا تيبس ؟ . . وأي أرض تتلقى دمه ولا تجف . . لا . . لا يجرأون على قتله وهو ابن بنت الرسول وسيد شباب المسلمين . . »

فامسكها الشيخ بيدها وقال « ألا تصدقين انه مائت . . ؟ »

قالت « لا »

قال « قومي وانظري موته »

فقامت وهي تهرول في مشيتها حتى وقفت على اكمة تشرف على الواقعة فرأت الحسين يمشي نحو فسطاطه والدم يقطر من حنكه لسهم كان قد أصابه هناك ولم يقتله ولم يصل الى الفسطاط حتى أحاط به جماعة من رجال الكوفة فيهم رجل ابرص حالما رأته سلمى اقشعر بدنها وارتعدت فرائصها لانه شمر بن ذي الجوشن فارادت أن تصيح فامسكها الشيخ وقال لها « اسكتي واذكري اني الشيخ الناسك . . . »

فوقفت كانها على الجمر وعيناها على الموقعة فرأت رجلاً ضرب الحسين على رأسه بالسيف فقطع السيف القلنسوة وأصاب رأسه وامتلأت القلنسوة دماً . فرفع الحسين القلنسوة ودعا بخرقة شد بها رأسه واستدعى قلنسوة أخرى فلبسها واعتم فرجع عنه شمر ومن كان معه

الفصل الثاني والمائة

هجوم اليأس

فلما رأتهم سلمى يتراجعون ظنتهم عدلوا عن قتله ثم رأت الحسين عائداً اليهم ومعه ابن أخيه عبد الله وهو غلام لم يراهق . وكان عند النساء فلما رأى عمه في ذلك الضيق لم يتمالك عن ان تبعه وزينب تسير في أثره . فسمعته يقول لها « احبسيه يا أختي » فارادت أن ترجعه فابى وامتنع عليها امتناعاً شديداً وقال « والله لا افارق عمي » ولم يتم كلامه حتى رأى رجلاً يهوي بالسيف على الحسين . فصاح الغلام فيه « ويلك يا ابن الخبيثة أتقتل عمي »

فضربه الرجل بالسيف فاتقاها الغلام بيده فانقطعت يده الى الجلد حتى تدلت وهي معلقة بقطعة من جلد وأصيب رأسه . فنادى الغلام « يا أماه » فهم به الحسين وضمه اليه وهو يقول « اصبر يا ابن أخي على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير فان الله يلحقك بآبائك الصالحين » (١)

ومات الغلام لساعته وألحقت جثته بجثث أهله وسلمى تنظر . فطار صوابها ولم تعد تستطيع صبراً فاذا بالحسين قد دعا بسراويل يمانية يلمع فيها البصر قطعها ولبسها فلما رأته يقطعها استغربت ذلك منه فقال لها الشيخ « أتعلمين لماذا فعل ذلك »

قالت « ولماذا »

قال « قطع السراويل لكيلا يسلبوها بعد موته »

قالت « أهو مائت كما تقول ؟ . . لا أظنهم يقتلونه »

ولم تتم كلامها حتى رأت شمر بن ذي الجوشن هاجماً عليه وليس مع

---

(١) كتاب الارشاد

الحسين الا ثلاثة رجال قتلوا بين يديه ولم يبق سواه . فهجم الحسين عليهم وعليه القلنسوة والجبة وتلك السراويل المقطعة وهي هجمة اليأس . وكلهم ذعروا لهجومه ففروا من بين يديه فرار المعزى من الذئب . فاستبشرت سلمى بذلك وقالت للشيخ « ألم اقل لك انهم لن يقتلوه ؟ . . . ألا تراهم كيف يفرون من أمامه ؟ »

ولم تقل ذلك حتى رأت السهام تتساقط عليه كالمطر وقد صار كالقنفذ . فاحجم الحسين والرجال واقفون بازائه لم يجرأ أحدهم أن يبدأ بقتله . وعند ذلك خرجت اخته زينب الى باب الفسطاط وصاحت وجند الكوفة يسمعها « يا عمر بن سعد ايقتل ابو عبد الله وانت تنظر اليه » فلم يجبها احد فنادت « ويحكم اما فيكم مسلم » فلم يجبها

الفصل الثالث والمائة

مقتل الحسين

فثارت الحمية في رأس سلمى وافلتت من يد الناسك وهجمت نحو الخيام . فاعترضها الخندق والنار لا تزال تتقد فيه ولم تجد المضيق الذي حملها الناسك عليه فوقفت وهي تتلفت لعلها تجد لها مسلكا تمر عليه الى المعركة فسمعت ابن ذي الجوشن يقول لرجاله « ويحكم ما تنظرون بالرجل تكلتكم امهاتكم » فالتفتت سلمى فرأت الرجالة حملوا عليه فضربه أحدهم على كتفه اليسرى فقطعها وضربه آخر على عاتقه فكبا الحسين على وجهه الى الارض . فصاحت سلمى وهي لا تدري ما تقول « ويلكم قتلتم الحسين .. شلت ايمانكم » وهرولت ونفسها تحدثها ان تثب من فوق الخندق ولو وقعت في النار . وكان الشيخ قد أدركها وأمسك بذيل ثوبها وهي لا تبالي

به وعيناها شائعتان الى الحسين وهو طريح بجانب جثة اولاده واخوته وقد اختلطت دماؤه بدمائهم ولكنه لم يمت . فرأت شمر وثب عليه وسيفه بيده فوضع السيف في عنق الحسين وحزه حتي انفصل .فسمعت سلمى بعد الحز شخيراً . ثم رأت شمر رفع الرأس بيده وقد سقطت القلنسوة عنه وبان شعره وقد تخضب بالدماء وأغمضت العينان وناوله الى رجل بازائه وقال له « احمله الى الامير عمر بن سعد »

فجنت سلمى وغاب رشدها ولم تعد تعرف ماذا تعمل . وكانت قد انتقلت من موقفها بغير أن تنتبه فرأت على عرض الخندق خشبة فافلتت من الشيخ بالرغم عنه ووثبت عليها وأسرعت نحو المعركة وهي تصيح « ويلك يا شمر يا ظالم يا لعين ... كيف تلقى وجه ربك يوم الدين »

وما وصلت الى فسطاط زينب حتى رأتها راجعة من المعركة ومعها نساء أخريات يعدون وفي اثرهن بعض الرجال يقبض الواحد منهم على ثوب المرأة فتنازعه وهي تفر من امامه حتى ينزع ثوبها عنها فارادت سلمى ان تدافع فامسكتها زينب بيدها وادخلتها معها الفسطاط حيث الغلام المريض

فدخلن الخباء ودخل في اثرهن رجال والسيوف مشرعة في ايديهم وهموا بفراش الغلام يريدون قتله . فصاحت سلمى فيهم « ويلكم أتقتلون الصبيان » وخنقتها العبرات وصاحت النساء مثل صيحتها

وفي تلك اللحظة وصل عمر بن سعد فقال لاصحابه « لا تقتلوا أحداً من النساء ولا تأخذوا عنهن شيئاً وكفوا عن هذا المريض » وأمرهم ان يحيطوا بالفسطاط لئلا يدخله أحد وأوصاهم أن يخفروا الاخبية لئلا يخرج منها أحد

اما سلمى فانقطعت للبكاء هي وزينب وسائر النساء حتى علت الصوضاء وارتفعت اصوات العويل مما يتفتت له الصخر

ثم سمعت سلمى وقع حوافر وضجة فاطلت من خلال الخباء فرأت عشرة فرسان جاؤا بخيولهم الى حيث جثة الحسين ومعهم اميرهم عمر بن سعد وقد امرهم ان يطئوا ظهر الحسين بخيولهم

فرأتهم يطئون جثته بحوافر الخيل حتى رضوه وهي تتألم لذلك كأنهم يطأون على حدقة عينها فقالت في نفسها « ما هي عاقبة ذلك يا رباه » ولكنها لم تخبر زينب خوفاً عليها

ثم رأتهم يقطعون رؤوس القتلى فبلغ عدد الرؤوس المقطوعة اثنين وسبعين رأساً وحملوها الى ابن زياد في الكوفة مع رأس الحسين

الفصل الرابع والمائة

الندب والرثاء

أرسل الكوفيون رؤوس القتلى الى ابن زياد وباتوا تلك الليلة في معسكرهم بقرب كربلاء وقد اقاموا خفراً يحرس خيام الحسين وفيها نساؤه وجواريه وليس فيهن من الذكور الا ابنه علي الاوسط الملقب بزين العابدين وهو مريض

وسدل الليل نقابه وانقضت الموقعة وقد قتل الحسين وأهله وأصبحوا جثثاً هامدة لا حراك بها واستكنت عناصر الطبيعة واشرق القمر وهو في ليلته الحادية عشر فتكبد السماء قبيل العشاء . وأرسل أشعته على كربلاء وقد كانت في صباح الامس قاحلة ظامئة فامست وقد ارتوت من دماء الابرياء . ولو أدرك ذلك التراب فظاعة ما جرى فيه في ذلك السبت المهول لفضل الظماء على الارتواء . أو لو علم القمر بوقع اشعته تلك الليلة لحبسها ليستر ذلك الجرم الذي لم يتفق مثله في تاريخ العمران

اما سلمى فلما اقبــل الليل وهدأت الطبيعة استولى عليها الجمود و لبثت صامتة وطنين السهام لا يزال في اذنيها بما يتخلله من أصوات الناس وخصوصاً صوت الحسين وهو يزجر الناس و يعظهم و يستعين الله . فتسلط الخيال على سلمى فتمثل لها ما رأته في آخر الواقعة من مقتل الحسين وحز رأسه ووطء الخيل على ظهره . فلما تذكرت ذلك اقشعر بدنها وشعرت بانقباض شديد وضاق صدرها وتاقت نفسها للبكاء ولا يحلو البكاء الا بجانب الميت . فاحبت الخروج الى مكان الواقعة لتشاهد تلك الجثة الساكنة وتبكيها لتفرج كربتها فنهضت وهي تتظاهر بحاجة نفسها حتى خرجت من الخباء والخفراء لم يمنعوها لاشتغالهم بحديث اليوم وما كان من نصرهم

فانسلت بين الخيام حتى تجاوزت المعسكر واشرفت على الموقعة وقد عرفت المكان بما ينعكس عن مستنقعات الدماء في خلال الجثث من الاشعة الحمراء . فلما رأت ذلك اختلج قلبها في صدرها لما تتوقع أن تراه هناك من الاجساد المضرجة بالدماء ولا رؤوس لها . فمشت الهوينا وركبتاها ترتعشان وتذكرت ما كان من الضوضاء في ذلك الفضاء وما آل اليه من السكون المرعب . فازدادت رهبة حتى حدثتها نفسها بالرجوع ولكنها تجلدت وظلت في سبيلها وهي تلمس الطريق وعيناها شاخصتان في الجثث فارتعدت فرائصها لما عاينته من الامر الفظيع — رأت جثثاً مطروحة لا حراك بها ولا رؤوس لها واكثرها عار من الثياب لان القاتلين سلبوها الاثواب الاما يستر العورات . وبينما هي تخطو خطوة الخائف الهائب سمعت صوتاً خارجاً من بين القتلى فاقشعر جسمها وقفّ شعرها وجمد الدم في عروقها . فوقفت واصاخت بسمعها وقد غصت بريقها وامسكت نفسها وتفرست في مكان الصوت وهو على بضعة عشر ذراعاً منها فرأت شبحاً يتحرك . فجثت في منخفض يكاد يواريها وقد ودت انها لم تتجشم القدوم الى ذلك المكان .

على انهـا ما لبثت ان رأت ذلك الشيخ يقول « رحمك الله يا ابن بنت ١ الرسول . . رحم الله بدناً حمله رسول الله على ذراعيه وقبله بشفتيه . . . لعن الله القوم الظالمين . . . كيف تجرأوا على هذه الفعلة الشنعاء . . . كيف مدوا أيديهم الى هذا الجسم الطاهر وفيه رائحة سيد المرسلين ؟ . . . »

فلما سمعت سلمى الصوت عرفت انه صوت الشيخ الناسك فاطمأن بالها وسكن روعها . ولـكنها احبت البقاء في مكانها لتسمع ما يقوله حتى اذا ابكاها قوله بكت وفرجت كربتها . فسمعته يبكي و يشهق و يقول « قبحهم الله ما اقسى قلوبهم . . . ألم يخافوا من موقف اليوم الرهيب ؟ . . . تجرأوا على قتلك وفيك بقية من دم الرسول وأنت ابن بنته . وقد قال فيك (أنا من حسين وحسين مني أحبّ الى الله من أحب حسيناً سبط من الاسباط) كيف يلقون وجـه ربهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً .. ويل لهم قتلوا سيد شباب المسلمين قتلة لم يقتلها كافر ولا منافق . . . ولم يكتفوا بقتلك وا اسفاه عليك بل قد قطعوا رأسك ووطئوا ظهرك بالخيل . . بل و لـكنني اراك مستقبلاً السماء وقـد بسطت ذراعيك كانك تشكو امرك الى ربك وتدعوه للانتقام منهم — وما ربك بغافل عما يعملون ... الويل لي انا الشيخ النعس ويل لشيخوختي . . كتب عليّ أن أرى خيرة المسلمين يقتلون وقد كنت أتوقع اذا حييت أن اراك يا حسين مالـكا رقاب المسلمين فتنتقم لي من ذلك الظالم الغادر قاتل الابرياء . . فآخذ بثأر فلذة الـكبد وحشاشـة القلب المقتول في سبيل الحق . حتى اذا لقيت اجلي فارقت هذه الحياة مجبور القلب وقد عاينت الحق سائداً والباطل مذعوراً . . فقضيت شيخوختي ناسكا هائماً تائهاً لا آوي المنازل ولا ابيت الا في الخلاء . . ولـكن ابى الله الا أن ارى الحسين واولاده وابناء اخيه وابناء عمه جثثاً لا حراك بها . . ارى الدم يجري من رقابها وجوانبها وارى ابدانها مكشوفة وقد تلطخت بالدماء المجبولة

بالتراب ... ابداناً بلا رؤوس .. فيا لله ما هـذه البلية .. » فلما بلغ الشيخ الى هذا الحد خنقته العبرات فسكت وأوغل في البكاء

الفصل الخامس والمائة

الفرار

اما سلمى فلم تمالك عن البكاء وهي تسمع نواح الشيخ . ولكنها استغربت ما جاء فيه من التعريض والتلميح ولم تفقه ما وراءه . ولو علم الشيخ أنها تسمعه ما صرح بما يكنه ضميره وقد صبر على كتمانه بضع عشرة سنة

ولبث الشيخ صامتاً برهة وسلمى تتوقع أن تسمع منه شيئاً جديداً لعلها تستطلع حقيقة حاله . فاذا هو قد نهض ثم القى نفسه على جثة الحسين وجعل يقبلها ويتمرغ بدمائها ويقول « ما اطيب ريحك يا حسين وما ازكى ترابك ... تباً لهم كيف يقتلونك وأنت بقية خاتم النبيين . . . استحلفك بالله اذا لقيت حجراً أن تقريه السلام . وتخبره اني صبرت على قتله صبر الرجال . وسأصبر حتى ألحق به ... واراه وقد أخذت بثأره ... وارجو أن لا أموت قبل أن انال هذه النعمة .. واذا لقيت جدك رسول الله اخبره بما فعل المسلمون بعده . أخبره كيف فعل الطغام بالصالحين .. قل له انهم انقسموا على الخلافة وباعوا الحق بالباطل .. ولا غرو فقد علم (صلعم) بذلك وتنبأ به قبل وقوعه .. وقد نزل القضاء .. »

ثم نهض الشيخ عن الجثة وقد تلطخ وجهه بالدم وازدادت لحيته تجعداً واختلاطا . فرفع بصره الى السماء وبسط يديه وهو يقول « اللهم انت اعلم بما فعل اولئك الادعياء بابن بنت نبيك وأهله .. اللهم أنت اعلم بما يقاسيه

انصار الحق من الجور العظيم ... اللهم أقول كما قال الحسين ان متعتهم الى حين ففرقهم فرقاً واجعلهم طرائق قدداً ولا ترض الولاة منهم ابداً . فانهم دعوا الحسين لينصروه ثم عدوا عليه فقتلوه .. »

ولم تعد سلمى تصبر عن اظهار نفسها فتحفزت للوقوف ولم تكد تقف حتى رأت الشيخ ينظر اليها ويتطاول بعنقه ليتفرس فيها . فلما عرفها ذعر ذعراً شديداً كأنه رأى مارداً من مردة الجان وصاح قائلا « أنت هنا يا سلمى ؟ .. » وتحول مثل لمح البصر وعدا عدو الظبي النافر يلتمس الفضاء فنادته واستوقفته وهو لا يسمع ولا يصغى . فظلت واقفة حتى توارى عن بصرها . فاستجمعت رشدها ولم تستغرب ذلك النفور من الشيخ لعلمها باطواره من ذي قبل ثم مشت نحو الجثث وهي تتفرس بما بين يديها من أيد مبتورة قد عفرها التراب وسهام منثورة اغفلها الرماة واشتمت رائحة الدماء وقد انتن بعضها وتصاعدت ريحه حتى أقبلت على الجثث وكلها بلا رؤوس — والجثث برؤوسها ترعب قلب الشجاع فكيف وهي على تلك الحال بين يدي فتاة لم تتعود القتال . ولكن سلمى انما أقدمت على ذلك وقد غلب عليها اليأس فتفرست في تلك الجثث فلم تستطع التمييز بينها لانها انما تتميز برؤوسها وثيابها وهي عارية بلا رؤوس ولكنها عرفت جثة الطفل المقتول لانها أصغرها جميعاً فهمت به وقبلته وأطلقت لنفسها عنان البكاء وتذكرت مصائبها وما يشغلها من امر عبد الرحمن وهي لا تعلم مصيره ولا اين هو . على أنها تذكرت قول الناسك ببقائه حياً ولكنها حملت ذلك منه على رغبته في اطمئنانها لكي تبقى معه . فجعلت تندب حالها وما قاسته من العناء والبلاء حتى استنزفت الدمع

الفصل السادس والمائة

رأس الحسين

ثم انتبهت وخافت ان يشعر بها الخفر فطرحت جثة الطفل فوق جثث أهله وقالت « الوداع الوداع أيها الساكنين بلا حراك .. الوداع الى يوم الحشر الرهيب .. وعسى ان ألحق بكم وأنا حاملة خبر الانتقام لكم باذن الله » وهي انما ترجو ذلك بما سمعته ساعتئذ من كلام الشيخ الناسك من هذا القبيل

ثم عادت الى الخيام حتى دخلت الفسطاط فرأت زينب في قلق عليها فاعتذرت باشتغالها بامر نفسها

وفي ضحى اليوم التالي عاد عمر بن سعد بجنده الى الكوفة وساقوا معهم نساء الحسين وجواريه وبنتيه سكينة وفاطمة واخته زينب وابنه علياً المريض. وتنكرت زينب بثياب حقيرة لا يعرفها أحد وسارت سلمى معها متنكرة أيضاً حتى دخلوا الكوفة فرأوا أهلها يطلون من النوافذ والكوى ليشاهدوا بقية بيت الرسول . وسلمى تتفرس في الناس من خلال النقاب لعلها تجد عبد الرحمن أو عامراً بينهم لان قول الناسك ببقاء عبد الرحمن حياً أحيا آمالها — فلم تر احداً . حتى اذا أقبلوا بهم على قصر الامارة مشت زينب وسلمى ومعهما بعض الجواري وجلسن في ناحية من القصر على مقربة من مجلس ابن زياد . وكان ابن زياد جالساً والناس حوله . ورأت سلمى بين يديه رأس الحسين وقد تعفر وتقلصت شفتاه وبانت ثناياه وتلطخ شعر لحيته بالدماء والتراب حتى أصبح الشعر كتلاً متجمدة وابن زياد ينظر الى الرأس ويبتسم وفي يده قضيب يضرب به ثنايا الحسين . ورأت بجانب ابن

زياد شيخاً جليل القدر عرفت بعد ذلك انه زيد ابن ارقم صاحب الرسول . فلما رآه الشيخ يضرب بالقضيب ثنايا الحسين قال له « ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين فوالله الذي لا اله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله (صلعم) عليهما ما لا احصيه » قال الشيخ ذلك وانتحب باكياً

قال له ابن زياد « ابكى الله عينيك ... أتبكي لفتح الله؟ ... ولولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك »

فنهض الشيخ من بين يديه وخرج

ثم انتبه ابن زياد الى النساء الداخلات فالتفت الى زينب وقال « من هذه التي انحازت وجلست ناحية ومعها نساؤها »

فلم تجبه زينب

واعاد ثانية وسأل عنها فقال له بعض امائها « هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله »

فنهض ابن زياد حتى اقبل عليها . فلما رأته سلمى مقبلاً بالغت في التقنع لئلا يعرفها . اما هو فحسبها من جملة جواري زينب أو خدمها فلم يلتفت اليها بل خاطب زينب قائلا « الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم واكذب احدوثتكم »

فقالت زينب « الحمد الذي اكرمنا بنبيه محمد (صلعم) وطهرنا من الرجس تطهيراً . انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا »

فقال ابن زياد « كيف رأيت فعل الله باهل بيتك »

قالت « كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم وليجمع الله بينك وبينهم يوم القيامة فيتحاجون اليه ويختصمون عنده »

فغضب ابن زياد واستشاط . فقال له بعض أهل مجلسه « أيها الامير انها امرأة لا تؤخذ بشيء من منطقها ولا تذم على خطائها

فالتفت ابن زياد اليها وقال « قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة من أهل بيتك »

فلما سمعت زينب ذلك الكلام احست بضعفها ورقت وبكت وقالت له « لعمري لقد قتلت كهلي وابدت أهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي فان يشفك هذا فقد شفيت »

فقال لها على سبيل التهكم « هذه شجاعة ولعمري كان أبوها شجاعاً شاعراً »

فقالت « ما للمرأة والشجاعة ان لي عن الشجاعة لشغلاً ولكن صدري نفث لما قلت »

الفصل السابع والمائة

تتمة الفظاعة

فهز ابن زياد رأسه هزة التهديد وتحول الى مكان رأى فيه علياً ابن الحسين وهو لا يزال مريضاً فقال له « من أنت »

فقال « انا علي بن الحسين »

فالتفت ابن زياد الى من حوله وقال « ألم يقتل الله علي ابن حسين »

فاجابه علي وقال « قد كان لي أخ يسمى علياً قتله الناس »

فقال ابن زياد « بل الله قتله »

فقال علي « الله يتوفى الانفس حين موتها »

فغضب ابن زياد وقال « وبك جرأة لجوابي ? وفيك بقية للرد عليّ ? اذهبوا به فاضربوا عنقه »

فلما سمعت زينب ذلك نهضت نهضة الاسد وتعلقت بالغلام واعتنقته

وقالت « والله لا افارقه فان قتلته فاقتلني معه »

فنظر ابن زياد اليـه واليها ساعة ثم قال « عجباً للرحم ! .. والله اني لاظنها ودت اني قتلتها معه . دعوه فاني أراه لما به » ثم قام من مجلسه حتى خرج من القصر ودخل المسجد فصعد المنبر فقال « الحمـد لله الذي اظهر الحق واهله ونصر امير المؤمنين يزيد وحزبه وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته »

فقام اليه عبـد الله بن عفيف الازدي وكان من شيعة علي فقال له « يا عـدو الله ان الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وابوه . يا ابن مرجانة تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين »

فقال ابن زياد « عليَّ به »

فاخذته الجلاوزة ثم قتلوه . وكان قتله قاضياً على المجاهرة بنصرة اهل البيت

اما سلمى فانها لم تفتر لحظة عن التفرس في وجوه النـاس والتسمع لما يتصل اليهم من احاديثهم لعلها تسمع شيئاً عن عبد الرحمن أو عامر فلم تقف لهما على أثر ولا هي قادرة على الخروج الى المدينة للبحث عنهما لانها معدودة من جملة نساء زينب ولا بد من ارسالها معهن مخفورة الى دمشق . ولم يكن لها أمل في بقاء عبد الرحمن لو لم تسمع الناسك يقول ببقائه . على انها حملت قوله على غرض له فلم تصدقـه — ولكن الانسان مفطور على التعلق بحبال الآمال ولو كانت اوهى من نسيج العنكبوت

اما ابن زياد فامر برأس الحسين فداروا به في سكك الكوفة على رمح ولم يبق أحد الا رآها وفيهم من شمت بموته وهم قليلون ولكن اكثرهم ودوا انهم لم يقتلوه

لا شك ان ابن زياد ارتكب بمقتـل الحسين جريمة كبرى لم تحدث

افظع منها في تاريخ العالم . ولا غرو اذا تظلم الشيعة لقتل الحسين و بكوه في كل عام ومزقوا جيوبهم وقرعوا صدورهم أسفاً عليه لانه قتل مظلوماً . ولكن القاتلين يعتذرون بانهم قطعوا دابر الفتنة بقتله فلو ابقوا عليه ولو في السجن لما امنوا قيام شيعته وعصيانهم . ولو كان وحده المطالب بالخلافة دون يزيد لكانت مذبحة كربلاء قاضية بخلو الجو لبني امية و لكنهم حاربوا حروباً هائلة قبل أن يخلص لهم الملك

الفصل الثامن والمائة

السفر الى دمشق

و بعد ان طافوا بالرأس في اسواق الكوفة امر يزيد جماعة من رجاله أن يحملوا رأس الحسين ورؤوس اصحابه ومن بقي من أهل بيت الحسين الى دمشق ليرى يزيد رأيه فيهم [1] . فحملوا الاحمال وقاموا يطلبون الشام وسلمى في جملة الاسرى لا تفارق زينب وسكينة وفاطمة وكانت تعزية كبرى لهن . ولم يكن عالماً بحالها الا زينب و لكن مصابها شغلها عن الافتكار بامر عبد الرحمن وعامر ولم تتجرأ سلمى على فتح ذلك الحديث

وكان يزيد بن معاوية بعد ان أمر ابن زياد على الكوفة وأوصاه بدفع الحسين لم يهدأ له بال وهو يفكر في حال هذه الشيعة وماذا عسى أن يأول اليه امر الخلافة لعلمه ان قلوب المسلمين مع الحسين . ولكنه كان شديد الثقة بابن زياد لما يعلمه من دهائه وشدته ودهاء ابيه زياد من قبله . وكان يرجو أن يكون الابن له كما كان الاب لابيه . على انه لم يكن يتوقع بلوغ الشدة بابن زياد حتى يفتك بالحسين واولاده واهل بيته الى هذا الحد

---

(١) كتاب الارشاد

وكان لا ينفك عن استطلاع الاحوال ممن يرد عليه من رسل ابن زياد حيناً بعد حين . فعلم بنهوض الحسين من مكة وقدومه الى الكوفة ثم لم يعد يسمع شيئاً . حتى اذا كان في مجلسه ذات يوم وقد جلس الامراء والاعيان بين يديه واذا بغلامه دخل وانبأه ان بالباب رسولا من الكوفة . فخفق قلب يزيد لما يتوقعه من الخبر الجديد فقال « ليدخل »

فدخل رجل عليه امارات السفر وقد تزمل بعباءته واعتم بكوفيته فابتدره يزيد قائلا « من الرجل »

قال « زحر بن قيس رسول عبيد الله بن زياد الى أمير المؤمنين »

قال « وما وراءك »

قال « ابشر يا امير المؤمنين بفتح الله ونصره »

فاستبشر يزيد واشرق وجهه وابتسم وقال « بشرك الله بالخير »

قال « اعلم يا امير المؤمنين ان الحسين بن علي ورد علينا في ثمانية عشر من اهل بيتـه وستين من شيعته فسرنا اليهم فسألناهم أن ينزلوا على حكم الامير عبيد الله بن زياد أو القتال فاختاروا القتال »

فقال « وهل قاتلتموهم »

قال « نعم يا امير المؤمنين اننا عدونا عليهم مع شروق الشمس فاحطنا بهم من كل ناحية حتى اذا اخذت السيوف مآخـذها من هام القوم جعلوا يهربون الى غير وزر ويلوذون بالآكام والحفر كما لاذ الحمائم من صقر »

فصاح يزيد « بورك فيكم وشد ازرنا بكم »

فقال زحر « ثم والله ما كان الا جزر جزور أو نومة نائم حتى أتينا على آخرهم ... »

فابتدره يزيد وقد بغت وقال « وهل قتلتموهم جميعاً »

قال « نعم يا مولاي وهاتيك اجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم

معفرة تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح . زوارهم العقبان والرخم بقاع سبسب »

فصاح يزيد صيحة قوية وقال « والحسين ؟ .. »

قال زحر « والحسين أيضاً »

فدمعت عينا يزيد وأطرق وهو يقول « لعن الله ابن سمية .. قد كنت ارضى من طاعتكم بدون قتل الحسين .. اما والله لو اني صاحبه لعفوت عنه .. فرحم الله الحسين » قال ذلك وانتهر الرسول واخرجه من مجلسه ولم يصله بشيء [1]

الفصل التاسع والمائة

الندم

فخرج الرسول ويزيد لا يزال مطرقاً وقد اقطب حاجبيه وبان الحزن في جبهته . وفيما هو في ذلك سمع رجلاً في صحن الدار يقول « جئنا برأس احمق الناس وألأمهم »

فصاح يزيد « ومن ينادي هذا النداء »

قالوا «هذا محفر بن ثعلبة ومعه جماعة يقولون انهم جاءوا برأس الحسين »

فقال يزيد « خسىء محفر .. والله أن ما ولدت ام محفر ألأم وأحمق منه » ثم قال « اين الرجل ؟ ادخلوا به عليّ »

فادخلوه عليه ورأس الحسين على كفه وقد تصاعدت ريحه . فاقبل الرجل حتى وضع الرأس بين يدي يزيد على البساط ومنظره ينفطر له القلب وقد تكمش جلده وتجمد شعره واختلطت رائحة الطيب بروائح الدم المتعفن

(١) ابن الاثير ج ٤

وتغيرلون الشعر بما خالطه من الدم والتراب . فلما وقع نظر يزيد عليه اقشعر بدنه وتصور هول ذلك العمل الفظيع . وتذكر انه يرى رأس ابن بنت الرسول فتخشع وتهيب

وما كاد ينظر الى الرأس حتى خرجت اليه من وراء الستار امرأة مقنعة هي احدى نسائه واسمها هند بنت عبد الله . فاستغرب القوم خروجها على تلك الحال وهمّ يزيد أن يسألها عن سبب خروجها فصاحت فيه وهي تشير باصبعها الى الرأس قائلة « يا امير المؤمنين أرأس الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ؟ .. »

قال وهو يتلجلج بكلامه « نعم فاعولي عليه وحدّي على ابن بنت الرسول وصريخة قريش ... عجل ابن زياد فقتله .. قتله الله . . »

فاخذت بالعويل والبكاء ثم أدخلوها الى خدرها . واذن يزيد للناس فدخلوا عليه والرأس بين يديه وهو ينظر اليه ومعه قضيب ينكث به ثغره ويقول « ان هذا وايانا كما قال الحصين بن الحمام

ابى قومنا أن ينصفونا فانصفت قواضب في ايماننا تقطر الدما
يفلقن هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وكان في جملة الحضور رجل من اصحاب الرسول اسمه ابو برزة الاسلمي فلما رأى يزيد ينكث ثغر الحسين قال له أتنكث بقضيبك في ثغر الحسين ؟ . اما والله لقد أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً لربما رأيت رسول الله (صلعم) يرشفه . اما انك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ويجيء هذا ومحمد شفيعه » قال ذلك ثم قام وولى [1]

فلما سمع يزيد قول الرجل نظر الى الرأس وعيناه لا تزالان تدمعان وقال « والله يا حسين لو كنت انا صاحبك ما قتلتك » ثم التفت الى الناس

(١) ابن الاثير ج ٤

وقال « اتدرون من اين اتى هذا ولماذا قتل — لانه علم ان الله اكرم يزيد بالخلافة . قال ابي علي خير من أبيه وأمي فاطمه خير من امه وجدي رسول الله خير من جده وانا خير منه واحق بهذا الامر (الخلافة) منه . فاما قوله ابوه خير من ابي فقد تحاجّ ابي وابوه الى الله وعلم الناس ايهما حكم الله له . واما قوله امه خير من امي فلعمري فاطمة بنت الرسول خير من امي واما قوله جده رسول الله خير من جدي فلعمري ما أحد يؤمن بالله وباليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً . ولكنه انما اتى من قبل فقهه ولم يقرأ قبل اللهم مالك الملك »

الفصل العاشر والمائة

فاطمة بنت الحسين

فلما فرغ يزيد من كلامه علم الناس انه انما قال ما قاله تخفيفاً لهول فعلته. ولكنهم لم يجسر أحد منهم على قول فسكتوا . ثم سمع يزيد جلبة في الدار فقال « ما هذه الجلبة »

فقال غلامه « هؤلاء نساء الحسين في صحن الدار »

قال « ادخلوهن »

فادخلوهن وفيهن زينب أخت الحسين ومعها فاطمة وسكينة بنتا الحسين وبقية النساء وفي جملتهن سلمى . وكانت سلمى مقنعة كسائر النساء فلم تكن تخاف ان يعرفها يزيد وبالغت في التقنع لاخفاء أمرها . ولكنها ما لبثت ان رأت تلك القاعة حتى تذكرت يومها في دار يزيد وموقف عبد الرحمن هنالك فتجددت أحزانها على انها صبرت نفسها لترى ما يكون

أما سكينة وفاطمة فتطاولتا من وراء الناس الى رأس ابيهما ويزيد يستره

عنها فلما رأتا الرأس صاحتا وصاح سائر النساء وولوت بنات معاوية . وقالت سكينة وكانت أكبر من فاطمه « أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ »

فاثر قولها فيه فقال « يا ابنة أخي اني لهذا كنت اكره »

فقالت « والله ما تركوا لنا خرصاً »

فقال « ما اتى اليكن أعظم مما أخذ منكن »

فقام رجل من الحضور وهو من أهل الشام وقال ليزيد « هب لي هذه » يعني فاطمة

فلما سمعت فاطمة قوله ارتعدت فرائصها وعلمت انه يريد أن يأخذها سبية فخافت وأمسكت بثوب زينب . فالتفتت زينب الى الرجل وقالت « كذبت ولؤمت ما ذلك لك ولا له »

فغضب يزيد وقال لها « كذبتِ والله ان ذلك لي ولو شئت ان افعله لفعلته »

قالت « كلا والله ما جعل الله لك ذلك الا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا »

فعصب يزيد واستطار ثم قال « اياي تستقبلين بهذا ؟ . . . انما خرج من الدين ابوك واخوك »

قالت زينب « بدين الله ودين ابي وأخي وجدي اهتديت انت وابوك وجدك »

قال « كذبت يا عدوة الله »

فقالت « أنت أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك [١] ... »

فاستحيي وسكت

ثم أمر بعلي بن الحسين فادخلوه عليه والغل في يديه ورقبته وهو غلام

---

(١) ابن الاثير ج ٤

صغير وقد تعب من حمله على الاقتاب في أثناء الطريق وكان المرض قد فارقه ولكنه ما زال ضعيفاً مهزولاً . فوقف الغلام بين يديه وقال « لو رآنا رسول الله (صلعم) مغلولين لفك عنا »

فخجل يزيد وقال « صدقت » وأمر بفك غله عنه

فقال علي « لو رآنا رسول الله (صلعم) بعداء لأحب أن يقربنا »

فامر به فقرب منه وقال له يزيد « ابه يا علي بن الحسين . ابوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيت »

فقال علي « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور »

فقال يزيد « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم » ثم سكت عنه

الفصل الحادي عشر والمائة

خروج سلمى

وكانت سلمى في أثناء ذلك تنتفض من شدة الغضب وتوقعت أن يأول الامر الى الفضيحة وتهيأت للدفاع باي وسيلة كانت . فلما رأت يزيداً سكت هدأ روعها ثم رأته يشير بيده ان يخرجوهن فخرجوا بهن الى دار النساء فخافت أن ينفضح أمرها هناك اذ لا تستطيع البقاء مقنعة بين النساء فاحتارت في أمرها ولم ترَ خيراً من أن تشكو حالها الى زينب وتستشيرها لانها كانت عالمة بحكايتها مع يزيد

فلما خرجوا بهن من مجلس يزيد وأدخلوهن دار النساء أقبل عليهن نساء معاوية وسائر أهل بيته وبكين معهن وأقمن المأتم وسلمى تتغافل بالاشتغال

وهي ترى نساء معاوية و يزيد تلك العجوز وتستتر منها وتنتظر فرصة لتخاطب زينب بالامر

وفي ذلك المساء جاءتها على انفراد واستشارتها في أمرها

فقالت زينب « لا تظني أني نسيت حالك وقد كنت وانا في بكائي ونحيبي افكر في أمرك . فاعلمي يا بنية أن يزيد خيرنا في الاقامة حيث نشاء وسنختار الاقامة في المدينة فاذا شئت المضي معنا فاهلا بك ومرحباً »

قالت سلمى « اني على ما تشائين يا مولاتي ولكنني ما زلت آملة . . و . . » وبكت

فادركت زينب انها تريد أملها بعبد الرحمن فقالت «لا قطع الله لك أملاً » وسكتت لانها لا تدري ما آل اليه أمر حال عبد الرحمن وعامر بعد مسيرهما الى الكوفة وان كانت ترجح موتهما . و بعد السكوت برهة قالت زينب « ذلك أمر سننظر فيه بعد خروجنا ولكنني لا أرى بقائك هنا الا خطراً »

قالت « وانا أراه كذلك فهل تأذنين لي بالخروج الى الغوطة فاقيم في دير خالد ريثما تخرجون فاكون معكم ان شاء الله » وهي انما اختارت الدير لكي تزور قبر والدها وتبكيه مرة أخرى

فقالت زينب « لقد رأيت رأياً حسناً . . امكثي هناك حتى نخرج »

ثم تظاهرت زينب بامر تريد انفاذ سلمى به الى خارج القصر واخرجتها منه فخرجت وهي كالضائعة الفاقدة الرشد افرط ما هاج من اشجانها هناك اذ تذكرت كل ما قاسته من الاهوال في ذلك المكان. فلما أصبحت خارج القصر سارت في أسواق المدينة تطلب الغوطة حتى اذا اشتمت رائحة البساتين و وقع بصرها على تلك الغياض تذكرت حالها مع عبد الرحمن وثارت احزانها فسارت تواً تلتمس قبر والدها وقد اشتد بها اليأس ولم تعد ترى في الحياة لذة

الفصل الثاني عشر والمائة

الندب

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فترددت سلمى بين ان تتحول الى الدير أو تسير الى قبر والدها والليل قريب . فاشتد بها الشجن وساقتها خطواتها الى تلك الجميزة وهي لا تعلم حتى اطلت على المكان وقد غابت الشمس فاسرعت الى القبر والقت نفسها على التراب وأخذت في البكاء والنحيب وهي لا تبالي بما يتهددها من الظلام المقبل . وما زالت تبكي حتى بللت ذلك التراب وجعلت تندب والدها بصوت رخيم قد اضعفه التعب وتقول « ويلاه يا ابتاه قم وانظر الى فتاة خلفتها وخلفت لها الشقاء وحملتها فوق ما تحتمله النساء .. شبيت وشب معي حب الانتقام .. ولكن وا أسفاه لم أجد الى الانتقام سبيلاً .. قم وانظر ما جرى .. انظر الى فتاة عاشت يتيمة حزينة لم يكن لها من معدات الحياة الا حبيب يحبك وقد بذل نفسه من أجل الانتقام لك . ولكنه وا لهفي عليه لا أدري ما آل أمره اليه .. أه من ينبئني ببقائه حياً فاسعى اليه .. ولكن انى له الحياة وقد كتب القتل على الصالحين والابرياء ... هل خطر لك يا أبتاه وأنت في قيد الحياة ان الناس سينقمون على الحسين ابن بنت الرسول ويقتلونه ويحملون رأسه من الكوفة الى الشام وقد تعفر وتصاعدت ريحه ويتركون جثته طعاما لغربان كربلاء ؟ هل خطر لك ان الشفتين اللتين قبلهما الرسول تصبحان العوبة بين يدي يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد ... آه وا أسفي على أهل ذلك البيت كيف سفكت دماؤهم وقطعت رؤوسهم وتبددت أبدانهم .. وا حرقة قلباه على الحق كيف داسه الظالمون باقدامهم .. لا أظنني اذا استشرتك في البقاء

على هذه الحال الا ناصحاً لي ان أموت وألحق بك ... وهل لي غير اللحاق بك سبيلا الى الراحـة ؟ .. قضي الامر ومات الحسين ومات ابناؤه وأبناء أخيـه وسائر أهله معه ... سقط عماد بيت الرسول . ذهب الحق ضحية الباطل . . فهل من أسف على فتاة حقيرة مثلي ... »

قالت ذلك وهي جاثيـة فوق القبر تتلقى ترابه بين كفيها وتستنشق رائحته ملء خياشيمها . ثم التفتت الى ما حولهـا فاذا هي منفردة في ذلك البستان وليس حولها غير الاشجار بلا اظلال لتكاثف الظلام . فارتعـدت فرائصها واشتغلت بالخوف عن الحزن ومكثت صامتـة وهي لا تسمع غير طنين البعوض وحترشة الخنافس وحفيف الورق اذا هبت الريح . فندمت على مجيئها في ذلك الليل وجعلت تمسح عينيها بكمها وتتفرس عما يحـدق بها فلا ترى لنظرها مقرّا لشدة الظلام . وتعاظم بها الخوف حتى لم تعد تستطيع الحركة لئلا تسمع صوت خطواتها فترتعد

وفيما هي في تلك الحيرة تذكرت ليـلة زارت ذلك القبر ومعها عامر وعبد الرحمن . وتصورت عبد الرحمن واقفاً أمامها وخنجره بيده يتعهد بقتل يزيد . فاختلج قلبها في صدرها حتى كادت تسمع صوت خفقانه وعادت الى الحزن وعاد اليها البكاء فقالت « اين أنت يا عبد الرحمن يا حبيبي يا ابن عمي يا خطيبي يا املي وسعادتي .. اني قانعة من الدنيا ببقائك .. أنت املي أنت سندي أنت منيتي أنت حياتي .. أين أنت يا عبد الرحمن ؟ .. هل أنت حي بعد ؟ .. هل تسمعني اذا ناديتك ؟ ... انك تحسبني ميتة وأنا حيـة . هل انت من يحدثك ببقائي اذا كنت في عالم الاحياء ؟ .. يجب أن تكون حيا .. لا لا .. انت لم تمت .. كيف تموت ؟ .. كيف ينحل ذلك الجسم .. كيف يصير ترابا .. هل يجسر الديدان على الدنو من ذلك البدن .. ألا يهيب الدود من قامتك .. يا أحب الناس اليّ . عبد الرحمن .. عبد الرحمن ..

قل لي هل أنت حيّ فأحب الحياة من أجلك .. أم أنت ميت فاسرع في اللحاق بك .. نعم أنت حي .. أين أنت ؟ . . »

ثم أجفلت بغتة ومسحت عينيها بطرف كمها وتباعدت وهي تقول « ويلاه ماذا أرى .. أرى عبد الرحمن واقفاً امامي وعيناه شاخصتان اليّ .. ولكنه لا يكلمني .. تكلم . عبد الرحمن ! كلمني تقدم اليّ .. انظر الى دموعي قد بللت الثرى ... عبد الرحمن تعال يا حبيبي .. ويلاه واأسفاه .. انها أضغاث أحلام .. اني لا أرى أحداً أم أنا أرى روحاً ؟ روح حبيبي عبد الرحمن تجلت لي ... حدثيني يا روح عبد الرحمن أو خذيني اليه ... »

ثم سكتت لحظة ريثما ارتاحت وعادت الى البكاء وهي تقول « كيف لا يقتلونه وقد قتلوا الحسين وأولاده ... قتلوه ... نعم قتلوه .. لا لم يقتلوه» ثم التفتت نحو السماء فتراءت لها النجوم من خلال الاغصان فقالت « لقد تعودت أن أسمع مناجاة الارواح في هذا المكان ... هنا سمعت الهاتف يقول و بشر الذين ظلموا بعذاب اليم ... ويلاه أين ذلك العذاب ؟ . . انه عذاب ولكنه لي أنا التعسة . . الشقية . . » ثم أوغلت في البكاء وهي تتلاعب بذلك التراب وتستنشقه فعفرت وجهها ويديها وثيابها وهي لا تدري حتى انهكها البكاء وأخذ التعب منها مأخذاً عظيماً فانتبهت لنفسها وودت انها لو أجلت الزيارة الى النهار ونظرت الى ما يحيط بها من جيوش الظلام فعاد الخوف اليها وصمتت فاحست كأن جماعة من الناس وقوف حولها يحدقون فيها بأبصار كالنار فجمد الدم في عروقها وكل شيء حولها ساكن حتى الهواء

الفصل الثالث عشر والمائة

الرعب

وفيما هي في تلك الحال وقد أمسكت تنفسها لئلا يكدر ذلك السكون وأصبحت كالجماد لفرط خوفها ووحشتها سمعت سعالاً قوياً فوثبت بالرغم عنها وصاحت صيحة الرعب ولم تكد تتحقق جهة الصوت حتى رأت شبحاً قادماً اليها من وراء شجرة بالقرب من الجميزة فصاحت « ويلاه من انت .. من انت .. من الجن أم من الانس ... خف من الله وابتعد عني

ولم تتم كلامها حتى سمعت قائلاً يقول « لا تخافي يا سلمى يا ولدي لا تخافي »

فتبادر الى ذهنها لاول وهلة ان والدها قام من القبر فقف شعرها واقشعر بدنها

ثم دنا الشبح منها فاذا هو الشيخ الناسك . فلما عرفته وقعت مغشياً عليها فأنهضها وجعل يروح لها بيديه حتى افاقت فقال لها « سامحيني يا سلمى على هذا السعال فقد حدث بالرغم عني وما كنت مزعجك الا مكرهاً » فتشددت وجلست وهي تقول « اين عبد الرحمن ... قل لي ايها الشيخ — ان كانت فيك كرامة . . . أو ادفني في هذا التراب الآن . . . ادفني اقتلني ... »

ثم يجيبها الشيخ الا بالبكاء بصوت عال وكأنه أصيب بجنة . وتركها وجعل يحثو التراب على وجهه ويبكي بكاء الطفل ويقول « ياحبيبي ياحجر ... متّ في سبيل نصرة الامام علي ... قم وانصر ابنه بل قم وابكه وابك أولاده وسائر أهله ... فقد ماتوا جميعاً . . . هنيئاً لك انك جالس معهم

الآن في دار البقاء ... »

فلما سمعته يقول ذلك ورأت حاله نسيت نفسها وتحيرت في أمره وتذكرت ما سمعته منه ليلة مقتل الحسين في كربلاء فازدادت حيرتها وودت أن تعرف ما بعثه على ذلك فقالت « من أنت ايها الشيخ .. قل لي وافرج كربي من أنت ؟ »

فلما سمع كلامها تغيرت حاله وسكت كأنه ندم على ما فرط منه ثم تجلد وقال لها « انك تسأليني عن امر ليس من شأنك يا سلمى .. اسكتي وابكي ما شئت ... واذا شئت ان تعلمي من هو الشيخ الناسك فسوف تعلمين ... ستأتي ساعة ينكشف بها أمره وأرجو ان لا ينكشف الا كما يريد هو »

فسكتت سلمى وخافت أن يبدو منه ما لا تريده ثم أرادت ان تغير الموضوع فقالت « اخبرني أين هو عبد الرحمن .. هل هو حي كما قلت لي ؟.. »

قال « لا أعلم ... ولو علمت ما كنت لاقول لك لانك لا تصغين الى قولي »

قالت « قل ... بالله قل ... اني مصغية »

قال « اتعملين كما أقول لك »

قالت « نعم افعل كل ما تريده ولو قلت لي ادفني نفسك حية لفعلت »

قال « لا أقول ذلك ولكنني أطلب اليك ان تتركي هذا العالم وتأتي معي الى دير نقيم فيه لا نرى فيه الناس ولا نسمع بمظالمهم

فجاء ذلك الاقتراح صدمة قوية على قلبها فقالت « وعبد الرحمن ؟ »

قال « قلت لك لا تسأليني بل افعلي ما اقوله لك »

فسكتت وقد تحيرت بماذا تجيبه ولكنها عولت على الاصغاء لقوله فقالت « وأي دير تريد ان نقيم فيه ... أنقيم في هذا الدير

قال كلا لا نقيم في هذا الجوار اننا لم نجد فيه مغنم هيا بنا الى دير بحيراء في بصرى وان كان يعز عليّ ان أفارق هذا القبر » قال ذلك واختنق صوته

قالت « واين هو هذا الدير »

قال « هو على بضعة مراحل من هذا المكان في جهات البلقاء »

الفصل الرابع عشر والمائة

الرحيل الى الدير

وكانت سلمى قد استأنست بالناسك وذهب اضطرابها وخوفها ولما آنست انعطافه اليها وبكاءه على والدها زاد استئناسها به ووسمت فيه شيئاً يرجو ان يفرج كربها ولكنها ما زالت في ريب من امره ولم تجسر على استفهامه عن حقيقة حاله بعد ان سمعت ما سمعته من تمنعه على انها عولت على استطلاع ذلك في فرصة اخرى

فلما رأت عزمه على السفر الى بصرى والاقامة في الدير شق عليها الانزواء في الديور وهي في ريعان الصبا ولم تذق راحة منذ فتحت عينيها ولم تنل غير الفشل في مقاصدها واعظم ما اصابها ضياع حبيبها ولولا انفطار الانسان على الامل ولو في المحال لقطعت بموته قطعاً بتاً . ولبثت برهة تفكر في سفرها الى بصرى وتردد في ذهنها امر خطيبها وقد علمت من زيب انه سار الى الكوفة فكيف تطلب الدير وهي لم تستوثق من وجوده هناك او عدمه

فلما رآها الشيخ ساكتة قال « ما الذي يجول في خاطرك يا سلمى . . اظنك ترددين في سفرك الى دير بحيراء ؟ وكأني بك تقولين كيف اسير الى بصرى وقد تركت عبد الرحمن في الكوفة — فاعلمي يا سلمى اني لو لم اياس من وجوده هناك ما دعوتك الى ذلك الدير . او لو علمت اين هو ولو في

الصين لقصدته كما قصدتك حتى لقيتك هنا » قال ذلك وصوته يتلجلج كأن البكاء يعيقه عن الكلام

فلم تزدد سلمى من ذلك الا اسفاً لانها كانت لا تزال عالقة الذهن ببقاء عبد الرحمن في الكوفة — فاذا لم يكن هناك فاين يكون ؟ فازداد بلبالها وقلقها فلم تجد بداً من تسليم قيادها الى ذلك الشيخ وهي تعتقد حسن قصده وصدق غيرته في سبيل الامر الذي قامت هي لاجله . على انها لولا بقية امل فيها بلقاء عبد الرحمن ما فضلت مكاناً على الدير او القبر . ثم قالت للشيخ « وهل اترك بقية بيت الرسول وقد فارقت زينب على ان انتظرها هنا ريثما تخرج مع أهل بيتها الى المدينة فاسير معها »

قال « لا ارى أن تسيري معهم ففد كفاك ما لاقيته من الاهوال في رفقتهم تعالي الى دير بحيراء فانه ذو كرامة وانقم هناك حتى يأتي الله بالفرج »

قالت « اني فاعلة ما تريد والاتكال على الله ولكن أين نبيت الليلة ؟ »

قال « نبيت هنا ولا خوف علينا والبلاد في امان . نامي انت وانا ساهر لاني قد نمت طول النهار »

وباتا تلك الليلة وسلمى في بحر من الهواجس لا تدري ما يصير اليه امرها

فلما اصبحا قال الشيخ « اعلمي يا بنية أن طريقنا من هنا الى بصرى كثير الوعر ولا بد لنا من قطعه على اقدامنا »

قالت « انا لا يهمني ذلك فما انا اولى بالراحة منك وانت شيخ وانا صبية »

قال « اعلمي اننا سنسير بضعة ايام نحو الجنوب حتى نقبل على بصرى مدينة الروم ومركز تجارة بلاد العرب » . فسكتت ولم تجب ومعنى سكوتها انها لا تراجعه في امر يريده

فقال لها « امكثي هنا ريثما اعود اليك »

فتركها ومضى ثم عاد ومعه جراب فيه زاد وفاكهة فناولها وقال « هذا طعام يكفينا يوماً كاملاً ورزق الغد الى الغد » فاكلت

الفصل الخامس عشر والمائة

بصرى

وبعد مسير بضعة ايام سيراً بطيئاً اشرفا على مدينة بصري (وهي غير البصرة في العراق) نحو العصر وكانت سلمى قد تعبت واستوحشت وتغيرت حالها ولم تذهب صورة عبد الرحمن من ذهنها . ولكنها لا ترى سبيلاً اليه لانها لا تعلم مقره . وكانت قد استسلمت الى الشيخ الناسك لاعتقادها انه انما يسير بها الى الخير وانه ذو كرامة وما تحسبه يخطو خطوة الا لغرض مقدر نفعه

فلما اطلا على بصرى وهي اكبر مدن حوران في ذلك العهد انبهرت سلمى لعظمها وعمرانها وخصبها في تلك البلاد الجرداء التي يندر فيها الشجر ولا اثر فيها للخشب ورأت خارج المدينة من جهة الغرب بحراً لامعاً بما ينعكس عنه من اشعة الشمس فسألت الشيخ الناسك عنه فقال « ما هو بحر يا بنية وانما هو حوض كبير يخزن البصريون مياههم فيه ابان الشتاء ليستقوا منها في الصيف وهو عبارة عن خزان للمياه طوله نحو ١٢٠٠ ذراع وعرضه ٥٠٠ ذراع وكان لبصرى احواض اخرى تهدمت »

ثم قال « اعلمي يا سلمى أن بصرى مدينة قديمة عاصرت دول اليهود فاليونان فالرومان وفيها ابنية رومانية ويونانية وسريانية

فالتفتت سلمى الى تلك المدينة والشيخ واقف بجانبها فاذا هي بديعة الانتظام يكتنفها سور يزيد محيطه على أربعة اميال ويحيط المدينة غياض وبساتين وأنواع الاشجار والاثمار . ووراء ذلك سلاسل جبال حوران في

عرض الافق . ورأت لون ابنية المدينة مغبراً كأنها تلوثت بالدخان فقالت «وما الذي غير لون هذه الابنية »!

قال « ذلك هو لون أحجار هذه البلاد فان فيها حجراً اسمر يسمونه الحجر الحوراني هذا لونه ومما يزيدك عجباً ان ابنية حوران لا يدخل في بنائها شيء من الخشب وانما هم يصنعون سقوف بيوتهم واجنحة أبوابها ونوافذها من الحجر الصلد

فاشتاقت سلمى الي النزول للمدينة لمشاهدة أسواقها فقال لها الشيخ «اذا اودت النزول اليها فما انا نازل معك لاني كما قلت لك لا آوي المدن ولا امرُّ بها . وزد على ذلك اني أعرف هذه المدينة كما أعرف بيتي فقد زرتها غير مرة وانا شاب وكنت على دين النصرانية وزرت كنائسها وحماماتها وشوارعها وقصورها فاذا هي من اعظم المدن[1] وربما سنحت لك الفرصة بعد حين بمشاهدتها واما الآن فتعالي معي الى الدير

الفصل السادس عشر والمائة

دير بحيراء

فلما سمعت قوله انه كان على دين النصرانية في شبابه تفرست في سحنته فرأته يشبه ان يكون كندياً من قبيلة أبيها لان كندة كانوا نصارى حتى جاء المسلمون بلادهم فاعتنقوا الاسلام وزادها ترجيحاً ما رأته فيه من الغيرة على أبيها والانتصار لبيت علي . ولم يزدها كل ذلك الا حيرة وشكا وهي مع ذلك لا تستطيع مخاطبة الشيخ في هذا الموضوع لئلا يغضب فلم تر خيراً من الصبر حتى يتأتى لها استطلاع الحقيقة

(١) اذا شئت الاطلاع على وصف بصرى اقرأ الجزء الاول من رواية فتاة غسان

أما هو فقال ما قاله وسار فسارت هي في اثره حتى اشرفا على الدير فاذا هو بناءان احدهما كبير وفيه قبة فوقها صليب علمت سلمى انها كنيسة والاخر صومعة على رابية . فمشيا نحو الكنيسة فلما اقبلا عليها تفرست سلمى في بنائها فرأتها مبنية على النمط الروماني واسمها كنيسة بحيراء . فدخلا صحنها حتى جاءا البيعة فرأيا المكان ديراً وبه كنيسة وشاهدا الرهبان والقسوس وكلهم من الروم يتكلمون اللاتينية و بعضهم اليونانية والسريانية الممزوجة بالعبرانية وهي لغة تلك البلاد بعد السبي

فقالت سلمى « مالي ارى الناس هنا اختلاطاً من لغات شتى »

فقال « لان بصرى يا ابنتي عند النصارى مركز اسقفية بلاد العرب الكبرى وفيها يقيم رئيس الاساقفة ومنها يرسل الاساقفة الى الآفاق »

قالت « اين دير بحيراء »

قال « هذا هو الدير الآن وأما المكان الذي كان يقيم فيه الراهب بحيراء فهو صومعة بجانب الدير ».

قالت « هلم بنا اليه »

فخرج بها والرهبان لم يلتفتوا اليهما ولا استغربوا حالهما لان الدير ملتقى الغرباء وفيهم النساء والمهاجرون والمسافرون والمرضى وأهل النذور وغيرهم

فلما خرجا من الدير التفتت سلمى الى الصومعة فاذا هي لا تشبه الابنية ولا صدقت انها بناء لانها عبارة عن خمسة أحجار ضخمة أربعة منها للجدران وواحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع يفتح ويغلق بسهولة . فاستغربت تشكيل تلك الصومعة فقالت « ما هذه الصومعة يا سيدي »

قال « ألم اقل لك ان هذه البلاد عديمة الاخشاب واهلها يصنعون أبواب بيوتهم وأجنحتها ونوافذها ومقاعدهم وسائر آنية القعود والرقاد من الحجر . وقد يفعلون ذلك ولو كان المنزل مؤلفاً من عشر غرف أو عشرين فانك لا

يجـدين فيه أثراً للخشب قال ذلك ومشى أمامها وعكازه بيده وهو على ما وصفناه به من ارسال الشعر وعليه رداؤه القديم وسارت هي على أثره حتى دخلا الصومعة فلم يجـدا فيها من الآنية الا مصباحين معلقين امام صورتين احداهما تمثل مريم العذراء والاخرى تمثل السيد المسيح وهناك صورة اخرى لم يعرفاها ولم يجدا في الصومعة احداً

فلما دخلت سلمى تخشعت وتذكرت حالها فقالت للناسك «ها أنا الآن في دير بحيراء فكيف ترى ان تكون اقامتنا فيه »

قال « ان في الدير الذي خرجنا منه الآن غرفاً يقيم فيها المسافرون والدير يقدم لهم ما يحتاجون اليه من الاطعمة مجاناً فتقيمين أنت في غرفة وأنا أقيم في هـذا البستان بالقرب منك فنجتمع في اثناء النهار ونفترق في الليل فتبيتين أنت في الدير وأنا أبيت تحت الشجر لاني عاهدت الله على ذلك كما تعلمين»

فاطرقت سلمى هنيهة ثم قالت « ولـكنني لم أرَ في الدير نساء فكيف أقيم وحدي » قال « في الدير نساء كثيرات واكثرهن يخـدمن في اعداد الطعام وغسل الثياب » قالت « ارى اذاً أن اجعل نفسي في جملة الخادمات لكي يكون في اقامتي فائدة » قال « لقد رأيت رأياً حسناً وانا أخاطب رئيس الدير بشأنك »

الفصل السابع عشر والمائة

الاخت مريم

وخرجا من الصومعة وسار الشيخ الناسك الى رئيس الدير وقال له «انني وابنتي هذه نريد ان نقيم بقية حياتنا في هذا الدير نعبد الله ونخدم عباده وانا شيخ ناسك لا آوي البيوت ولكن ابنتي هذه تريد ان تكون في جملة خدمة الدير

في اعداد الطعام وتنظيف الغرف هل تقبلوننا ؟ »

قال « اهلاً بكم ومرحباً »

وأتوا سلمى بثوب تلبسه خادمات الدير فلبسته وهو لا يقضي على لابسه بشروط الرهبنة وانما يقضي عليه بخدمة الدير مجاناً . ثم سلموا سلمى الى قيمة الدير فرحبت بها وأعجبت بما شاهدته فيها من الجمال والهيبة وما توسمته في عينيها من الذكاء وسمتها اسماً جديداً على العادة الجارية في مثل هـذه الحال فصار اسمها مريم ولم يمض قليـل حتى احبها كل نساء الدير ورجاله وكلهم معجب بما آنسوه من تعقلها وصدق خدمتها وقد زادها الانقباض والسكوت هيبة ووقاراً وأصبحت بعد حين مرجع مشوراتهم وزهرة جمعياتهم

ولم يكن يمضي يوم لا يأتي الدير فيه وفود الاضـياف من انحاء جزيرة العرب والعراق والشام وفيهم اهل التجارة وأهل السياحة وأصحاب النـذور ونحوها . وأصبحت الاخت مريم مضرب أمثال أهل الدير واضيافهم بالرزانة والتعقل

أما هي فكانت تجد في تلك الخدمة راحة عن مشاغل العالم وأحست بسعادة لم تكن تشعر بمثلها من قبل لولم يكن يعترض سعادتهاتذكر عبدالرحمن وما مر بها من الحوادث الغريبة . وبتوالي الايام كادت تنسى كل ذلك الا عبد الرحمن فان صورته لم تكن تذهب من مخيلتها ساعة

وكانت اذا اجتمعت بالراهبات أو الرهبان ودار الحـديث على الاحوال العمومية سمعت طعناً قبيحاً بيزيد وسوء تصرفه وما يرتكبه من شرب الخمور والانغماس باللهو والطرب وضرب الطنابير وتربية القرود . وكانت اذا سمعت ذلك ينقبض قلبها وتقول في نفسها « لا يصلح الحاكم الا اذا أتيح له الاطلاع على سرائر رعيته وما يقولونه في مجالسهم الخصوصية من انتقاد اعماله ومايتناجون به ضيائرهم بشأنه . وهو اذا اتيح له ذلك لايبقى على غيه ولو مهما بلغ من حمقه

وجهله ... كذلك كان يفعل عمر بن الخطاب فكان يتنكر ويخالط الناس فيسمع مايقوله عجائزهم وصبيانهم وشبانهم وكهولهم ويتدبر مايسمعه من الانتقاد فيصلح خطأه فينصف المظلوم ويضرب على أيدي الظالمين فساعده ذلك على تشييد مملكة الاسلام وتقويم دعائمها على العدل والحق ... واما يزيد فانه انشغل بنسائه وخموره واستبد في ابناء الرسول واضطهد اهل بيته حتى كاد يودي بالاسلام والمسلمين ... كاد يهدم بناءأسسه الخلفاء الراشدون على كتاب الله وسنة نبيه ولو انه مني باناس من ارباب شوراه يطلعونه على حقيقة حاله وما يتقوّله الناس عن حكومته وما يشكونه من ضعفه واهماله لاضطر للاصلاح جهد طاقته — ولعل الله اراد ذلك استدناء لاجله حتى يخرج هذا الامر من يده والله عليم بصير »

الفصل الثامن عشر والمائة

زيارة يزيد

قضت سلمى في دير بحيراء سنتين وبعض السنة وهي على تلك الحال والشيخ الناسك معها حتى ألفت الوحدة وكادت تنسى مصائبها لولا ذكرى عبد الرحمن . فانها كانت اذا ذكرته استغرقت في التأملات فيخيل لها أحياناً انه لا يزال حياً فيتجدد املها بلقياه ثم لايلبث ذلك الامل ان يضمحل من مخيلتها فتعود الى البكاء عليه في خلوتها والشيخ الناسك لايشفي غليلها بخبر صريح أو بنبأ صحيح

وأصبحت ذات يوم فرأت أهل الدير في هرج ومرج وقد أخذوا في تزيين الابواب والنوافذ ومد الابسطة وذبح الذبائح فسألت عما دعاهم الى ذلك فقيل لها أن الخليفة قادم الى حوران ولا بد له من المرور بالدير . الاقامة فيه يوماً

أو يومين . فلما سمعت ذلك اختلج قلبها في صدرها وتذكرت اشجانها فانقبضت نفسها ولم ترَ لها مخرجاً من ذلك الا بملاقاة الشيخ الناسك . فلما أقبلت عليه رأته جالساً تحت شجرة وعكازه بيده ينكث الارض بها وقد بالغ في الاطراق كانه يفكر في أمر ذي بال . فلما دنت منه رفع بصره اليها وعيناه تتلألآن كانهما شعلتان وابتدرها قائلا « ان الطريدة أوشكت أن تقع في الفخ فهل تفلت منك هذه المرة ؟ »

فشعرت سلمى للحال بتجدد آمالها بالانتقام ولم تتمالك أن اجابت « ارجو أن لا تفلت والله المستعان »

قال « اعلمي يا سلمى أن يزيداً قادم الى الدير في مساء هذا اليوم وسيقيم هنا ليلة ريثما يستريح ثم يشخص الى حوران . فاذا استطعت أمراً ينسينا مصائبنا واحزاننا فانك تفرجين كربنا وترفعين عن عاتق المسلمين ثقلاً كبيراً »

فاطرقت سلمى هنيهة ثم قالت « اني فاعلة ذلك باذن الله . . . ولكن هل يسعدني الحظ بعد ذلك بلقيا عبد الرحمن ؟ »

قال « اذا نجحت في قتل هذا الرجل فانك تحيين عبد الرحمن وتقيمينه من بين الاموات »

فاقشعر بدنها وقالت « اذاً أنت واثق بموته .. ؟ »

قال « كلا وانما أرجو أن تتعلمي العمل بالواجب عليك والله نصير المظلومين . واذا كتب لك لقاء عبد الرحمن في هذه الدنيا فانك تلقينه ظافرة وتعيشان سعيدين والا فانك تلاقينه في الآخرة وقد انتقمت لابيك ولاهل البيت وذلك يكفيك »

وأرادت أن تجيبه فسمعت الناقوس يدعو الرهبان وسائر أهل الدير الى الـ... ...ـ الرجوع . فناداها الناسك « تمهلي يا سلمى وتناول طرف ثوبه

وفيه عقدة حلها واستخرج منها ورقة ومد يده وقال « خذي هذه الورقة فان فيها دواء الظلم اذا شربه يزيد شفي الاسلام من دائه »

فعلمت انه سم فتناولت الورقة وفتحتها فرأت فيها مسحوقاً ناعماً فعادت وطوتها وخبأتها في جيبها وهرولت الى الدير حتى أتت المطبخ واشتغلت مع سائر النساء في اعداد الطعام

ولما مالت الشمس الى الاصيل ظهر غبار في عرض الافق ولم يكد يرى الرهبان ذلك حتى خرجوا بالمباخر والقماقم واصطفوا في ساحة الدير وعليهم الملابس الرسمية تتلألأ بألوانها الزاهية وفيهم المرتاون وضاربو الصنوج والرئيس في مقدمة القوم وبين يديه غلمان يحملون سعف النخل وطاقات الزهور

وبعد هنيهة أقبل الركب تتقدمه الخيالة وفي صدرهم يزيد راكب على فرس عربي عدته من الفضة الناصعة البياض . وعلى كتفيه قباء وردي اللون مزركش بالقصب . فحالما وقع نظر سلمى عليه عرفته فاقشعر بدنها وتذكرت حالها معه ولكنها تجلدت وابقت تنتظر ما يكون. فاذا بالرجالة أسرعوا فضربوا فسطاطه بقرب الدير وترجل الفرسان وأقبل الخدم وفيهم خدمة الصيد يحملون البزاة والقرود ويسوقون الكلاب والفهود كما رأتهم في دير خالد منذ نحو عامين . وكان يزيد اذا رحل جعل همه الاشتغال بالصيد

الفصل التاسع عشر والمائة

الضيافة

ولما ترجل يزيد استقبله الرئيس وكبار أهل الدير بالملابس الرسمية ورحبوا به فلما دخل الفسطاط دخلوا في أثره واستعطفوه ليتكرم عليهم ويتناول العشاء عندهم فاجاب دعوتهم

فامروا بالابسطة ففرشت في مكان معد لذلك وجاؤوا باصناف الاشربة الحلوة بالوانها الزاهية وقدموا ليزيد ورجاله فشربوا . ثم أمر الرهبان بالطعام فحملوه الى هناك وكانت النساء تهيئه وتساعد الخدم في استحضاره

فلما ترتبت المائدة واصطفت المواعين والاطباق نزع يزيد كوفيته وغسل يديه وجلس في صدر المائدة على وسادة من الحرير المزركش وجلس أمراؤه بين يديه واخذوا في تناول الطعام

وفيما هما في أثناء ذلك وجه التفاته الى الراهبات الواقفات للخدمة فوقع بصره على الاخت مريم فانبهر من جمالها وهيبتها وتذكر سلمى وكان قد بلغه انها قد ماتت منذ عامين وا كثر وقال في نفسه — يا للعجب كم يتشابه الآدميون

وقضى مدة الطعام وهو يردد بصره فيها ولم يتمالك عن الميل اليها والاعجاب بامرها لشدة شبهها بسلمى

اما سلمى فكانت تتجاهل وتتظاهر بتقديم الاطعمة والاشربة وهي مطمئنة البال أن يزيداً لا يمكن أن يعرفها بعد أن بلغه موتها من طبيبه . وخصوصاً لانها بدلت أسمها وثيابها وسائر أحوالها

أما يزيد فانه شغف بالفتاة وكتم شغفه ريثما يحتال في استقدامها اليه . فاخذ يلاطف الرئيس ويثني على ما لاقاه من كرمه وحسن وفادته ويعده خيراً بكل ما التمسه منه . فلما نهضوا عن المائدة دعاه الى خيمته وبالغ في اكرامه حتى غربت الشمس ودق ناقوس الصلاة فاستأذن الرئيس بالانصراف واذن له ثم سرّ الى بعض أهل بطانته ما أضمر من أمر الاخت مريم وكلفه استقدامها بحيلة

فخرج الرجل نحو العشاء الى الرئيس وبلغه سرور الخليفة مما لاقاه من الاكرام والحفاوة الى أن قال « وقد تعود الخليفة أن يتناول المرطبات قبل النوم

فقال الرئيس « اننا أعددنا له كل ما ترتاح اليه نفسه ونحن طوع اشارته»

قال « ولكنني لا أظنكم تستطيعون القيام بكل مايحتاج اليه »

قال الرئيس « كيف ذلك ونحن لا ندخر وسعاً في سبيل مرضاته »

قال » لا يخفى عنك ان مولانا أمير المؤمنين تعود أن تصلح له الطعام فتاة جئنا بها معنا من دمشق فمرضت في أثناء الطريق فارجعناها الى أهلها وقد قضينا بقية السفر والخليفة لا يرى الطعام لذيذاً • فلما تناول هذا العشاء عندكم أعجبه حسن طبخه ورأى بين النساء فتاة أعجبته لباقتها في اعداد المائدة وتمنى لو انها تصحبه بقية سفره الى حوران ولا أظن الراهبات يخرجن من الدير ولذلك خشيت أن لا تستطيعوا القيام بكل مايحتاج اليه أمير المؤمنين ...»

فابتدره الرئيس قائلا « ان بين نساء هذا الدير فتاة ليست راهبة ولكنها من احسن النساء عقلاً وذكاء وهي تصلح الطعام احسن اصلاح . فاذا كانت هي التي وقعت من مولانا أمير المؤمنين موقع الاستحسان ألحقناها ببطانته في هذا السفر ولا نظنها الا فرحة بهذا الشرف العظيم »

فاستبشر الرجل بنيل المرام وقال « وأي فتاة هي ؟ »

قال « هي التي ندعوها الاخت مريم .. »

فقطع الرجل كلامه قائلا « وهي التي أعجبت الخليفة فهل تظنها ترضى بخدمته ؟ »

فهز الرئيس رأسه هزة الاستخفاف وقال « ومن يحصل على هذا الشرف ولا يقبل به ؟ »

الفصل العشرون والمائة

كأس العسل

ونادى للحال قيمة الدير وطلب اليها ان تستدعي الاخت مريم . فلما جاءت ووقفت بين يدي الرئيس قال لها « اعلمي يا بنيـة أن مولانا الخليفة مسافر الى حوران ويحتاج الى فتاة تصلح له الطعام فامتدحت له مهارتك في ذلك وقد تنازل ان تكوني في خدمته فابشري باقبال سعدك واذهبي اليه . واوصيك ان تبذلي الجهد في ارضائه »

فسكتت سلمى وابدت الاستحسان بملامح وجهها وقد خفق قلبها سروراً بتلك الفرصة

ففرح الرئيس أيضاً واثنى على لطفها وقال لها « سيري منـذ الا ن مع هذا الامير وكوني ساهرة في خدمة الخليفة فانه قد غمرنا بفضله واحسانه »

فسارت سلمى وقد تهيأت لتلك المهمـة ولكنها صممت على الفتك بابن معاوية ولو مهما كلفها ذلك

وكان يزيد في انتظار رسوله فلما عاد اليه ظافراً غانماً اثنى على صدق خدمته وامره أن يعدّ له المرطبات والفاكهة ليتناولها قبل الرقاد . فاعـد كل شيء وانصرف وبقي يزيد في الخيمة وحده فاستدعى الاخت مريم فدخلت وقد تلثمت بالخمار وتظاهرت أن اللثام من عادات اهل الدير

فسايرها يزيد في ذلك ترغيباً لها في خدمته على ان ينال منها مرامه بعد سفره . [illegible] ان تهم بمرأى ما ظهر من عينيها . فلما وقفت بين يديه [illegible] ولا يبدي شيئاً مما في نفسه مخافة ان [illegible] فتأبى [illegible] ثم تظاهر بالنعاس وقال لها « اسقيني كأساً

من الماء المحلى بالعسل »

فقالت في نفسها « اني والله قاتلته بسلاحه » فتناولت الكأس وصبت فيها العسل وتظاهرت باستحضار ماء بارد فخرجت من الخيمة ويداها ترتعشان من عظم الاضطراب وفكرت هنيهة في امر السم الذي اعطاها اياه الشيخ الناسك فرأت انها اذا صبته كله ربما يظهر تأثيره عاجلا قبل أن تتمكن من الفرار فيقبضون عليها . فصبت جانبا منه في الماء ومزجته بالعسل وقدمته له . فتناوله وشربه الى آخره وهو يريد أن ينام ليبكر في الرحيل ويخلو بالفتاة في حوران

أماهي فلما تحققت انه شرب الكأس خرجت من الخيمة ولم يستغشها أحد وسارت تواً الى الناسك فرأته واقفاً في ظل الشجرة فشارت اليه اشارة فهم منها انها أتمت مهمتها وتريد الفرار فقال « هيا بنا لا تخافي . . »

وتسلق الشجرة وعاد منها بصرة تأبطها وامسك سلمى بيدها وخرج بها في طريق لا يراهما أحد. ولم تمض برهة حتى توار يا عن الدير واصبحا في الصحراء فوقف الشيخ وفتح الصرة فاستخرج منها ثوبين من أثواب أهل البلقاء اعطى سلمى ثوباً ولبس ثوباً فاصبح لايشك من يراها انهما رجلان من أهل البلقاء فعجبت سلمى لتأهب الشيخ الناسك وتحوطه ولكنها ما زالت خائفة فقالت له « اخشى أن يلحق بنا الجند وربما تمكنوا منا فما العمل »

قال لا تخافي . اتبعيني والله المنجي » فسارت في اثره تقضياً بقية ذلك الليل يلتمسان الطريق والناسك يرشدها كانه يسير في ضوء النهار

الفصل الحادي والعشرون والمائة

صرح الغدير

واصبحا في اليوم التالي فاذا هما بالقرب من بناء خرب تدل بقاياه على فخامة اصله لكبر احجاره وسعة مساحته . فقالت سلمى « واين نحن يامولاي »

قال « اننا في البلقاء وهذا صرح الغدير الذي يتغنى به الشعراء »

قالت « ألا يسكنه احد الآن »

قال « كلا فانه من بناء الغساسنة وكانوا عرباً نصارى فلما جاء المسلمون الشام وفتحوها دخلوا في حوزتهم . وكان هذا القصر لبعض ملوكهم يقيمون فيه بعض السنة وهو من بناء احد أجدادهم ثعلبة بن عمرو بناه منذ اربعة قرون وقد دُرس كما درسوا وسبحان الحي الباقي [1]

قالت « فالقصر مهجور الآن ؟ . . . »

قال « اجل . ولا بأس من الاستتار فيه بقية هذا اليوم ولا يمكن أن يهتدي اليه أحد . فاذا انقضى النهار نستأنف المسير ولا خوف علينا باذن الله »

قالت « والله لا ابالي اذا مات يزيد أن اموت انا في اثره اذ اكون قد قمت بالواجب وشفيت ما في نفسي ونجيت المسلمين من شر عظيم »

قال « انه مائت لامحاله لان نصف ذلك السم كاف لقتله »

قالت « ولكنني لم اسقه اكثر من النصف فهل يميته؟ »

قال « انه يميته بعد ايام وقد فعلت حسناً بتقليل الكمية »

ومشيا وهما يتكلمان حتى دخلا من باب القصر الى ساحة تراكمت فيها الاتربة والاحجار وانسابت فيما بينها بعض انواع الحشرات . فتحول الشيخ

(١) اذا شئت الاطلاع على وصف هذا القصر فاقرأ الجزء الاول من رواية فتاة غسان

وسلمى الى بقايا غرفة كأنها كانت مجلس أهل ذلك القصر في ايام عمارته لها نافذة تطل على واد فيه آثار جدول جف ماؤه منذ اعوام . فاستخار الشيخ حجراً نظيفاً بجانب النافذة اجلسها عليه وجلس هو الى جانبها . ثم نهض بغتة وقال «دعيني انصرف عنك برهة ثم اعود اليك بالطعام . . هل تخافين الانفراد . . ؟ »

قالت « لااخاف ولكنني استوحش وانا في هذه الخرائب المرهبة . دعنا من الطعام فاني لااحتاج الى شيء منه غير الذي جئتني به من الدير ريثما ننتقل الى مكان آخر »

قال « وتحدثني نفسي أن نختبىء في هذا المكان غير يوم لنرى ما يكون ولا اظن أحداً يعرف مقرنا . فاذا فرغ النهار فرغ زادنا ولا يعيش الانسان بلا طعام . فامكثي هنا لا بأس عليك فاني اعرف عرباً من بقايا الغساسنة على بضع خطوات من هذا المكان فاستقريهم وآتيك بما تصل اليه يدي والله الموفق . ولكنني اوصيك بالتربص في مكانك ريثما اعود » فلم ترَ بداً من طاعته فسكتت

وخرج الشيخ الناسك وعليه ثوب اهل البلقاء وبقيت سلمى بين تلك الاطلال وحدها فما لبثت ان توارى الشيخ عن بصرها حتى أحست بالوحشة وندمت على بقائها في ذلك المكان وودت لو انها سارت مع الشيخ الى حيث يسير . ونظرت الى ما حولها فاذاهي بين آكام من الاتربة تمشي بينها الخنافس وانواع النمل فملت الجلوس هناك . فوقفت وارادت ان تشغل نفسها عن وحشتها فمشت تتفقد بقايا ذلك الصرح وتتأمل في أصل تكوينه فخرجت من تلك الحجرة الى غيرها فغيرها حتى انتهت الى دهليز مشت فيه فافضى بها الى سلم يطل على الوادي فعلمت انه مخرج اهل القصر الى ضفاف ذلك الجدول في ايام جريه . فانحدرت على السلم حتى انتهت الى مصطبة صغيرة . وكانت قد

تعبت فجلست عليها واعجبها الظل وانعشها النسيم البارد فطاب لها البقاء هناك برهة فجلست على متكأ من حجر والنسيم يجري عليلاً فاحست بالتعب الشديد والنعاس الثقيل على اثر ما قاسته في الليل الماضي من التأثر والسهر والركض فغلب عليها النعاس فنامت واستغرقت في النوم . ولا تسل عما مر في مخيلتها من الاحلام وفيها المرعب والمزعج

الفصل الثاني والعشرون والمائة

البغتة

وهي مستغرقة في نومها طرق سمعها جعير جمال فافاقت مذعورة ووقفت بغتة والتفتت الى ما حولها فرأت ثلاثة رجال قادمين من عرض البر نحو القصر وعلى الرجال لباس الدماشقة فارتعدت فرائصها ولم تشك انهم من اتباع يزيد وقد اقتفوا أثرها بعد ما اصاب يزيد سوء فهرولت على السلم وعادت الى الدهليز ومنه الى الحجرة التي كانت فيها وانزوت بحيث ترى القادمين ولا يرونها فاذا بهم ترجلوا بجانب شجرة على مئة ذراع من القصر وعقلوا الجمال واستخرجوا طعاماً وجلسوا يأكلون . فتوارت سلمى عنهم وعادت الى جهة باب القصر لعلها تجد الشيخ عائداً من مهمته فتستأنس به فلم تجد احداً فاستبطأته وشغل خاطرها على غيابه وهي تعلم انه لا يبطئ الا لامر ذي بال . فعادت الى الحجرة وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ودنت من الاصيل ولم يعد الشيخ . فازداد قلقها فعادت الى الباب السري ولم تكد تصل اليه حتى رأت الشيخ يعدو نحوها فوقفت في انتظاره فلما تبينته استغربته لانها رأته قد قلم اظفاره ومشط لحيته وقص شعره ورفع حاجبيه عن عينيه ولولا الثوب الذي رأته عليه في ذلك الصباح لانكرته ولكنها رأت التعب والبغتة في وجهه فقالت « ما وراءك يا مولاي وما الذي جرى؟..»

قال « ما ورائي الا الخير دعيني استريح ثم اقص عليك الخبر ولكنه خبر

مفرح لا تخافي » فاطمأن بالها بعد ان كانت تضطرب . وبينما هي في انتظاره وهو يلهث من التعب سمعت وقع اقدام خارج الباب وسمع الشيخ ذلك ايضاً فجاس وقد استراح وهدأ تنفسه ثم وقف وتقدم الى الباب فرأى رجلاً عليه لباس اهل دمشق والشيخ لا يزال هو وسلمى بلباس أهل البلقاء وقد امر سلمى أن تبقى داخل القصر ريثما يعود فمكثت حسب اشارته

أما هو فلما اقبل الرجل اليه رحب به وحياه . فقال الرجل « وهل في هذا المكان منزل للاضياف »

قال الناسك « كلا وانما هو قصر خرب لا يسكنه أحد »

قال « ولكننا رأينا فيه اناساً »

قال « ليس فيه أحد الا انا وابني وقد مررنا به في هذا الصباح فاقمنا ريثما نستريح وانت من أين قادم ؟ »

قال « انني قادم مع رفيقيَّ هذين (واشار الى رفيقيه) من دمشق »

قال الشيخ « والى أين تقصدون »

قال « الى بصرى ويظهر لي من لباسك انك من اهل البلقاء فهل كنت في بصرى »

قال « نعم انني قادم منها »

« قال هل مررت بدير بحيراء » قال « نعم »

قال « أرأيت في الدير أو في جوار الدير شيخا ناسكاً لا يأوي المنازل؟»

فلما سمع الشيخ كلام الرجل خفق قلبه وقال « نعم اظنني رأيت مثل هذا الناسك هناك . ولكن ما الذي يهمكم من أمره .. ؟

قال « لا يهمنا شيء ولكن رفيقيَّ عرفاه مذ كان بجوار دمشق ثم سمعا انه يقيم بجوار بصرى وهو شيخ ذو كرامة لو لقيته وخاطبته لعلمت انه من الاولياء »

فادرك الشيخ ان في الامر سراً يهمه استطلاعه فقال « ومن هما رفيقاك » قال لا أدري من اين هما ولكنني صحبتهما من جوار دمشق على ان آتي بهما بصرى ثم أعود . وهما اللذان قصا عليّ كرامات الشيخ الناسك »

قال الشيخ « لماذا لا يأتيان الى هنا فاقص عليهما من نبأ الشيخ الناسك ما يغنيهما عن التعب الكثير »

الفصل الثالث والعشرون والمائة

صدفة غريبة

فتحول الرجل الى رفيقيه وسار الشيخ في اثره حتى اقبل على الرجلين وكانا جالسين تحت الشجرة فلما رأيا الناسك مقبلاً مع رفيقهما تبرما كأنهما استاءا من قدومه . اما الشيخ فلم يكد يراهما حتى عرف انهما عامر وعبد الرحمن ففرح فرحاً عظيما ولكنه تجلد وأراد ان يمتحنهما . فلما أطل عليهما رحبا به فقال لهما « وماذا تريدان من الشيخ الناسك ألعلكما من اهله ؟ »

فقال له عامر « لسنا من أهله ولكننا عرفناه في دمشق واحببنا أن نلقاه فهل رأيته ؟ »

قال « لقيته في دير بحيرا ولكنكم اذا ذهبتم اليه فلا تجدونه هناك »

قال عامر « واين نجده »

فالتفت الشيخ الى رفيقيهما وخاف من التصريح امامه فقال لعامر « اذا شئت أن ترى الشيخ الناسك دبي أدلك على مكانه في هذه الساعة . تعال معي »

وكان عبد الرحمن جالساً يسمع حديث عامر والشيخ ولا يتكلم فلما سمعه يقول ذلك قام وقام عامر ومضيا حتى بعدوا عن الشجرة ودنوا من القصر فقال الشيخ « ان الشيخ الناسك مقيم في هذا القصر الخراب »

فقال عبد الرحمن « ما زلت من صباح هذا اليوم وانا انظر الى هذا القصر فلم أجد فيه غير شاب يظهر انه في ريعان الشباب وكأنه مقيم وحده هنا وقد استغرب بنا مقامه »

قال وقد رفع صوته « يا للعجب اقول لكم قولا فلا تصدقونني انه لعجب عجاب » فلما سمع عامر صوت الشيخ ينتهره اشتبه به وجعل يتأمل في سحنته فرآه يشبه الناسك من جهة و يشبه من جهة اخرى شخص آخر يعرفه ولم يكن قد رآه منذ بضعة عشر عاماً فلبث عامر صامتاً لا يتكلم كانه اصيب بالبله

فقال له الشيخ « ما بالك ما الذي ربط لسانك يا عامر »

وما أتم كلامه حتى ترامى عامر على الشيخ وجعل يقبل يديه ويقول « أنت الشيخ الناسك ؟ »

قال « انا هو .. »

فلما سمع عبد الرحمن ذلك صاح فيه « واين سلمى ؟.. »

قال « وما ادراك ببقائها وانت اخبرتني انها ماتت ورأيت قبرها محفوراً »

فقال « قلت لك ذلك وهذا هو اعتقادي واعتقاد عمي عامر ولكن زينب بنت علي أنبأتني ببقائها في قيد الحياة وانها صحبتها في واقعة كربلاء ثم الى دمشق ثم لم نعد نعرف مقرها »

فنظر الشيخ الى عبد الرحمن وقال « وهي كانت تعتقد انك ميت حتى انبأتها ببقائك حياً ونحن في كربلاء . ثم علمت انك خرجت الى الكوفة في مهمة وانقطع خبرك فيئست من لقائك و ... »

فقطع عبد الرحمن حديثه وقال « والآن قل لي اين هي سلمى .. هل

هي معك ام اين ؟ .. قل لي .. بالله قل لي »

قال « ألم ترها اليوم ؟ »

قال « اين ؟ »

قال « في هذا القصر »

فاطرق عبد الرحمن ثم قال « ألعلها الشخص الذي رأيته وحسبته شابا ؟ »

قال « نعم »

فهمّ عبد الرحمن بالمسير الى القصر وقد شاعت عيناه وخفق قلبه ولم يعد يصبر عن رؤية سلمى فمنعه الشيخ وقال « تمهل لاطلعها على خبرك رويداً رويداً لئلا تضر البغتة فيها . وارى أن تصرفا هذا الرفيق الى مكان لئلا يطلع على شيء من امرنا

وقال عامر « انه رفيق مأجور ليدلنا على الطريق »

قال الشيخ « فاصرفه الساعة ونحن نعرف الطريق »

قال « سأرسله الى بصرى ليسأل عن الشيخ الناسك هناك ويعود »

أما عبد الرحمن فأشرق وجهه وأبرقت أسرته وأخذ يتطلع الى القصر ويتطاول لعله يلمح سلمى من نافذة او ثلم

الفصل الرابع والعشرون والمائة

خبر غريب

اما الشيخ فاسرع الى القصر فرأى سلمى في الحجرة وقد مت الانتظار لتعلم من هو ذلك الرجل وتستطلع ما دعا الى تغيير سحنة الشيخ وهيئته فلما أقبل عليها ابتدرته بالاستفهام عن سبب ذلك التغيير فقال « دعي ذلك

ذلك الآن وفكري معي في كيفية النجاة من هذه الورطة »

قالت « وأي ورطة » وعلت الحمرة وجهها

قال « ان هؤلاء الرجال قادمون من عند يزيد للبحث عنك فهل اخبرهم بمحلك »

فبغتت سلمى وقالت « قلت لك لا أبالي ما يجري بي اذا علمت ان سهمي اصاب مقتلا من يزيد »

قال « اذا اكدت لك أن يزيد مات من تلك الجرعة هل تسلمين نفسك الى رجاله ليقتصوا منك ..؟ »

قالت « اذا استطعت النجاة لا القي نفسي بين أيديهم اما اذا قبضوا عليّ وأرادوا قتلي فاني لا أبالي بالحياة ... ولكن ... » وسكتت

قال « مالك ترددين .. قولي .. ان هؤلاء الثلاثة تتبعوا خطواتنا حتى ادركونا هنا وهم يبحثون عنك فهل اقول لهم انك هنا »

فاستغربت سؤاله ولم تفهم هل هو يمزح أم يقول الجد فاجابته « قلت لك اني اذا نفذ سهمي لا أبالي أن أقتل الا اذا كان ... » وخنقتها العبرات ولم تعد تتمالك عن البكاء والشيخ صامت لا يتكلم حتى فرغت من بكائها فقال لها « اذا كان ماذا ؟ »

قالت والبكاء يغالبها ويخنق صوتها « أراك تهزأ بي أو تريد قهري . وعهدي بك أحن عليّ من الوالد على ولده فما بالك تتجاهل عواطفي ؟ . وانا مع ذلك لا استحي ان اقول — اذا كان حبيبي عبد الرحمن لا يزال حياً فاني أضن بحياتي وأحب البقاء من أجله .. والا فلا انتظر رجال يزيد ليبحثوا عني بل انا القي نفسي بين ايديهم وأعرض صدري لاسنتهم أو حراب بحيث ... وهو لا يزال حي ... اكد لي الآن ان عبد الرحمن مات فتراني مائتة

في هده الساعة ... » قالت ذلك وهي تشهق من شدة البكاء

فاجابها الشيخ بضحكة طويلة طالما سمعتها منه وقال لها « عبد الرحمن ... ايه .. ايه .. وما لك ولعبد الرحمن .. واذا فرضنا ان يزيد مات وعبد الرحمن لا يزال حيا صحيحاً معافى فماذا تقولين .. ؟ »

قالت « قلت لك يا مولاي .. لا تهزأ بعواطفي وقد كفاني ما أصابني.. استحلفك بالله أن تتركني وشأني »

قال « وما معنى الاستهزاء الان ... أني اقول الجد .. واذا كنت لا تصدقيني فاني أنادي صوتاً فاستحضر عبد الرحمن بين يديك وعامر معه »

فشخصت في الشيخ شخوص الدهشة وفكرت قليلا وهي لا تزال تظنه يمزح ولكن قلبها خفق خفوق الفرح وكانه دلها على صدق قوله فقالت « نعم ادع لي عبد الرحمن او قل لي اين هو فاسعى اليه على رأسي و يدي »

قال « بل هو يسعى اليك تربصي ريثما ادعوه اليك » قال ذلك وخرج وهي لا تزال تحسبه يعبث بها ولكنها سارت في اثره فلما وقع بصرها على الرجلين قالت في نفسها لعل عبد الرحمن أحدهما فلما اطلت عليهما عرفت عبد الرحمن واسرعت واسرع حتى تقابلا ورمت نفسها على ذراعيه فضمها ودموعهما تتساقط من شدة الفرح وعامر والشيخ واقفان وقلباهما يرقصان فرحا لالتقاء ذينك الحبيبين بعد الياس من اللقاء . ثم انضماه ودخلوا جميعاً الى القصر ويدا سلمى بيد عبد الرحمن . وعامر لا يزال يفكر في أمر هذا الناسك وشأنه رجلا يعرف

الفصل الخامس والعشرون والمائة

واقعة الحرة

فدخلوا الحجرة وجلسوا يقصون ما مرَّ بهم

فبدأ عامر يقص ما اصابه واصاب عبد الرحمن منذ ذهبا الى الكوفة فقال « ذهبنا الى الكوفة للبحث عن امر مسلم بن عقيل فقبضوا على رفقائنا ونجونا نحن واختفينا في مكان ريثما نرى ما يكون من امر الحسين ورجاله فلما علمنا بقتلهم وارسال اهلهم الى دمشق اقتفينا أثرهم الى دمشق فقيل لنا انهم ارسلوهم الى المدينة فسرنا الى المدينة واليأس قد أخذ منا مأخذاً عظيما لاعتقادنا بموت الحبيبة سلمى مع حبوط مسعانا في نصرة الحسين على القوم الظالمين

« فوصلنا المدينة واقمنا فيها مدة .ولم يتفق لنا لقاء زينب الا بعد واقعة الحرة التي أتم يزيد بها فظائعه على انصار اهل البيت — وسبب هذه الواقعة ان اهل المدينة اجمعوا آخر العام الماضي (٦٣ للهجرة) على خلع يزيد واخرجوا عامله من المدينة فبعث اليهم جنداً مع مسلم بن عقبة وامره ان يقاتلهم فاذا ظفر بهم اباح المدينة للجند ثلاثة ايام فسار وحارب وقتل كثيرين من اهل المدينة ثم اباحها فقضى رجاله ثلاثة ايام وهم يقتلون الناس وينهبون الاموال ويفسقون ويرتكبون كل منكر [1] وبلغ عدد الذين قتلوا من وجوه الناس سبعمائة ومن الموالي عشرة آلاف

« وكنت في اثناء هذه المذبحة من أنصار أهل البيت ولكن يزيداً هذه المرة اوصى بهم خيراً فلم يصابوا بسوء

ولما انقضت المذبحة وارتاح البال لقيت زينب فسألتني عمن لقيت سلمى فقلت رأيي سلمى . فاخبرتنا عما كان من بقائها وانها رأتها آخر مرة خارج

---

(١) ابو الفداء ج ١

دمشق فركبنا الى دمشق وبحثنا عنها فلم ينبئنا منبىء بخبرها ولكننا فهمنا في اثناء البحث ان الشيخ الناسك كان هنا في نحو ذلك الزمن فترجح لنا انكما سرتما معاً . و بعد التحري علمنا من بعض القادمين من بحيراء الى دير خالد ان مولانا الشيخ في جوار بصرى فجئنا لعلنا نراك ونبحث عن سلمى . فالحمد لله على هذه الصدفة الغريبة »

وقصت سلمى ما اتفق لها منذ كانت في قصر يزيد الى آخر حديثها

وقص الناسك ما كان من واقعة كربلاء حتى اتى على حديث الامس وجرعة العسل فابتدرته سلمى قائلة « لم تخبرني بعد عن سبب تغير سحنتك »

قال « هذا لا اخبرك به الان ولكنني اخبرك بسبب تاخري عن الرجوع فاسمعوا — خرجت بحجة استجلاب الطعام لسلمى وانا انما اريد ان استطلع عاقبة تلك الكاس فهرعت الى بصرى وتنسمت الاخبار فعلمت ان يزيداً ركب في ذلك الصباح وهو يشكو من جنبيه وقد اصابته بحة وهي اول اعراض هذا السم ولا اظنه الا مائتاً قريباً فينجو الاسلام والمسلمون من خلافته

وكان الشيخ يتكلم وعامر يتأمل في ملامحه وحركاته لمشابهته رجلا يعرفه فلما بلغ الى قوله عن قرب موت يزيد اشتغل الفرح عن كل شاغل وكذلك عبد الرحمن وسلمى وباتوا تلك الليلة ولم يناموا الا قليلا لشدة الفرح

وفي ضحى اليوم التالي عاد رسولهم الذي انفذوه الى بصرى فسألوه عما وراءه فقال انه لم يجد الشيخ الناسك بل سمع بوفاة يزيد في حوارين[1]

فصاح الشيخ « هل تحققت موته »

قال « نعم يا مولاي »

---

(١) توفي يزيد في ١٤ ربيع اول سنه ٦٤ هـ وهو ابن ثماني وثلاثين سنه بالذبحة وداء الجنب في حوران وقيل في حوارين

الفصل السادس والعشرون والمائة

كشف الحقيقة

فقال الشيخ « وما سبب موته وعهدنا به شاب صحيح البدن »

قال الرجل « سمعتهم يقولون انه اصيب بداء الجنب والذبحة وكانه ذاب ذوبان الرصاص »[1]

فتظاهر الشيخ بالاسف وأشار الى عامر أن يصرف رسوله فنهض عامر فصرفه واثنى على فضله وعاد وقد خلا الاربعة في حجرة من حجر صرح الغدير ولم يمر باحدهم يوم أسعد من ذلك اليوم وخصوصاً سلمى لانها هي التي باشرت الانتقام بنفسها

ونظر اليها عبد الرحمن نظرة المحب المفتون وقال « لا ادري كيف أحبك ولا كيف ابدي لك حبي وكيف لا أموت في هواك وقد احرزت اشرف خلال النساء واندر خلال الرجال فحويت الجمال والوقار والحكمة والعقل والشجاعة . ويكفي من حسناتك انك قتلت هذا الدعي وانقذت المسلمين من ظلمه وانتقمت لابيك انتقاما عجزنا كلنا عنه ... »

فاجابته سلمى بدامع عينيها اني انما فعلت ذلك لاني احبك ولا يصعب عليَّ شيء في سبيل حبك

وكان الشيخ في اثناء ذلك شاخصاً في الفضاء كأنه مستغرق في امر ذي بال وعامر ينظر اليه من طرف خفي ويتفرس في وجهه لمشابهته برجل يعرفه وهو عزيز عليهم جميعاً فلما فرغ عبد الرحمن من كلامه انتبه الشيخ الناسك كانه هب من رقاد والتفت اليهم وقال « آن لي أن اقص عليكم ما تسألون عنه من حديثي تعالوا معي . فساروا في أثره حتى دخلوا غرفة الجلوس وقد تغير وجهه

---

(١) الخميس ج ٢

وبان الجد في عينيه وكأنه كان مصاباً بالجنون وعاد عقله اليه في تلك الساعة وظهر ضعف الشيخوخة فيه . وقبل أن يقص حكايته التفت الى عامر وقال « ألا تعرفني يا عامر »

فتفرس فيه عامر وقال « قد عرفتك في هذه اللحظة .. ألست عدياً والد حجر .. ؟ »

قال « نعم »

فلما قال ذلك التفتت سلمى اليه وقالت « أنت جدي ؟ .. »

قال « نعم يا حبيبتي ولعلك ادركت شيئاً من ذلك يوم رثيت الحسين في سهل كربلاء » . فترامت سلمى على يديه تقبلهما فقبلها عدي وهو يبكي و يشهق وبكى عبد الرحمن وقبل يد الشيخ . ثم عاد الشيخ الى اتمام الحديث فقال « واما سبب تكتمي فهو اني لما أصبت بمقتل حجر لم يعد يحلو لي البقاء . ولكن قلبي ظل عالقاً بالانتقام وكيف انتقم وممن أنتقم ؟ فعللت نفسي بموت معاوية ومبايعة الحسين وجعلت مقامي فوق قبر ابني وحشاشة كبدي في غوطة دمشق استنشق ترابه واتنسم ريحه . ففشل الحسين بالبيعة وولي الخلافة يزيد وانا صابر انتظر الفرج أو أموت . فلما جئتم الى دير خالد واجتمعتم تحت الجميزة وتعهد عبد الرحمن بقتل يزيد كنت انا مختبئاً في اعلى الجميزة وانا القائل لكم في تلك الليلة و بشر الذين ظلموا بعذاب أليم . وظللت كاتماً امري وانا اسعى في مساعدتكم جهدي كما تعلمون واخاف ان يعرفني عامر اذا لقيته فكنت اغطي وجهي منه . وقد عاهدت نفسي منذ ذهبت بحجر ان لا أقص شعري ولا آكل غير الفاكهة ولا آوي المنزل ولي حتى منيت بما تشتهيه نفسي من الانتقام سلمت روحي . فلما علمت البارحة بقرب موت يزيد حللت نذري وقصصت شعري كما ترونني .. وقد مات يزيد فقد آن لي أن أسلم الروح ... فأوصيكم بتقوى الله والاستمساك [illegible]

النبي واقيموا في مكة وحجوا الى كربلاء وابكوا قتلاها ما استطعتم وسيقتص الله من القوم الطاغين .. » قال ذلك وقد تلجلج صوته وكلهم يبكون ويعجبون ثم توسد وتمطى وهو يقول اني اتلقى الموت بالترحاب بعد أن بلت ثرى ولدي بدم ابن قاتله » وما اتم قوله حتى اختلج واسلم الروح

فبكوه وندبوه وهم يستغربون ما قصه عليهم من خبره وفي اصيل ذلك اليوم دفنوه وصلوا عليه ورحلوا عن البلقاء حتى اتوا مكة وفيها ابن الزبير ولا سلطان للامويين فيها فعقدوا لعبد الرحمن على سلمى وعاشوا بالهناء حتى اراد الله أن يتوفاهم